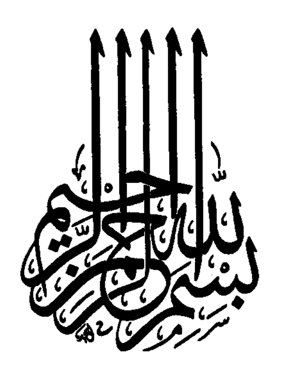


تأليف
محمد شومان بن أحمد الرملي



الدُّرَرُ البَهِيَّة

فِي المَوَاعِظِ الجَوْزِيَّة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

الطبعة الأولى



دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب :٩٢٧٥١١ عمّان ١١١٩٠ الأردن
هاتف: ٥٦٩٣٩٤٠ - فاكس : ٥٦٩٣٩٤١
بريد الكتروني: ALNAFAES@HOTMAIL.COM

المقـدّمَـة

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد، فإني نظرت في مواعظ الإمام ابن الجوزي المبثوثة في كتبه المطبوعة، فألفيتها تحوي من غرر الحِكَم ونفائس الألفاظ وبدائع الفوائد ما لم أجده في غيرها، مما حملني على جمع جملة منها وضعتها في هذا الكتاب.

وقد انتقيتها بعد تمعن وفكر، واخترتها بعد نظر وروية، ثم رتبتها ونسقتها، وجعلت لها عناوين تُفْتَتَح بها، وأيضاً شرحت غريب ألفاظها، وبينت مبهم كلماتها.

ولا أريد أن أشرح ما لقيته في عملي هذا من النَّصَب، فإن مَنْ يعرف طريقة ابن الجوزي في الوعظ، ويَخْبُرُ أُسلوبه في ذلك، يعلم تماماً قدر ما عانيته في الانتقاء، فضلاً عن شرح الغريب من الألفاظ، فضلاً عن توضيح العويص من التركيبات وبيان المجمل من العبارات، التي - وإن شُرِحَتْ مفرداتُها- لا يكاد القارىء يفهم معناها ولا الناظر يقع على المراد منها إلا بعد تفسيرها جملة واحدة.

هذا، وقد أوتي الإمام ابن الجوزي من القدرة في صناعة الوعظ والتفنن فيه والتنمق في اختيار الألفاظ شيئاً عجباً.

فإنه يأتي بالكلمة الواحدة تحمل معاني تغني عن كلمات كثيرة، وبالجملة تكفي من جُمَلٍ عديدة، بل أحياناً يتكلم بالعبارة تحمل في طِيّاتها قصة كاملة، وتنبه في رصانتها على قاعدة شاملة، يلقي واعظنا بذلك كله على أسماع الناس، فتتشنف لها آذانهم، وتندهش منها نفوسهم، وتنشرح لها صدورهم، وتخشع لها قلوبهم، مما يراه السامع نَفْثَ سحرٍ لكنه حلال، ويظنه هُبُوب جَنُوب وهو هُبُوب شَمَال.

فلله دَرّه؛ ما أعذب لسانه! وما أحسن كلامه! وما أجود بيانه!

ولله دَرّه؛ ما أرَقّ كلماته! وما أرشق عباراته! وما أرَقّ إشاراته!

ترجمة موجزة للإمام ابن الجوزي

هو الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسر، شيخ الإسلام، مفخر العراق، جمال الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حَمَّاديٍّ بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر ابن القاسم بن محمد بن عبد الله ابن الفقيه عبد الرحمن ابن الفقيه القاسم بن محمد ابن خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق، القُرَشي التَّيْمِي البكري البغدادي، الحنبلي، الواعظ، صاحب التصانيف.

وجعفر الذي هو جده التاسع: قال ابن دحية: جعفر هو الجَوْزي، نُسب إلى فُرْضَةٍ من فُرَض البصرة، يقال لها: جوزة.

وقيل: كان في داره جوزة لم يكن بواسط جوزة سواها. وفُرْضةُ النهرِ ثلمتُه، وفُرْضةُ البحر محطُّ السفن.

ولد سنة تسع أو عشر وخمس مئة.

توفي أبوه وله ثلاثة أعوام، فرَبَّتْه عمته. وأقاربه كانوا تجاراً في النُّحَاس، فربما كتب اسمه في السماع عبد الرحمن بن علي الصفار.

ثم لما ترعرع حملته عمته إلى ابن ناصر، فأسمعه الكثير، وأحب الوعظ ولهج به وهو مراهق، فوعظ الناس وهو صبي، ثم ما زال نَافِقَ السُّوق، معظَّماً، مُتَغَالَياً فيه مُزْدَحَماً عليه، مضروباً برونق وعظه المَثَل، كماله في ازدياد واشتهار، إلى أن مات رحمه الله.

قال سبطه أبو المظفر: سمعت جدي على المنبر يقول: بأصبعَيّ هاتين كتبتُ ألفي مجلدة، وتاب على يدي مئة ألف وأسلم على يديّ عشرون ألفاً.

قال: ومجموع ما صنفه مئتان ونيف وخمسون كتاباً.

قال الذهبي: ما عرفت أحداً صَنّفَ ما صَنّف.

«سير أعلام النبلاء»

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «أجوبته المصرية»: كان الشيخ أبو الفرج مفتياً كثير التصنيف والتأليف، وله مصنفات في أمور كثيرة، حتى عددتُها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك ما لم أره.

«الذيل على طبقات الحنابلة» لابن رجب

وقال سبطه أبو المظفر: وعُنِي بأمره شيخُه ابن الزاغُوني، وعلّمه الوعظ، واشتغل بفنون العلوم، وأخذ اللغة عن أبي منصور بن الجواليقي، وربما حضر مجلسه مئة ألف، وأوقع الله له في القلوب القبول والهيبة.

وقال: وكان زاهداً في الدنيا، متقلّلاً منها، وما مازح أحداً قط، ولا لعب مع صبي، ولا أكل من جهة لا يتيقن حلّها.

«السِّيَر»

إمامته في الوعظ:

قال ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب»: «وعظ في صغره، وفاق فيه الأقران، ونظم الشعر المليح، وكتب بخطه ما لا يوصف، ورأى من القبول والاحترام ما لا مزيد عليه، وحكى غير مرة أن مجلسه حُزِر بمِائة ألف».

وقال عن نفسه في آخر «كتاب القصاص والمذكرين»: «ما زلت أعظ الناس وأحرضهم على التوبة والتقوى، فقد تاب على يدي إلى أن جمعت هذا الكتاب أكثر من مِائة ألف رجل، وقد قطعت من شعور الصبيان اللاهين أكثر من عشرة آلاف طائلة، وأسلم على يدي أكثر من مِائة ألف، وقد جمعت في آلات الوعظ كتباً لم أُسْبَق إلى مثلها».

وقال الحافظ ابن الدبيثي (كما في «الذيل» لابن رجب): «له في الوعظ العبارة الرائقة، والإشارات الفائقة، والمعاني الدقيقة، والاستعارة الرشيقة، وكان من أحسن الناس كلاماً، وأتمهم نظاماً، وأعذبهم لساناً، وأجودهم بياناً».

وقال الموفق عبد اللطيف (كما في «الذيل» أيضاً): «كان ابن الجوزي لطيف الصورة، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركات والنغمات، لذيذ المفاكهة، يحضر مجلسه مِائة ألف أو يزيدون، لا يضيع من زمانه شيئاً، يكتب في اليوم أربعة كراريس، ويرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلداً إلى ستين.

وله في كل علم مشاركة، لكنه كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفاظ، وفي التاريخ من المتوسعين، ولديه فقه كافٍ.

وأما السجع الوعظي فله فيه ملكة قوية، إن ارتجل أجاد، وإن روى أبدع».

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية»: «وتفرد بفن الوعظ الذي لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه وفي طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه، ونفوذ وعظه، وغَوْصه على المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة فيما يشاهَد من الأمور الحسية، بعبارة وجيزة سريعة الفهم والإدراك؛ بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة».

قال: «وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء والوزراء والملوك والأمراء والعلماء والفقراء، ومن سائر صنوف بني آدم، وأقل ما كان يجتمع في مجلس وعظه عشرة آلاف، وربما اجتمع فيه مِائة ألف أو يزيدون (!!)، وربما تكلم من خاطره على البديهة نظماً ونثراً، وبالجملة كان أستاذاً فرداً في الوعظ وغيره».

قلت: هو ملك الوعظ في زمانه، ولم يأت بعده مثله، ولا من يقاربه، ولا من هو عشر معشاره، حتى ما تراه من الكلمات الوعظية البديعة والحكم الفريدة

في مثل «فوائد» ابن القيم أو «لطائف» ابن رجب، فغالبها له، وسائرها محاكاة لطريقته.

وقال الذهبي في «السِّيَر»: «كان رأساً في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق والنثر الفائق بديهاً، ويُسْهِب ويُعْجِب ويُطْرِب ويُطْنِب، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ، والقيم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة. . .، مع التَّصَوُّن والتجمل، وحسن الشارة، ورشاقة العبارة».

وقال: «وكان ذا حظ عظيم وصيت بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة والكبراء، لا يكاد المجلس ينقص عن ألوف كثيرة».

وقال هو عن نفسه في «صيد الخاطر» (ص٤١): «. . . لا يخلو لي مجلس من خلقٍ لا يُحْصَوْن، يبكون ويندبون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعة يتوبون ويقطعون شعور الصِّبا، وربما اتفق خمسون ومِائة، ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مِائة، وعمومهم صبيان قد نشؤوا على اللعب والانهماك في المعاصي».

وقال في «المدهش» (ص٤٦٠): «وا عجبا لألفاظي وعملها، بَطَلَ السحر عندها. كل المُذَكِّرين رَجّالة وأنا فارس، أَخرجُ إلى المعاني في كمين فأصيدها لا بأُحبولة. إذا حضرتُ ملكتُ العيون، وإذا غبت استرهنت القلوب».

وقال في «المدهش» أيضاً (ص٤٨٣): «كلامي صحيح المزاج، خفيف الروح، أنا صايغ صانع، بابليٌّ لفظي يُبَلْبِل، أنا ماشطة القوم، أنا لسان الوقت.

فكأنّ قِسّاً في عُكَاظٍ يَخْطُبُ ... وكأنّ لَيْلَى الأخْيَلِيّةَ تَنْدُبُ
وكُثَيِّرَ عَزَّةَ يومَ البَيْنِ يُطْنِبُ ... وابْنَ المقفع في اليتيمة يُسْهِبُ

أنا طبيب لبيب؛ أمزج التحذير بالتشويق للعاملين، وأجعل كأس التخويف صِرفاً للغافلين، وأجتهد في التلطف جَهدي بالعارفين».

وقال في «صبا نجد» في آخره: «كلامي أطيب من تغريد الأطيار على أفنان الأشجار، وألذّ من تجاوب الأوتار في أواخر الأسحار. كلامي يَسْلُبُ الماءَ رِقَّتَه، والنَّحْلَ رِيقته، يُخْجِل نظم العقود، ويسكر ولا ابنة العنقود، أحسنُ من نَوْر الخمائل، وأنفذ من سحر بابل، إذا طرق باب السمع وقع القفل قبل الفَشّ، فدخل الأُذُن بلا إذن».

وقال ابن جبير يصف ما شاهده في «رحلته» من مجالس ابن الجوزي الوعظية: «. . . يصعد المنبر، ويبتدىء القراء بالقراءة وعددهم نَيِّف على العشرين قارئاً، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة، وقد أتوا بآيات مشتبهات، لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عدداً أو يسميها نسقاً، فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلاً مبتدراً، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه درراً، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته فِقَراً، وأتى بها على نسق القراءة لها لا مقدماً ولا مؤخراً، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها، فلو أن أبدع من في مجلسه تكلّف تسمية ما قرأ القراء به آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مرتجلاً، ويورد الخطبة الغراء بها عجلاً؟! فحدّث ولا حرج عن البحر، وهيهات! ليس الخَبَرُ عنه كالخُبْر.

ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح(!)، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، ومنهم من يغشى عليه(!) فيُرفع في الأذرع إليه، فشاهدنا

هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثبج البحر، ونعتسف مفازات القَفْر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل، لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة.

وفي أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل، وتطير إليه الرقاع، فيجاوب أسرع من طرفة عين، وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا إله سواه.

ثم شاهدنا مجلساً ثانياً له بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفر بباب بدر، في ساحة قصور الخليفة، ومناظره مشرفة عليه، وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة، خُصّ بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحُرَم، ثم يفتح الباب للعامة فيدخلون إلى ذلك الموضع، وقد بسط بالحصر، وجلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس، فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور، وقعدنا إلى أن وصل هذا الحبر المتكلم، فصعد المنبر، وقد تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعة، فابتدروا القراءة على الترتيب، وابتدرت العيون بإرسال الدموع، فلما فرغوا من القراءة، وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات، صدع بخطبته الزهراء الغراء، وأتى بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات، ومَشّى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب، إلى أن أكملها، وكانت الآية: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾، فتمادى على هذا السين وحسّن أي تحسين، فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه.

ثم أخذ في الثناء على الخليفة، والدعاء له ولوالدته، وكَنَى عنها بالستر الأشرف والجناب الأرأف، ثم سلك سبيله في الوعظ، كل ذلك بديهة لا رَوِيّة، ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى، فأرسلت وابلها العيون، وأبدت النفوس سر شوقها المكنون، وطاشت الألباب والعقول(!)،

وكثر الوله والذهول، وصارت النفوس لا تملك تحصيلاً، ولا تميز معقولاً، ولا تجد للصبر سبيلاً(!!).

ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق، بديعة الترقيق، تشغل القلوب وجداً، ويعود موضوعها النسيبي زهداً، وكان آخر ما أنشده من ذلك، وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام، وأصابت المقاتلَ سهامُ ذلك الكلام:

أيــن فـؤادي؟ أذابــه الـوجــدُ   وأيــن قلبــي؟ فمــا صحــا بعــدُ

يا سعــدُ زدني جوىً بذكرهمُ   بالله قل لي فُديت يا سعــدُ

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثّر فيه، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه، إلى أن خاف الإفحام، فابتدر القيام، ونزل عن المنبر دَهِشاً عَجِلاً، وقد أطار القلوب وَجَلاً، وترك الناس على أحر من الجمر، يشيعونه بالمدامع الحمر، فمن معلن بالانتحاب(!)، ومن متعفر بالتراب(!)، فيا له من مشهد ما أهول مرآه! وما أسعد من رآه! نفعنا الله ببركته، وجعلنا ممن فاز به بنصيب من رحمته، بمنّه وفضله.

وفي أول مجلسه أنشد قصيداً نيِّر القَبَس، عِراقيّ النَّفَس، ففرغ من إنشاده وقد هز المجلس طرباً، ثم أخذ في شأنه، وتمادى في إيراد سحر بيانه، وما كنا نحسب أن متكلماً في الدنيا يُعطى من مَلَكَة النفوس والتلاعب بها ما أُعطي هذا الرجل، فسبحان من يخص بالكمال من يشاء من عباده! لا إله غيره.

وكنّا قد شاهدنا بمكة والمدينة شرّفهما الله مجالس [لغيره]، فصغرت بالإضافة لمجلس هذا الرجل الفذّ في نفوسنا قدراً، ولم نستطب لها ذكراً.

وحضرنا له مجلساً ثالثاً يوم السبت الثالث عشر لصفر بالموضع المذكور بإزاء داره على الشط الشرقي، فشاهدنا من أمره عجباً، صَعّد بوعظه أنفاس الحاضرين سُحُباً، وأسال من أدمعهم وابلاً سَكْباً، ثم جعل يردد في آخر مجلسه

أبياتاً من النسيب شوقاً زهدياً وطرباً، إلى أن غلبته الرِّقّة، فوثب من أعلى منبره والهاً مكتئباً، وغادر الكل متندماً على نفسه منتحباً، لهفان ينادي: يا حسرتا! وا حَرَبا! والنادبون يدورون بنحيبهم دور الرحَا، وكل منهم بعدُ من سكرته ما صحا(!)، فسبحان من خلقه عِبرة لأولي الألباب، وجعله لتوبة عباده أقوى الأسباب! لا إله سواه».

انتهى من «رحلة ابن جبير» بحذف يسير أحياناً

قال ابن رجب في «الذيل»: «وحاصل الأمر؛ أن مجالسه الوعظية لم يكن لها نظير، ولم يُسْمَع بمثلها، وكانت عظيمة النفع، يتذكر بها الغافلون، ويتعلم منها الجاهلون، ويتوب فيها المذنبون، ويسلم فيها المشركون».

قلت: ومن غُرَر ألفاظه ونفيس أنفاسه:

من «الذيل» لابن رجب:

شهوات الدنيا أنموذج، والأنموذج يعرض ولا يقبض.

مَنْ قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه.

وقيل له: إن فلاناً وصّى عند موته. فقال: يا مُفَرِّطِين، ما تطينون الدار إلا في كانون!

وسأله سائل: أيجوز أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي؟ فقال: عند نفسك من الغفلة ما يكفيها، بالملاهي مَلاَ هي.

قلت: يريد: بالملاهي مَلأى هِيَ؛ يعني: النفس، خُفِّفَتِ الهمزةُ، وتخفيفها معمول به. راجع «اللسان» - إن شئت.

وقال يوماً في قول [الله تعالى على لسان] فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]: ويحه! افتخر بنهر ما أجراه، ما أجراه! يعني: ما أجرأه.

وسئل يوماً: ما تقول في الغناء؟ فقال: أقسم بالله لَهُوَ لَهْوٌ.

وقال: مَا عَزّ يوسفُ إلا بترك ما ذَلّ به مَاعِزُ.

وقال لصاحب له: أنت في أوسع العذر من المُتأَخّر عني لثقتي بك، وفي أضيقه من شوقي إليك.

ومن «**المدهش**»:

الخلوة مَهْر بِكر الفِكْر، وسُلّم معراج الهمة.

لا تُصَادِقَنَّ فاسقاً، فإن مَنْ خان أوّلَ مُنْعِمٍ عليه لا يَفِي لك.

يا أفراخ التوبة، لازموا أوكار الخلوة، فإن هِرّ الهوى صَيُود.

على نُوحٍ نَحْتُ السفينة، وأن يصيح: اركبوا، فما ذنبه إنْ تخلف كَنْعان؟!

سحابة الصيف أثبت من قولك، والخط على الماء أبقى من عهدك.

كم يشكو حزيرانُ نُطْقِك من كانون عَزْمك!

ومن «**السِّيَر**» **للذهبي**:

عقارب المنايا تلسع، وخَدَران جسم الأمل يمنع.

وسأله رجل أيام ظهور الشيعة: أيما أفضل أبو بكر أو علي؟ فقال: أفضلهما مَنْ كانت بنتُه تَحْتَه.

وسأله آخر: أيما أفضل: أُسَبِّح أم أستغفر؟

قال: الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون من البَخُور.

وقال له رجل: ما نِمْتُ البارحة من شوقي إلى المجلس. قال: لأنك تريد الفُرْجة، وإنما ينبغي الليلة أن لا تنام.

قلت: يعني: تأثراً بما سمعه من الوعظ والتذكير، وحَذراً مما أوقفه عليه الواعظ النذير.

ومن كلامه: ما اجتمع لامرىءٍ أَمَلُه، إلا سعى في تفريقه أجلُه.

وقال عن واعظ: احذروا جاهل الأطباء، فربما سَمّى سُمّاً ولم يعرف المُسَمَّى.

وكان في المجلس رجل يُحَسِّنُ كلامَه ويُزَهْزِهُ له، فسكت يوماً، فالتفت إليه أبو الفرج وقال: هارون لفظك مُعينٌ لموسى نُطْقي، فأرسله مَعِيَ رِدْءاً.

وقال يوماً: أهل الكلام يقولون: ما في السماء رب! ولا في المصحف قرآن! ولا في القبر نبي! ثلاث عورات لكم.

قال الذهبي: وهذا باب يطول، ففي كتبه النفائس من هذا وأمثاله.

قلت: وقد جمعت منه جملة طيبة تَصْلُح أن تُودَع في نحو خمسين ورقة أو أكثر، أسأل الله عز وجل أن يرزقني قوة وهمة لإتمامها وإنجازها، وأن ينفعني والقراء الكرام بما أكتب، وأن يتقبل منا أعمالنا، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

مذهب ابن الجوزي في الصفات:

قال شيخ الإسلام («مجموع الفتاوى» ٤/١٦٩): «أبو الفرج متناقض في هذا الباب؛ لم يَثْبُت على قدم النفي ولا على قدم الإثبات، فهو في هذا الباب مثل كثير من الخائضين فيه من الناس؛ يُثْبِتون تارة، ويَنْفُون أخرى في مواضع كثيرة من الصفات، كما هو حال أبي الوفاء بن عقيل وأبي حامد الغزالي».

وقال ابن رجب في «الذيل»: «لا ريب أن كلامه في ذلك مضطرب مختلف، وهو وإن كان مطلعاً على الأحاديث والآثار في هذا الباب فلم يكن خبيراً بحل شبهة المتكلمين وبيان فسادها، وكان معظّماً لأبي الوفاء بن عقيل، يتابعه في أكثر

ما يجد من كلامه، وإن كان قد ردّ عليه في بعض المسائل، وكان ابن عقيل بارعاً في الكلام، ولم يكن تامّ الخبرة بالحديث والآثار، فلهذا يضطرب في هذا الباب، وتتلوّن فيه آراؤه، وأبو الفرج تابع له في هذا التلوّن».

وقال الذهبي في «السِّيَر» بعد أن أثنى عليه -كما تقدم-: «فليته لم يَخُض في التأويل ولا خالف إمامَه». (يعني: الإمام أحمد بن حنبل).

وفاته:

قال سبطه أبو المظفر: جلس جدي يوم السبت سابع شهر رمضان - يعني سنة سبع وتسعين وخمسمائة - تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي، وكنت حاضراً، فأنشد أبياتاً قطع عليها المجلس، وهي هذه:

اللهَ أسألُ أن يُطَوِّل مُدّتي	وأنال بالإنعام ما في نِيَّتي
لي هِمّة في العلم ما من مثلُها	وهي التي جَنَت النُّحُول هي التي
خُلِقَتْ من العِلق العظيم إلى المُنى	دُعِيَتْ إلى نيل الكمال فَلَبَّتِ
كم كان لي من مجلسٍ لو شُبِّهَتْ	حالاته لتَشَبَّهَتْ بالجَنّةِ
أشتاقُه لما مَضَتْ أيامُه	عُطْلاً وتُعْذَرُ ناقةٌ إن حَنَّتِ
يا هَلْ لِلَيلاتٍ بِجَمْعٍ عَوْدَةٌ	أم هل إلى وادي مِنىً من نَظْرَةِ
قد كان أحلى من تصاريف الصِّبى	ومن الحمام مُغَنِّياً في الأَيْكَةِ
فيه البَديهاتُ التي ما نالها	خلقٌ بغير مُخَمّرٍ ومُبَيَّتِ
برَجاحةٍ وفصاحةٍ ومَلاحةٍ	تَقْضي لها عدنانُ بالعربيةِ
وبلاغةٍ وبراعةٍ ويراعةٍ	ظَنّ النّباتيّ أنها لم تَنْبتِ
وإشارةٍ تُبْكي الجُنَيْدَ وصَحْبَه	في رِقّةٍ ما نالها ذو الرُّمَّةِ

قال أبو شامة: هذه الأبيات أظنها كان نظمها في أيام محنته، إذ كان محبوساً بواسط، فمعانيها دالة على ذلك، والله أعلم.

ثم قال أبو المظفر: ثم نزل عن المنبر، فمرض خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة بين العشاءين في داره بقَطُفْتَا.

قال: وحكت لي والدتي أنها سمعته يقول قبل موته: أيش أعمل بطواويس؟! - يرددها- قد جبتم لي هذه الطواويس!

وحضر غسله شيخنا ضياء الدين بن سكينة وضياء الدين بن الجبير وقت السحر، واجتمع أهل بغداد، وغلقت الأسواق، وجاء أهل المحالّ، وشَدَدْنا التابوت بالحبال، وسلمناه إليهم، فذهبوا به إلى تحت التربة مكان جلوسه، فصلى عليه ابنه أبو القاسم عليٌّ اتفاقاً؛ لأن الأعيان لم يقدروا على الوصول إليه، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور، فصلوا عليه، وضاق بالناس، وكان يوماً مشهوداً.

انتهى من «الذيل» لابن رجب

رحم اللهُ تعالى الإمامَ ابن الجوزي، وأسكنه فسيح جناته، ونفعنا والقراء الكرام بما في هذا الكتاب من مواعظه وكلماته. آمين.

وكتب

محمد شومان

١٨ ذو الحجة ١٤٢٢هـ

المواعظ الجوزية



طوبى لمن قرن ذنبه بالاعتذار

طوبى لمن قرن ذنبه بالاعتذار، وتلافاه باستغفاره آناء الليل وأطراف النهار، والويل كل الويل لمن أحكم عَقْد الإصرار، أيها العاصي تفكّر في حال أبيك، وتذكّر ما جرى له ويكفيك، أُبْعِدَ بعْدَ القرب من ربه، وأُهْبط من الجنة لشُؤْم ذنبه، وأسره العدو بخديعته في حَرْبه، ويسعى في هلاكك فاعتبر به، فرحم الله امرءاً تأهّب لمحاربة عدوه في رواحه وغدوّه، فإنه مُرَاصده في القول والعمل، ويُحَسِّن له بالمكر والتسويف والأمل، ويذكِّره الهوى وينسيه الأجَل، فليلبس أحصن الجُنَن، فالرامي يطلب الخَلل.

اصبر لمرّ حوادث الدهرِ ... فلتَحْمَدَنَّ مَغَبَّة الصبرِ

واجهد لنفسك قبل ميتتها ... واذخَر ليوم تفاضل الذخرِ

فكأن أهلك قد دعَوْك فلم ... تسمع وأنت مُحشرج الصدرِ

وكأنّهم قد قلّبوك على ... ظهر السرير وأنت لا تدري

وكأنّهم قد زودوك بما ... يتزود الهلكى من العطرِ

يا ليت شعري كيف أنت إذا ... غُسِّلت بالكافُور والسِّدرِ

أو ليت شعري كيف أنت على ... نَبْش الضريح وظلمة القبرِ

يا ليت شعري ما أقول إذا ... وُضِع الكتاب صبيحة الحشرِ

ما حجتي فيما أتيت على ... علمٍ ومعرفةٍ وما عذري

يا سَوْأتا مما اكتسبت ويا ... أسَفي على ما فات من عمري

ألا أكون عقلت شأني فاستقـ ... ـبلت ما استدبرت من أمري

يا مضيع الزمان فيما يَنْقُص الإيمان، يا معرضاً عن الأرباح مُتعرِّضاً للخسران، متى تنتبه من رقادك أيها الوَسْنان؟ متى تفيق لنفسك؟ أما حَقَّ؟ أما آن؟!

رجوتَ خلوداً بعد ما مات آدم ونوح ومَنْ بعد النبيين من قَرْنِ

وسَوّفت بالأعمال حتى تصرّمت سِنُوك فلا مالٌ ولا ولدٌ يغني

فشمِّر لدار الخلد فاز مُشمِّر إليها ونال الأمنَ في منزلِ الأمنِ

لقد شغلتنا أمُّ دفْرٍ[1] بزُخْرفٍ شُغِلْنا به عن طاعة الله ذي المَنِّ

عجبتُ لدنيا لا تَسُرُّ وإنما تَشُوب على تلك المسَرّة بالحُزنِ

ونحن عليها عاكفون كأنما بنا نَبَهٌ من فعلها حلم الجفنِ

إلام ترفض قول الناصح، وقد أتاك بأمر واضح؟ أترضى بالشَّيْن والقبائح؟ كأني بك قد نقلت إلى بطون الصفائح، وبقيت محبوساً إلى الحشر تحت تلك الضرائح، وخُتِم الكتاب على آفاتٍ وقبائح.

إنّا على قلعة من هذه الدار نُساق عنها بإمساء وإبكار

نبكي ونندبُ آثار الذين قَضَوا وسوف تَلْحق آثارٌ بآثار

طالت عِمارتنا الدنيا على غَرَرٍ ونحن نعلم أنّا غير عُمّار

يا من يُحَثّ بتَرْحال على عَجَلٍ ليس المَحَلّة غير الفوز والنار

فاترك مفاخرة الدنيا وزينتها يوم القيامة يوم الفخر والعار

لقد أبانت الدنيا للنواظر عيونها، وكشفت للبصائر غيوبها، وعدّدت على

---

(١) أم دَفْر: الدنيا.

المسامع ذنوبها، وما مرَّت حتى أمرَّت مَشْرُوبها، فَلَذَّتها مثل لَمَعانِ بَرْق، ومصيبتها واسعة الخَرْق، سوّت عواقبها بين سلطان الغرب والشرق، وبين عبد قِنّ[1] وحقير ولا فرق، فما نجا منها ذو عَدَد ولا سَلِم فيها صاحب عُدَد، مزَّقت والله الكلَّ بكف البَدَد، ثم ولَّت وما ألْوت على أَحَد.

«التبصرة» (١/ ١٩-٢٠)

يا من أعماله كلها سقط

يا من أعماله كلها إذا تُؤُمِّلَتْ سَقَط، كم أُثْبت له عمل فلما عُدِم الإخلاص سَقَط، يا حاضر الذهن في الدنيا فإذا جاء الدِّين خَلَط، يجعل هَمَّه في الحساب فإذا صلّى اختلط، يا ساكتاً عن الصواب فإذا تكلم لَغَط، يا قريب الأجل وهو يجري من الزَّلَل على نمط، يا متكاثف الدَّرَن لم يُغْسَل ولم يُمَطْ، يا من لا يَعِظُه وَهَن العظم ولا كلام الشَّمَط، أمَا خَطُّ الشَّيْب يضحك في مَفْرق الرأس إذا وَخَط؟! أمَا المقام للرّحيل وعلى هذا شَرَط؟! يا من لا يرعوي ولا ينتهي بل على منهاج الخطيئة فقط، يا مثبتاً قبيح المعاصي لو تاب لانكشط، أما تميل إلى الصواب أما تترك الغلط؟! يا من إذا قيل له: ويحك أَقْسِطْ قَسَط[2]، إلى كم جَوْر وظلْم إلى كم جَهْل وشَطَط؟! ويحك! بادر هذا الزمان الخالي الملتقط، فالصحة غنيمة والعافية لَقَط، فكأنك بالموت قد سلَّ سيفه عليك واخترط، أين العزيز في الدنيا أين الغني المُغْتَبَط؟! خَيَّم بين القبور وضرب فسطاطه في الوَسَط، وبات في اللحد محبوساً كالأسير المرتبط، واسْتُلِبَتْ ذخائره فَفُرِّغ الصندوق والسَّفَط، وتمزق الجلد المستحسن

---

(١) العبد القن: الخالص العبودة، كان أبواه مملوكين لمواليه.

(٢) الأولى: من العَدْل، والثانية: من الجَور والعدول عن الحق.

وتمعّط الشعر القَطَط[1]، فكأنه ما رَجَّله قط وكأنه ما امتشط، وبَعُد عنه من يحبه إي والله وسخط، ورضي ورّاثه بما أصابوا وجعلوا نصيبه السَّخَط، وفرّقوا ما كان يجمعه بكف البخلِ والقَنَط، ووقع في قَفْرٍ لا ماء فيه ولا حِنَط[2]، وكم حُذِّر من وقوعه وكم أُوقف على النُّـقَط، وكم حُدِّث أن سعدَ ابن مُعَاذ في القبر انضغط، ويحك! اقبل نصحي ولا تتعرض للسَخَط، واحذر من المعاصي فبلقمةٍ زَلّ آدمُ وهَبَط، ويحك! اغتنم رخص السِّعر فكأنْ قد قَحَط، وبادر للسلامة فكأنْ قَبَض من بَسَط، وتفكَّر كيف كُفَّ بالعقوبة كَفُّ من انبسط، أتُرى تَقْبَل قولَ النذير أو لا تصدِّق الفَرَط[3].

«التبصرة» (١/ ٢٢-٢٣).

وا عجبا لمن يأمن!

وا عجبا لمن يأمن! وكم قد أُخِذ آمن من مأمن! ومن تفكر في الذنوب عَلِم أن لذات الأوزار زالت والمعاصي بالعاصي إلى النار آلَتْ، ورُبَّ سَخط قارن ذَنْباً فأوجب بُعْداً وأطال عَتْباً، وربما بُغِت العاصي بأجله ولم يَبْلغ بعض أمله، وكم خيرٍ فاته بآفاته، وكم بَلِيّة في طيّ جناياته.

قال لقمان لابنه: يا بني لا تؤخِّر التوبة فإن الموت يأتي بغتة.

قـــائـــد الغفلـــة الأمـــل	والهـــوى رائـــد الـــزَّلَـــلْ
قتـــلَ الجهـــلُ أهلَـــه	ونجـــا كـــلُّ مـــن عقَـــلْ
فـــاغتنـــم دولـــة الشبيـــ	ـبـــة واستـــأنِـــفِ العَمـــلْ

---

(١) الجعد.

(٢) جمع حِنْطة، وهي البُرّ.

(٣) أي: الفارط، وهو السابق المُتَقَدِّم.

أيهـــا المبتنـــي الحصـــو ن وقـــد شـــاب واكتَهـــلْ

أخبـــرَ الشيـــبُ عنـــك أنـّـ ـــك فـــي آخِـــر الأجَـــلْ

فعـــلامَ الـــوقـــوف فـــي عَـــرْصـــة العَجْـــز والكســـلْ

منـــزلٌ لـــم يـــزل يضيـ ـــق وينبـــو بمـــن نَـــزَلْ

أنـــت فـــي منـــزلٍ إذا حلَّـــه نـــازلٌ رَحَـــلْ

«التبصرة» (١/ ٢٥-٢٦)

طوبى لمن غسل درن الذنوب بتوبة

طوبى لمن غسل دَرَن الذنوب بتوبة، ورجع عن خطاياه قبل فَوْت الأوبة، وبادر الممكنَ قبل أن لا يُمْكن، مَنْ رأيت من آفات دنياه سَلِم؟ ومن شاهدته صحيحاً وما سَقِم؟ وأي حياة بالموت لم تنختم؟ وأي عُمْرٍ بالساعات لم يَنْصَرِم؟ إن الدنيا لغَرورٌ حائل، وسرورٌ إلى الشرور آيل، تُرْدي مستزيدَها وتُؤذي مستفيدَها، بينما طالبُها يضحك أبكته ويفرح بسلامته أهلكَتْه، فندم على زَلَلِه، إذا قدم على عمله، ويقي رهين خوفه ووجله، وودَّ أن لو زِيد ساعة في أجَله، فما هو إلا أسيرٌ في حُفرته، وخَسِير في سَفرته، وهذه وإن كانت صفة من عنَّا نأى، فكذا نكون لو أنَّ العاقل ارتأى.

سَبيلُك في الدنيا سبيـل مُسافـرٍ ولا بـدَّ مـن زاد لكـل مسافـرِ

ولا بُدَّ للإنسان من حَمْلِ عُدَّةٍ ولا سِيّما إن خاف سطوة قاهرِ

وطُرُقُكَ طُرْقٌ ليس تُسلَك دائماً وفيها عِقَاب بعدُ صَعْب القناطـرِ

«التبصرة» (١/ ٢٦)

أين الدموع الجارية؟

يا صاحبَ الخطايا، أين الدموعُ الجارية؟ يا أسير المعاصي، ابك على الذنوب الماضية، يا مبارزاً بالقبائح، أتصبرُ على الهاوية؟! يا ناسياً ذنوبه، والصُّحف للمَنْسِيّ حاوية، أسفاً لك إذا جاءك الموت وما أنَبْت، وا حسرةً لك إذا دُعيت إلى التوبة فما أجَبْت، كيف تصنع إذا نُودِي بالرحيل وما تأهَّبْت؟ ألستَ الذي بارزْتَ بالكبائر وما راقَبْت؟

قد مضى في اللهو عُمْري	وتناهى فيه أمري
شَمَّر الأكياسُ وأنا	واقفٌ قد شِيبَ أمري
بان رِبْح الناس دوني	ولحيني بانَ خُسْري
ليتني أقبل وعظي	ليتني أسمع زَجري
كلَّ يومٍ أنا رَهْنٌ	بين آثامي ووِزْرِي
ليت شعري هل أرى لي	هِمَّةً في فكِّ أَسْرِي
أو أُرى في ثوب صِدْقٍ	قبل أن أنزل قبري

«التبصرة» (١/ ٢٨)

أيا كثير الشِّقاق

أيا كثير الشِّقاق، يا قليل الوِفاق، يا مَرير المذاق، يا قبيح الأخلاق، يا عظيم التواني، قد سار الرفاق، يا شديد التمادي، قد صعب اللَّحاق، إخلاصٌ مُعْدَمٌ وما للنِّفاق نَفاق، معاصيك في إدراك، والعمر في إمْحاق، وساعي الأجل مُجِدٌّ كأنه في سِباق، لا الوعظُ يَزْجرك، ولا الموتُ يُنْذرك، ما تُطَاق.

«التبصرة» (١/ ٣٠)

﴿التَّائبُونَ العابِدُونَ﴾

سبحان من وفَّق للتوبة أقواماً، ثبَّت لهم على صراطها أقداماً، كَفُّوا الأكفَّ عن المحارم احتراماً، وأتعبوا في استدراك الفارط عِظَاماً، فكفَّر عنهم ذنوباً وآثاماً، ونشر لهم بالثناء على ما عملوا أعلاماً، فهم على رياض المدائح بترك القبائح يتقلّبون، ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢].

كشف لهم سُجُف الدنيا فرأوا عيوبها، وألاح لهم الأخرى فتلمَّحوا غيوبها، وبادَروا شمس الحياة يخافون غروبها، وأسبلوا من دموع الأجفان على تلك الأشجان غُروبها، واشتغلوا بالطاعات فحصَّلوا مَرْغوبها، وحثَّهم الإيمانُ على الخوف فما يأمنون، ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾.

نَدِموا على الذنوب فنُدبوا، وسافروا إلى المطلوب فاغتربوا، وسَقَوا غرس الخوف دَمْعَ الأسف وشَرِبوا، فإذا أقلقهم الحذَرُ طاشُوا وهَربوا، وإذا هبَّ عليهم نسيم الرجاء عاشوا وطَرِبوا، فتأمل أرباحهم وتلمَّح ما كَسَبوا، واعلم أن نَيْل النَّصيب بالنَصَب، ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾.

نظروا إلى الدنيا بعين الاعتبار، فعلموا أنها لا تصلح للقرار، وتأملوا أساسها فإذا هو على شَفا جُرف هار[(١)] ، فنغَّصوا بالصيام لذة الهوى بالنهار، ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾.

هجروا المنازل الأنيقة، وفصموا عُرى الهوى الوثْيقة، وباعوا الفاني بالباقي وكتبوا وثيقة، وحمّلوا نجائب الصبر فوق ما هي له مُطيقة، وطلبوا الآخرة واللهِ على الحقيقة، هكذا يكون ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾.

---

(١) أي: طرف مهواةٍ يوشك على السقوط.

أبدانهم قَلْقَى من الجوع والضرر، وأجفانهم قد حالفت في الليل السَّهر، ودموعهم تجري كما تجري دائمة المطر، والقوم قد تأهَّبوا منهم على أقدام السفر، عبروا عليكم ومرُّوا لديكم وما عندكم خبر، وترنمت حُداتهم لو أنكم تسمعون، ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾.

يا ربِّ سِرْ بنا في سِرْب النَّجابة، ووفقنا للتوبة والإنابة، وافتح لأدعيتنا أبواب الإجابة، يا من إذا سأله المضطرُّ أجابه، يا من يقول للشيء كن فيكون، ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾.

«التبصرة» (١/ ٣٠-٣١)

أين آباؤك؟ أين أقرانك؟

أين آباؤك مرّوا وسلكوا؟ أين أقرانك أما رحلوا وانصرفوا؟ أين أرباب القصور أما أقاموا في القبور وعكفوا؟ أين الأحباب هجرهم المحبون وصَدَفوا؟ فانتبه لنفسك فالمتيقظون قد عَرفوا، فستحملك الأهل إلى القبور، وربما مروا فانحرفوا.

نـادتْ بوَشْـك رحيـلك الأيـامُ   أفأنت تسمع أم بك استصمامُ

تأتي الخطوبُ وأنت منتبهٌ لها   فإذا مضـت فكأنهـا أحـلامُ

يا غافلاً ما يُفيق، يا حاملاً ما لا يطيق، ألست الذي بارزت بالذنوب مولاك؟ ألست الذي عصيته وهو يرعاك؟ أسفاً لك ما الذي دَهاك، حتى بعت هُداك بهواك؟ يا ليت عينك أبصرت ذُلّ الخطايا قد عَلاَك.

أتضحـكُ أيهـا العـاصـي   ومثلـكَ بـالبُكـا أَحْـرَى

وبـالحـزن الطـويـل علـى   الـذي قـدَّمتـه أولـى

نَسِيـــتَ قبيـــح مـــا أسلفـ ـــت والـرحمـنُ لا يَنْسَـى
فبــادر أيهـــا المسكيـ ـــن قبـل حلـولِ مـا تَخْشـى
بـــإقــلاعٍ وإخـــلاصٍ لعـــلّ الله أن يَـــرْضـــى

«التبصرة» (١/ ٣٩-٤٠)

يا رضيع الهوى

يا رضيع الهوى وقد آن فِطامه، يا طالب الدنيا وقد حان حِمَامه، أللدنيا خُلِقْتَ أم بجمعها أُمِرْت؟!

أخـي إنمـا الـدنيـا مَحَلَّـةُ نَغْصَـةٍ ودارُ غـرورٍ آذنـت بفِـراقِ
تزوَّدْ أخي من قبل أن تَسْكُنَ الثَّرى وتلتـفَّ ساقٌ للمماتِ بساقِ

يا من لا يتعظ بأبيه ولا بابنه، يا مُؤْثراً للفاني على جَوْدة ذهنه، يا متعوِّضاً عن فرحِ ساعة بطول حُزنه، يا مُسْخِطاً للخالق لأجل المخلوق ضلالاً لأَفنه[١]، أما لك عبرةٌ فيمن ضُعْضِع مَشِيد رُكْنه؟ أما رأيت راحلاً عن الدنيا يوم ظَعْنه، أما تَصَرَّفَتْ في ماله أَكُفُّ غيره من غير إذنه؟ أما انصرف الأحباب عن قبره حين دَفْنه؟ أما خلا بمسكنه في ضيق سجنه؟ تَنَبَّهَ والله من وَسَنه لقرع سِنّه، ولقي في وطنه ما لم يخطر على ظَنِّه، يا ذلة مقتولِ هواه! يا خسران عبد بَطْنه!

يـا ليـت شعـري مـا ادَّخَـرْ تَ ليـوم بُـؤْسـك وافتقـارِكْ
فـلتنـزلـنَّ بمنـــزلٍ تحتـاج فيـه إلـى ادّخـارِكْ

---

(١) أي: لنقص عقله وضعف رأيه.

أفنيتَ عُمْرَك باغترارك ... ومُناك فيه بانتظارك
ونسيت ما لا بد منـ ... ـهُ وكان أولى بادّكارك
ولو اعتبرت بمن مضى ... لكفاك علماً باعتبارك
لك ساعة تأتيك مِنْ ... ساعاتِ ليلك أو نهارك
فتصير مُحْتَضَراً بها ... فتهيَّ من قبلِ احتضارك
من قبل أن تُقْلَى وتُقْـ ... ـصى ثم تُخْرَجَ من ديارك
من قبل أن تتشاغل الز ... وار عنك وعن مَزارك

«التبصرة» (١/ ٤٠-٤١)

لله دَرّ قوم بادروا الأوقات

لله دَرّ قوم بادروا الأوقات، واستدركوا الهفوات، فالعين مشغولة بالدمع عن المحرّمات، واللسان محبوس في سجن الصمت عن الهلكات، والكفُّ قد كُفَّتْ بالخوف عن الشهوات، والقدم قد قُيِّدت بقيد المحاسبات، والليل لديهم يجأرون فيه بالأصوات، فإذا جاء النهار قطعوه بمقاطعة اللذات، فكم من شهوة ما بلغوها حتى الممات، فتيَقَّظ للحاقهم من هذه الرَّقَدات، ولا تطمعنَّ في الخلاص مع عدم الإخلاص في الطاعات، ولا تُؤَمِّلَنَّ النجاة وأنت مقيم على الموبقات، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

عجباً لأَمْنك والحياةُ قصيرةٌ ... وبفقد إلْفٍ لا تزال تُرَوّعُ
أفقَدْ رضيتَ بأن تُعلَّل بالمنى ... وإلى المنيّةِ كلَّ يوم تُدْفَعُ

لا تَخْدَعَنَّكَ بعد طول تجاربٍ دنيا تَغُـرُّ بِوَصْلها وستُقْطَـعُ
أحـلامُ نــومٍ أو كـظلٍ زائـلٍ إن اللبيـب بمثلهــا لا يُخْـدَعُ
وتَـزَوَّدَنَّ ليــوم فقــرك دائبــاً ألغير نفسك لا أبا لك تَجْمَعُ

لمّا علم الصالحون قِصَر العُمْر، وحَثَّهم حادي ﴿وسارعوا﴾ طَوَوا مراحل الليل مع النهار انتهاباً للأوقات.

«التبصرة» (١/ ٤٣-٤٤)

يا من يرجو الثواب بغير عمل

يا من يرجو الثواب بغير عمل، ويُرْجِىء التوبة بطول الأمل، أتقول في الدنيا قول الزاهدين، وتعمل فيها عمل الراغبين، لا بقليل منها تقنع، ولا بكثير منها تَشْبع، تكره الموت لأجل ذنوبك، وتقيم على ما تكره الموت له، تَغْلبك نفسُك على ما تظن، ولا تغلبها على ما تستيقن، لا تثق من الرزق بما ضُمِن لك، ولا تعمل من العمل ما فُرِض عليك، تستكثر من معصية غيرك ما تَحْقِره من نفسك.

أما تعلم أن الدنيا كالحية؟ لَيِّنٌ لَمْسُها والسّم الناقع في جوفها، يهوي إليها الصبي الجاهل، ويحذرها ذو اللُّب العاقل، كيف تقرُّ بالدنيا عينُ مَنْ عرفها، وما أبعدَ أن يُفْطم عنها مَنْ أَلِفَها.

حقيق بالتواضع مَنْ يمــوت وحَسْـبُ المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا اهتمامٍ وحُزْن لا تقوم بـه النعـوت
فيا هذا سترحل عـن قريبٍ إلى قوم كلامهم السكـوت[1]

«التبصرة» (١/ ٥٤-٥٥)

(١) يعني: أهل القبور؛ فإنهم يعظون بصمتهم ما لا يعظه المتكلمون.

طوبى لمن تنبّه من رقاده

طوبى لمن تنبّه من رقاده، وبكى على ماضي فساده، وخرج من دائرة المعاصي إلى دائرة سَداده، عساه يمحو بصحيح اعترافه قبيح اقترافه، قبل أن يقول فلا يَنْفع، ويعتذر فلا يُسْمع.

قد قُلْتُ للنفسِ وبالغْتُ ... وزدت في العَتْب وأكثرتُ
يا نفسُ قد قَصَّرت ما قد كفى ... تيقَّظي قد قَرُب الوقتُ
جِدِّي عسى أن تدركي ما مضى ... قد سبق الناس وخُلِّفْتُ
أنا الذي قد قلتُ دهراً: غداً ... أتوب من ذَنْبي فما تُبْتُ
لو كنتُ ذا عقل لما حلَّ بي ... نُحْتُ على نفسِيَ ما عِشْتُ
وا حَسْرَتي يوم حسابي إذا ... وقفتُ للعَرض وحُوسِبْتُ
وا خَجْلتي إذا قيل لي قد مضى ... وقتك تفريطاً ووُبِّخْتُ
ولي كتابٌ ناطقٌ بالذي ... قد كنت في دنيايَ قدَّمْتُ
تُملني الدنيا بأهوائها ... لولا شَقَاءُ الحظِّ ما ملْتُ
وقد تَحَيَّرتُ ولا عُذْرَ لي ... إنْ قلت: إني قد تَحَيَّرْتُ

«التبصرة» (١/ ٥٥-٥٦)

﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

سبحان من أظهر العجائب في مصنوعاته! ودلّ على عظمته بمبتدَعاته، وحثَّ على تَصَفُّح عِبَره وآياته، وأظهر قدرتَه في البناء والنَّقْض، والهَشِيم

والغَضّ، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[يونس: ١٠١].

سَعِدَ مَنْ تدَبَّر، وسَلِمَ مَنْ تَفكَّر، وفاز من نظر واسْتَعْبَر، ونجا مِنْ بحر الهوى مَنْ تَصَبَّر، وهلك كلَّ الهلاك وأدبر، من نَسِيَ الموتَ مع الشَّعر المُبْيَضّ، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾.

يا أرباب الغفلة اذكروا، يا أهل الإعراض احضروا، يا غافلين عن المُنْعِم اشكروا، يا أهل الهوى خَلُّوا الهوى واصْبِروا، فالدنيا قنطرة فجُوزُوا واعْبُرُوا، وتأمّلوا هِلالَ الهدى فإنْ غُمَّ عليكم فاقْدِرُوا، فقد نادى منادي الصلاح: حيَّ على الفلاح، فأَسْمَع أهل الطُّول والعَرْض، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾.

«التبصرة» (١/ ٥٦-٥٧)

انظر بعين فكرك وقلبك

أيها العبد، انظر بعين فكرك وعقلك، هل تجد سبيلاً لخلاص مِثْلِك، مع إقامته على فعلك، أين اعتبارك بانطلاق أسلافك؟ أين فكرك في فِراق أُلاّفك؟ متى تنتقل عن قبيح خِلافك؟

قـل للمفـرِّط يستعـدُّ ... مـا مـن ورود المـوت بُـدُّ
قـد أخلـق الـدهـرُ الشبـا ... بَ ومـا مضـى لا يُسْتَـرَدُّ
أو مـا يخـاف أخـو المعـا ... صي مَنْ لـه البطشُ الأشـدُّ
يومـاً يُعـايـن مـوقفـاً ... فيـه خُطـوبٌ لا تُحَـدُّ
فـإلام يشتغـل الفتـى ... فـي لَهْـوه والأمـر جِـدُّ

أبــداً مــواعيــد الــزمــا ... ن لأهلـــه تَعَـــبٌ وكَـــدُّ
يــا مـــن يُــؤَمِّـــلُ أن يُقيــ ... ـم به وحادي الموتِ يَحْدو
وتَـــرُوح داعيـــةُ المَنُـــو ... نِ علــى مُــؤَمِّلِهـا وتَغْـدُو
يَخْتـــال فـــي ثـــوب النعيـ ... ـــم ودونـــه قَبْــرٌ ولَحْــدُ
والعمـــر يَقْصُــر كـــلَّ يَــوْ ... مٍ ثُــمَّ فــي الآمــال مَــدُّ

أيقظنا الله وإياكم من هذه الرقدة، وذَكَّرنا الموتَ وما يأتي بعدَه، وألهمنا شكرَه على النعم وحَمْدَه، إنه كريم لا يَرُدُّ عَبْدَه.

«التبصرة» (١/ ٦٣)

يا حاملاً من الدنيا أثقالاً ثقالاً

يا حاملاً من الدنيا أثقالاً ثقالاً، يا مطمئناً لا بدَّ أن تنتقل انتقالاً، يا مُرْسِلاً عِنَان لَهْوه في ميدان زَهْوه إرسالاً، كأن بجفنيك حين عُرِض الكتابُ عليك قد سالا.

أين المعترف بما جناه؟ أين المعتذر إلى مولاه؟ أين التائب من خطاياه؟ أين الآيب من سَفَرِ هواه؟ نيران الاعتراف تأكل خطايا الاقتراف، مجانيق الزَّفَرات تهدم حصون السَّيِّئات، مياه الحسرات تغسل أنجاس الخطيئات.

يا طالب النجاة دُمْ على قرع الباب، وزاحم أهل التقى أولي الألباب، ولا تَبْرح وإن لم يفتح فرب نجاح بعد الياس، ورُبَّ غِنًى بعد الإفلاس.

صبراً فما يظفرُ إلا مَنْ صَبَرْ ... إنّ الليالي واعــداتٌ بالظَّفَــرْ
وربّمـــا يَنْهـضُ جَـدُّ مَـنْ عَثَـرْ ... وربَّ عَظْمٍ هِيضَ حِيناً وانْجَبَرْ

إذا تبت من ذنوبك فاندم على عيوبك، وامح بدموعك قبيح مكتوبك، والبَس جلباب الفَرَق، وتضرَّع على باب القلق، وقل بلسان المحترق:

قد فعلتُ القبيح وهو شبيهي ... خطأً فافعلِ الجميلَ بعفوكْ

وَفَدَتْ رَغْبَتِي إليك وما زِلْـ ... ـتَ تُحَيِّي بالنُّجْحِ أوْجُهَ وَفْدِكْ

قف وقوف المنكسرين، وتبتّل تَبَتُّلَ المعتذرين، واستشعر الخضوع، واستجلب الدموع، واحْتَلْ، واحذر سَهْمَ الغضب أن يُصيب المَقْتَل.

يا سيدي ما هَفْوتي بغريبة ... مِنِّي ولا غُفْرانها بطريف

إِنْ تَقْبلِ العبدَ الضعيفَ تَطَوُّلاً ... إني رجائي فيكَ غيرُ ضعيف

كم أتيتُ ذَنْباً فسترتَ، وكم جَنَيْتُ جِنايةً فَنَظَرْتَ، فبالحلم والكرم إلا غَفَرْتَ.

«التبصرة» (١/ ٧٠)

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾

يا من بين يديه يومٌ لا شك فيه ولا مِرَا، يقع فيه الفِراق وتَنْفَصِم العُرَى، تدبَّر أمرك قبل أن تَحْضُرَ فترَى، وانظر لنفسك نَظَرَ مَنْ قد فَهِمَ ما جرى، قبل أن يغضب الحاكمُ والحاكمُ ربُّ الورى، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

يومٌ تشيب فيه الأطفال، يوم تسير فيه الجبال، يوم يظهر فيه الوبال، يوم تنطق فيه الأعضاء بالخصال، يوم لا تُقَال فيه الأعثار، وكم من أعذار تقال، فترى مَنْ قد افترى، يقدّم قدماً ويؤخر أخرى، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾.

فيُنْصَب الصِّراطُ فناجٍ وواقع، ويُوضَع الميزانُ فتكثر الفظائع، وتُنْشَر الكتبُ وتَسيل المدامع، وتظهر القبائح بين تلك المَجامع، ويُؤْلِمُ العقابُ وتملى المسامع، ويخسر العاصي ويربح الطائع، فكم غَنِيٍّ قد عاد من الخير مُفتقِراً، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾.

«التبصرة» (١/ ٧١-٧٢)

يا كثير السيئات

يا كثير السيئات غداً ترى عملك، يا هاتك الحرمات إلى متى تديم زللك.

تيقَّظ فإنكَ في غفلةٍ	يميد بك السُّكْرُ فيمن يَميدْ
وأيُّ مَنِيعٍ يفوت البِلى	إذا كان يَبْلَى الصَّفَا والحديدْ
إذا الموتُ دبَّتْ له حِيلةٌ	فتلك التي كنتَ منها تَحِيدْ
أراك تُؤَمِّل والشيب قَدْ	أتاك بِنَعْيك منه بَريدْ
وتنقص في كل تنفيسةٍ	وعندك أَنكَ فيها تَزيدْ

أما تعلم أن الموت يسعى في تبديد شَمْلك؟ أما تخاف أن تؤخذ على قبيح فِعْلك؟ وا عجبا لك من راحل تركت الزاد في غير رَحلك! أين فِطنتُك ويقظتُك وتدبيرُ عقلك؟ أما بارزت بالقبيح فأين الحزَن؟ أما علمت أن الحق يَعْلم السرَّ والعَلَن؟ ستعرفُ خبرَك يومَ ترحلُ عن الوَطَن، وستنتبه من رُقادك ويزول هذا الوَسَن.

* * *

إلى الله تُبْ قبل انقضاءِ من العُمْرِ أخي ولا تأمن مُساورة الدهرِ
فقد حَدَّثَتْك الحادثات نزولَها ونادتك إلا أنَّ سمعك ذو وَقْرِ
تنوح وتبكي للأحبة إن مَضَوْا ونَفْسَك لا تبكي وأنت على الإثْرِ

«التبصرة» (١/ ٧٣)

خذ حِذْرَك

يا مبارِزاً بالذنوب خُذْ حِذرك، وتوقَّ عِقابَه بالتُّقى فقد أَنْذرك، وخَلِّ الهوى فإنه كما ترى صَيَّرك، قبل أن يغضب الإلهُ ويُضَيِّقَ حَبْسَه، ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٢٨و٣٠].

اجتهد في تَقْوية يقينك قبل خُسْر موازينك، وقُمْ بتضرعك وخيفتك قبل نَشْر دواوينك، وابذل قُواك في ضَعفك ولِينك، قبل أن يَدْنُوَ العذابُ فتَجِدَ مَسَّه، ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾.

لما سمع المتيقظون هذا التحذير فتحوا أبواب القلوب لنزول الخوف، فأحزنَ الأبدان وقلقل الأرواح، فعاشت اليقظة بموت الهوى، وارتفعت الغفلة بحلول الهَيْبة، وانهزم الكَسَل بجيش الحَذَر، فتهذبت الجوارح من الزَّلَل، والعزائم من الخَلَل، فلا سكون للخائف، ولا قرار للعارف، كلما ذَكَرَ العارفُ تقصيرَه نَدِم على مُصابه، وإذا تَصَوَّرَ مصيره حَذِر مما في كتابه، وإذا خطر العِتاب بفِنائه فالموت من عتابه، فهو رهين القلق بمجموع أسبابه.

«التبصرة» (١/ ٧٤)

* * *

أسفاً لمن ضيّع الأوقات

أسفاً لمن ضيع الأوقات وقد عرفها، وسلك بنفسه طريق الهوى فأتلفها، أنِس بالدنيا فكأنه خُلِق لها، وأَمَلُه لا ينتهي وأجلُه قد انتهى، سُلِّمَتْ إليه بضائع العمر فلعب بها، لقد ركَن إلى رُكْنٍ ما لَبِثَ أن وهى، عجباً لعين أمست بالليل هاجعة، ونسيت أهوال يوم الواقعة، ولأُذُنٍ تقرعها المواعظ فتُضْحِي لها سامعة، ثم تعود الزواجر عندها ضائعة، ولنفوسٍ أضحت في كرم الكريم طامعة، وليست له في حال من الأحوال طائعة، ولأقدامٍ سَعَتْ بالهوى في طُرُقٍ شاسعة، بعد أن وَضَحَتْ لها سُبُلٌ فسيحة واسعة، ولِهِمَمٍ أسرعت في شوارع اللهو شارعة، لم تكن مواعظ العقول لها نافعة، ولقلوبٍ تُضْمِر التوبةَ عند الزواجر الرائعة، ثم يَخْتَلّ العزم بفعل ما لا يَحِلّ مراراً متتابعة، ثالثة بعد ثانية وخامسة بعد رابعة.

كم يومٍ غابت شمسه وقلبك غائب، وكم ظلام أُسْبِل سِتْرُه وأنت في عجائب، وكم أُسبغت عليك نعمةٌ وأنت للمعاصي تُواثب، وكم صحيفةٍ قد مَلأها بالذنوب الكاتب، وكم ينذرك سَلْبُ رفيقك وأنت لاعب، يا مَنْ يأمن الإقامة قد زُمَّت الركائب، أفِقْ من سَكْرتك قبل حسرتك على المعايب، وتَذَكَّر نزول حفرتك وهجران الأقارب، وانهض عن بساط الرقاد وقل: أنا تائب، وبادر تحصيل الفضائل قبل فوت المطالب، فالسائق حثيث والحادي مُجِدٌّ والموتُ طالب.

لأبكيـنَّ على نفسي وحَقَّ لِيَهْ ... يا عينُ لا تبخلي عنِّي بعَبْرَتِيَهْ

لأبكينَّ فقد بان الشبابُ وقد ... جَدَّ الرحيل عن الدنيا برِحْلَتِيَهْ

يا نأْيَ مُنْتَجَعي يا هَوْل مُطَّلَعي   يا ضِيقَ مُضْطجعي يا بُعْدَ شُقَّتِيَهْ
المالُ ما كان قُدَّامي لآخرتي   ما لا أُقَدِّمُ من مالي فليس لِيَهْ

«التبصرة» (١/ ٨٢-٨٣)

أسفاً لغافل لا يُفيق

أسفاً لغافلٍ لا يُفيق بالتعريض حتى يرى التصريح، ولا تَبِين له جَلِيّة الحال إلا في الضَّريح، كأنّه وقد ذكره الموت فأفاق، فانتبه لنفسه وهو في السِّياق، واشتد به الكرب والتفت الساق بالساق، وتحيَّر في أمره وضاق الخِنَاق، وصار أكبرُ شهواتِه توبةً من شِقاق، هيهات مضى بأوزاره الثقيلة، وخلا بأعماله واستُودع مَقِيله، وغُيِّب في الثرى وقيل: لا حِيلة، وبات الندم يلزمه وبئس اللاحي له.

فتفكّروا إخواني في ذلك الغريب، وتصوروا أَسَفَ النادم وقَلَقَ المُرِيب، فلمثل حاله فليَحْذَرِ اللبيب، وهذا أمر تُبَعِّده الآمال وهو والله قريب.

أَبْصَرْتُــه مُلْقىً يجود بنفسه   قد كَلَّلَ الرَّشْحُ الغزير جَبِينَه
لا يستطيع إجابتي مِن ضَعْفه   طوراً يكفُّ شمالــه ويمينَــه
وطبيبُه قد حار فيه وقد رأى   أنفـاسَــه تعلـو معــاً وأنينَــه
قـد عـافَ مشـروبـاتِـه وطعـامَـه   وقَلَـى لـذاك صـديقَـه وخَـدِينَـه

«التبصرة» (١/ ٨٣)

❊ ❊ ❊

سلوا القبور عن سكانها

إخواني، سلوا القبور عن سُكَّانها، واستخبروا اللحود عن قُطَّانها، تخبركم بخشونة المضاجع، وتُعْلمكم أن الحسرة قد ملأت المواضع، فإن المسافر يَوَدّ لو أنه راجع، فَلْيَتَّعِظِ الغافلُ وليراجع.

يـا واقفاً يَسـأل القبـور أفِـق ... فأهلُها اليومَ عنك قد شُغِلوا

قـد هـالهـم مُنْكَـرٌ وصـاحِبـه ... وخَوْفُ ما قَدَّموا وما عَمِلوا

رهائـنٌ للثَّـرى علـى مَدَر[1] ... يُسْمَـع للدود بينهم زَجَـلُ[2]

سَرَى البِلَى في جسومهم فجرتْ ... دَماً وقيحاً وسالـت المُقَـلُ

سَكْرى ولم يشربوا الفِقَار ومن ... كـؤوس المنـون مـا نَهَلُوا

ينتظـرون النّشـور إذ يقـف الـ ... أمْـلاكُ والأنبيـاءُ والـرُّسُـلُ

يوماً تُرى الصُّحْفُ فيه طائرةً ... وكـلُّ قَلْب من أجله وَجِـلُ

قد دنت الشمسُ من رؤوسهمُ ... والنار قـد أُبرِزَتْ لها شُعَـلُ

وأُزْلِفَـتْ جَنَّـةُ النعيـم فيـا ... طُوبـى لقـومٍ بربْعهـا نـزَلـوا

أكوابُهـم عَسْجَـدٌ يُطـاف بها ... والخمـر والسَّلْسبيـل والعَسَـلُ

والحورُ تَلْقاهمُ وقـد هُتِكَـتْ ... عـن وجهها الأستارُ والكِلَلُ[3]

«التبصرة» (١/ ٨٣-٨٤)

---

(١) المدر: الطين اليابس، وقيل: الطين العِلك الذي لا رمل فيه. راجع «اللسان».

(٢) الزَّجَل: الجَلَبَة ورفع الصوت والتطريب.

(٣) (الكلل): جمع كِلَّة وهي الستر الرقيق.

﴿إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾

الويل لأهل الظلم من ثِقَل الأوزار، ذِكْرهم بالقبائح قد ملأ الأقطار، يكفيهم أنهم قد وُسِموا بالأشرار، ذهبت لَذَّاتُهم بما ظلموا وبقي العار، وداروا إلى دار العقاب ومَلَكَ الغَيْرُ الدار، وخَلَوْا بالعذاب في بطون تلك الأحجار، فلا مُغيثٌ ولا أنيس ولا رفيق ولا جار، ولا راحة لهم ولا سكون ولا مزار، سالت دموعُ أسفِهم على مَسْلَفِهم كالأنهار، شَيَّدوا بنيان الأمل فإذا به قد انهار، أما علموا أن الله جارُ المظلوم ممن جَارَ، فإذا قاموا في القيامة زاد البلاء على المِقْدار، ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، لا يَغُرَّنَّك صفاءُ عيشهم كلُّ الأخير أكدار، ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

«التبصرة» (١/ ٨٥-٨٦)

أين من لعب ولها؟

أين من لعب ولها؟ أين من غفل وسها؟ دهاه أفظع ما دَهَى، وحُطَّ رُكنه فوَهى، ذهبتْ لذةُ ذنوبه وحُبِس بها، نظر في عاجله ونسي المنتهى.

نادِ القصورَ التي أَقْوَتْ مَعَالِمُها ... أين الجسومُ التي طابَتْ مطاعمُها

أين الملوكُ وأبناء الملوك ومَنْ ... ألهاه ناضِرُ دنياه وناعِمُها

أين الأسودُ التي كنتَ تُحاذِرها ... أُسْدُ العَرِين ومِنْ خَوْفٍ تُسالمها

أين الجيوشُ التي كانت لو اعترضَتْ ... لها العُقَابُ لخانَتْها قوادِمُها

أين الحِجَابُ ومَنْ كان الحجابُ له ... وأين رُتْبَتُه الكبرى وخَادِمُها

أين الذيـن لَهَــوْا عمَّـا لـهُ خُلِقـوا   كمـا لَهتْ في مراعيها سوائمُها
أين البيوتُ التي من عَسْجَدٍ نَسُجَتْ   هل الدنانير أَغْنَتْ أم دراهمُها
أين الأسِـرَّةُ تعلوها ضَراغمهــا   هل الأسِرَّة أَغْنَتْ أم ضَراغمُها
هذِي المعَاقِلُ كانت قبـلُ عاصمةً   ولا يَرى عِصَمَ المغرور عاصمُها
أين العيونُ التي فاقَتْ فما انتبهتْ   واهاً لها نومـةً ما هَـبَّ نائِمُها

«التبصرة» (١/ ٩٠-٩١)

﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾

يا مشغولاً بذنوبه، مغموراً بعيوبه، غافلاً عن مطلوبه، أما نهاه القرآن عن حُوبه؟ ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

أَنَسِيَ العاصي قبيحَ مكتوبه؟ لا بُدَّ عن سؤاله عن مطعومه ومشروبه، وحركاته وخطواته في مرغوبه، ألا يَذْكر في زمان راحته أَحيانَ كُروبه؟ ألا يَحْذر من الأَسَدِ قبلَ وقت وثوبه؟ ألا يتخذ تُقَاهُ تَقِيَّةً من شَرّ هُبوبه؟ ألا يدَّخر من خِصْبه لأيام جُدُوبه؟ ألا يتفكر في فراقه لمحبوبه؟ ألا يذكر النَّعْشَ قبل ركوبه؟ كيف يغفل مَنْ هو في صَفِّ حروبه؟ رُبَّ إشراقٍ لم يُدْرِك زمنُ غُروبه، إلى متى في حِرْصه على الفاني ودؤوبه؟ متى يَرُدُّ يوسفُ قَلْبَه على يَعْقُوبه؟ لقد وعظه الزمان بفنون ضُروبه، وحَذَّره استلابَه بأنواع خُطوبه، ولقد زَجَره القرآنُ بتخويفه مع لَذَّة أسلوبه، ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾.

«التبصرة» (١/ ٩١-٩٢)

* * *

البِدار البِدار إلى الفضائل

يا من يبارز مَوْلاه بما يَكره، ويخالفه في أمره آمناً مَكْرَه، ويُنْعِم عليه وهو يَنْسى شُكره، والرحيل قد دنا وما له فيه فِكْرة، يا من قبائحه تُرْفَع عَشِيّاً وبُكْرة، يا قليل الزاد ما أطول السَّفْرة، والنُّقْلَة قد دنت والمصير الحفرة، متى تعمل في قلبك المواعظ؟ متى تراقِبُ العواقبَ وتلاحِظ؟ أما تَحْذَرُ مَنْ أوْعد وهدَّد؟ أما تخافُ من أَنْذَر وشدَّد؟ متى تَضْطرم نار الخوف في قلبك وتتوقد؟ إلى متى بين القُصور والتواني تتردد؟ متى تحذر يوماً فيه الجلود تَشْهد؟ متى تترك ما يَفْنَى رغبةً فيما لا يَنْفد؟ متى تَهُبُّ بك ريحُ الخوف كأنك غصن يَتَأَوَّد[1]؟ البِدار البِدار إلى الفضائل، والحِذار الحِذار من الرذائل، فإنما هي أيامٌ قلائل.

اغتنم في الفراغ فَضْلَ ركوعٍ ... فعسى أن يكون موتُك بَغْتَة

كم صحيحٍ رأيتَ من غير سُقْمٍ ... ذهبَتْ نفسُه السليمةُ فَلْتَة

. . . .

اغتنم ركعتين زُلْفى إلى الله ... إذا كنت فارغاً مستريحاً

وإذا ما هممت أن تفعل البا ... طل فاجعل مكانه تسبيحاً

يا سكران الهوى وإلى الآن ما صحا، يا مُفْنِياً زمانه الشريف لهواً ومَرَحاً، يا مُعرضاً عن لوم مَنْ لاَمَ وعَتْبِ مَنْ لحَا، متى يعود هذا الفاسد مُصْلَحاً؟ متى يرجع هذا الهالكُ مُفلِحاً؟

لقد أتعبتَ النصحاءَ الفصحاءَ، أما وُعِظْتَ بما يكفي؟ أما رأيت من العِبرة ما يَشفي؟ فانظر لنفسك قبل أن يَعمى الناظر، وتفكر في أمرك بالقلب

---

(١) أي: يتثنى.

الحاضر، ولا تساكن الفتور فإنك إلى مسكن القبور صائر، فالحيُّ للممات، والجمع للشتات، والأمرُ ظاهر.

عاصِ الهوىَ إنّ الهوى مَرْكَبٌ يَصْعبُ بعد اللِّين منه الذَّليلُ
إن يَجْلِبِ اليومَ الهوى لذةً ففي غدٍ منه البكا والعويلُ
ما بين ما يُحْمد فيه وما يدعو إليه الذمَّ إلا القليلُ

«التبصرة» (١/ ٩٧-٩٨)

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾

يا مَنْ يُدْعى إلى نجاته فلا يُجيب، يا مَنْ قد رضي أن يخسر ويَخِيب، إن أمرك طريفٌ وحالك عجيب، اذكر في زمان راحتك ساعة الوَجِيب، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [قٓ: ٤١].

وَيْحك! إنّ الحق حاضر ما يَغيب، تُحصى عليكَ أعمالُ الطلوع وأفعالُ المَغِيب، ضاعت الرياضةُ في غير نَجِيب، سيماك تَدُلُّ وما يخفى المُريب، اسمع لا بد لغِرْبان الفِراق من نَعِيب، أنُسَاكِن الغفلةَ ولغيرنا نَعِيب، يا مَنْ سِلَعه كلها مَعِيب، اذكر يوم الفزع والتأنيب، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

لا بُدّ والله من فِراق العيش الرَّطِيب، والتحافِ البِلَى مَكان الطِّيب، وا عجبا للذات بعد هذا كيف تَطِيب! ويحك! أحضرْ قلبك لوَعْظِ الخطيب، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

تَذَكَّرْ مَنْ قد أُصِيب كيف نزل به يوم عصيب! وانتبه لأَحَظِّ الحَظِّ والنَّصيب، واحترز فعليك شهيدٌ ورقيب، إذا حلَّ الموتُ حُلَّ التركيب،

وتُقَلَّبُ مُقَل القلوب في قَلْب التقليب، فتنزعج الرُّوح انزعاج الصِّرمة[1] إذا أَحَسَّت بذِيب، فالتفت يا مُحِبَّ الهوى عن هذا الحبيب، ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

ستخرج والله من هذا الوادي الرحيب، ولا ينفعك البكاء والنَّحيب، لا بُدّ من يوم يتحيَّر فيه الشُّبّان والشِّيب، ويذهل فيه الطفل للهول ويَشِيب، يا من عمله كلّه رديءٌ فليته قد شِيب، ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

كيف بك إذا أُحْضِرْتَ في حالٍ كئيب؟ وعليك ذنوب أكثر من رَمْلٍ كثيب، والمهيمن الطالب والعظيم الحسيب، فحينئذٍ يَبْعُد عنك الأهلُ والنَّسيب، النَّوْحُ أولى بك يا مغرور من التَّشْبيب، أتؤمن أم عندك تكذيب؟! أم تراك تصبر على التعذيب؟! كأنك بدمع العين ومائها قد أُذيب، اقبل نُصْحي وأقبل على التهذيب، ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

يا مُطالَباً بأعماله، يا مسؤولاً عن أفعاله، يا مكتوباً عليه جميعُ أقواله، يا مُناقَشاً على كل أحواله، نِسيانُك لهذا أمرٌ عجيب، أتسكن إلى العافية، وتساكن العيشة الصافية، وتظن أَيْمَانَ الغرور واقية؟ لا بد من سهم مُصيب، ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

لو أَحْسَنْتَ الخلاصَ أَحْسَنْتَ، لو آمنتَ بالعَرْض لَتَجَمَّلْت وتَزَيَّنْت، يا من قد انعجمت عليه الأمُورُ لو سألتَ لتبيَّنْت، ويحك! أحضر قلبك إنما أنت في الدنيا غريب، ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

«التبصرة» (١/ ٩٨-٩٩)

* * *

---

(١) (الصِّرْمَة): القطعة من الإبل أو الغنم من العشرين إلى الثلاثين والأربعين.

﴿فَذَكِّرْ بِالقُرآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾

لقد وعظ القرآن المجيد، يُبْدي التَّذكارَ عليكم ويُعيد، غير أن الفهم منكم بعيد، ومع هذا فقد سبق العذابَ التهديد، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قٓ: ٤٥].

إن في القرآن ما يُلِين الجلاميد[1]، لو فهمه الصخر كأنّ الصخر يَميد، كم أخبرك بإهلاك الملوك الصِّيد[2]! وأعلمك أن الموت بالباب والوصيد[3]، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

إن مواعظ القرآن تُذِيب الحديد، وللفهوم [منها] كلَّ لحظةٍ زجرٌ جديد، وللقلوب النيِّرة كلَّ يوم به عِيد، غير أن الغافل يتلوه ولا يَستفيد، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

أما الموت للخلائق مُبيد؟ أما تراهم قد مزّقهم في البِيد؟ أما داسهم بالهلاك دَوْس الحصيد؟ لا بالبسيط ينتهون ولا بالتشديد، أين من كان لا ينظر بين يديه؟ أين من أبصر العِبَر ولم ينتفع بعينيه؟ أين من بارز بالذنوب المُطَّلِعَ عليه؟ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ: ١٦].

أين من كان يتحرك في أغراضه ويَميد، ويَغْرس الجنان لها طَلْع نَضيد، وتعجبه نغمات الوُرْق على الوَرَق بتغريد؟ كان قريباً منها فهو اليومَ بعيد، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

أحضروا قلوبكم فإلى كم تقليد! يا معشر الشيوخ في عَقْل الوليد، أما

---

(١) جمع مفرده: جُلمود، وهو الصَّخْر. وهو أيضاً الرجل الشديد، وهو المراد هنا، لذكر الصخر بعده، والله أعلم.

(٢) جمع مفرده: الأصْيَد: وهو كل ذي حَول وطَول من ذوي السلطان.

(٣) (الوصيد): الفناء والعتبة.

فيكم من يذكر أنه في قبره وحيد! أما فيكم من يتصور تمزيقه والتبديد! غداً يُباع أثاث البيت فمن يزيد؟ غداً يتصرف الوارث كما يُريد، غداً يستوي في بطون اللحود الفقير والسعيد، ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

«التبصرة» (١/ ١٠٤)

يا من لا يردعه ما يسمعه

يا من لا يَرْدعه ما يَسْمَعُه، يا من لا يُقْنِعُه ما يَجْمَعُه، أما القبر عن قريب مَوْضِعه؟ أما اللحد عن قريب مَضْجَعه؟ أما يرجع عنه من يُشَيِّعُه، ويأخذ ما جمعه أجْمَعَه؟ كم يَخْرِق خَرْقاً بالخطأ ثم لا يَرْقَعُه؟ كم يحطُّه القبيح والنصحُ يَرْفَعُه؟ كم يعلم غرورَ الهوى وهو يتبعه؟

لا تَعْـذِلَـنْه فـإن العَـذْل يُـولِعُه قد قلتَ حقاً لكن ليس يَسْمَعُه

«التبصرة» (١/ ١٣٣)

تأملوا عواقب الصبر

إخواني، تأملوا عواقبَ الصَّبر، وتخايلوا في البلاء نورَ الأجر، فمن تصورَّر زوال المِحَن وبقاء الثناء هان الابتلاءُ عليه، ومن تفكّر في زوال اللذات وبقاء العار هان تركُها عنده، وما يلاحظ العواقبَ إلا بَصَرٌ ثاقِب.

«التبصرة» (١/ ١٣٩)

* * *

يا من راح في المعاصي وغدا

يا من راح في المعاصي وغدا، ويقول: سأتوب اليوم أو غدا، كيف تجمع قلباً قد صار في الهوى مبدَّدا؟ كيف تُلِينُه وقد أمسى بالجهل جَلْمدا؟ كيف تحثّه وقد راح بالشهوات مُقيَّدا؟ لقد ضاع قلبُك فاطلب له ناشدا، تفكَّر بأيِّ وجه تتلقى الرَّدَى، تذكَّر ليلةَ تَبِيتُ في القبر مُنفَرِدا.

أيهـا المشغـوف بـالـدنـ ـيـا صُبُـواً وغَـرامـا
أبـداً هـي أبـداً تُبْـ ـطِـن فـي الشَّهْـد سِمَـامَـا
تُخضـع الـراضـع بـالـدَّرْ رِ وتُنْسيـه الفِطـامـا
فـإذا هُـزَّ بـوعـظٍ صَـمَّ عنـه وتعـامـى
فهـو كـالشَّـاكـي الـذي يَـز داد بـالـطِّـب سَقـامـا
وكمِثْـل الطفـل فـي المهـ ـد إذا حُـرِّك نـامـا

«التبصرة» (١/ ١٤٧-١٤٨)

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾

يا مُعرضاً عن الهدى لا يسعى في طلبه، يا مشغولاً بلهوه مفتوناً بلعبه، يا من قد صاح به الموتُ عند أَخْذ صاحبه، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

جُزْ على قبر الصَّديق، وتلمَّح آثار الرَّفيق، يخبرك عن حُسنه الأنيق، أنه استُلب بكَفّ التمزيق، هذا لَحْدُه وأنت غداً به، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

كم نُهِيَ عن الخطايا وما انتهى، وكم زجرته الدنيا وهو يسعى لها، هذا ركنه القويم قد وَهَى، وها أنت في سَلْبه، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

أين من عتا وظلم، ولقي الناس منه الألم؟ اقتطعه الردى اقتطاع الجَلَم[1]، فما نفعه ما جمعه، لا والله ولم يدفع عنه عِزُّ مَنْصِبه، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

بات في لحده أسيرا، لا يملك من الدنيا نقيرا، بل عاد بوزر ذنبه عَقيرا، وأصبح مِنْ ماله فقيراً على عِزّ نَسَبه وكثرة نَشَبه، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

اللذات تَفْنى عن قليل وتَمُرّ، وآخر الهوى الحلو مُـرّ، وليس في الدنيا شيء يَسُرُّ إلا يَغُرّ ويَضُرّ، ثم يخلو ذو الزلل بمُكْتَسَبِه، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

الكتاب يحوي حتى النَّظرة، والحساب يأتي على الذَّرَّة، وخاتمة كأس اللذات مُرَّة، والأمرُ جَلِيٌّ للفهوم ما يَشْتَبِه، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

تقوم في حَشْرك ذليلا، وتبكي على الذنوب طويلا، وتحمل على ظهرك وزراً ثقيلا، والويل للعاصي من قبيح مُنْقَلَبِه، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

يُجمع الناسُ كلُّهم في صعيد، وينقسمون إلى شقيٍّ وسعيد، فقوم قد حَلَّ بهم الوعيد، وقومٌ قيامتهم نزهةٌ وعِيد، وكلُّ عامل يَغْترف من مَشْرَبِه، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

إنما يقع الجزاء على أعمالك، وإنما تلقى غداً غِبَّ أفعالك، وقد قصدنا إصلاح حالك، فإن كنت متيقظاً فاعمل لذلك، وإن كنت نائماً فانْتَبِه، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

«التبصرة» (١/ ١٤٨-١٤٩)

---

(١) الجلم: المقراض الذي يُجَزّ به.

الأيام ثلاثة

يا هذا، الأيام ثلاثة: أمس قد مضى بما فيه، وغداً لعلك لا تدركه، وإنما يومك هذا فاجتهد فيه، لله دَرُّ من تنبَّه لنفسه وتزوّد لِرَمْسه، واستدرك ما مضى من أمسه قبل يوم حبسه.

فيا جامعَ الدنيا لغيـر بلاغةٍ ... ستتركها فانظر لمن أنت جامعُ

لو أن ذوي الأبصار يُوعون كلَّ ما ... يَرَوْن لما جَفَّتْ لعيـن مَدامعُ

ومَنْ كانت الدنيا مُناه وهَمَّـه ... سباه المنى واستعبدَتْه المطامعُ

«التبصرة» (١/ ١٥٣-١٥٤)

تدبروا الأمور تدبر ناظر

إخواني، تدبروا الأمور تَدَبُّر ناظر، وأصغُوا إلى ناصحكم والقلب حاضر، واحذروا غَضَبَ الحليم وهَتْك الساتر، وتأهّبوا للحِمام فسُيوفه بواتر، وهاجروا إلى دار الإنابة بهِجران الجرائر، وصابروا عدوّكم مصابرة صابر، وتهيؤوا للرحيل إلى عسكر المقابر، قبل أن يَبُلَّ وابلُ الدموع ثَرَى المحاجر، ويندم العاصي ويخسر الفاجر، ويتكاثف العَرَق وتقوى الهواجر، وتصعد القلوب إلى أعلى الحناجر، ويَعِزّ الأمن ويُعْرِض الناصر، ويفرح الكامل ويحزن القاصر، ويفوت اكتساب الفضائل وتحصيل المفاخر، فتأملوا عواقب مصيركم فاللبيب يرى الآخِر.

«التبصرة» (١/ ١٥٥)

* * *

كم نظرة زلت بها الأقدام!

إخواني، الدنيا سموم قاتلة، والنفوس عن مكائدها غافلة، كم من نظرةٍ تحلو في العاجلة، مرارتُها لا تُطاق في الآجلة، يا بن آدم قلبُك قلبٌ ضعيف، ورأيك في إطلاق الطَّرف رأيٌ سخيف، يا طفل الهوى متى يُؤْنَس منك رُشْد، عينُك مُطْلقة في الحرام، ولسانك مُهْمَل في الآثام، وجسدك يتعب في كسب الحطام، كم نظرة مُحْتَقَرة زلَّت بها الأقدام!

فتبَصَّر ولا تَشِمْ كلَّ بَرْقٍ　　رُبَّ بَرْقٍ فيه صَواعقُ حَيْنِ
واغضضِ الطَّرْفَ تسترح من غرامٍ　　تكتسي فيه ثوبَ ذلٍّ وشَيْنِ
فبلاء الهوى موافقة النفـ　　ـسِ وبَدْءُ الهوى طُموحُ العَيْنِ

«التبصرة» (١/ ١٦٣)

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾

يا عجبا للمشغولين بأوطارهم عن ذكر أخطارهم! لو تفكَّروا في حال صفائهم في أكدارهم، لَمَا سلكوا طريق اغترارهم، أمَا يكفي في وعظهم وازدجارهم: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

الدنيا دار الآفات والفِتَن، كم غرَّت غِرّاً وما فَطَن، أرته ظاهرها والظاهر حَسَن، فلما فتح عين الفكر من الوَسَن قال «ربِّ ارجعون» ولن، وَيْح المقتولين بسيف اغترارهم! والشَّرع ينهاهم عن أوزارهم، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

أين أربابُ الهوى والشهوات؟ ذهبت والله اللذات دون التَّبِعات، وندموا إذ قدموا على ما فات، وتَمَنَّوْا بعد يُبْس العُود العَوْدَ وهَيْهات، فتلمَّح في الآثار سوء أذكارهم، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

نازلهم الموتُ على الذنوب، فأُسروا في قيود الجهل والعيوب، فرحلت لذات خَلَتْ عن الأفواه والقلوب، وحزنوا على الفائت ولا حُزْن يعقوب، حين خرجوا من ديارهم في ثياب إدبارهم، وعِصِيّ التوبيخ في أدبارهم، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

قل للناظرين إلى المُشْتَهى في ديارهم، هذا أنموذج من دار قرارهم، فإن استعجل أطفالُ الهوى فدارِهم، وعِدْهُمْ قُرْبَ الرحيل إلى دارهم، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

احذروا نظرةً تُفْسد القلوب، وتجني عليكم الذمَّ والعيوب، تُسْخط مولاكم عالم الغيوب، لقد وصف الطبيب حِمْيَةً للمطبوب، فلو استعملوا الحِمْيَة لم تتعرض الحُمَّى بأبشارهم، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

وفقنا الله وإياكم للهدى، وعصمنا من أسباب الجهل والرَّدَى، وسلَّمنا من شر النفوس فإنها شرّ العِدَى، وجعلنا من المنتفعين بوعظ أخيارهم، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

«التبصرة» (١/ ١٦٣-١٦٤)

أين من ربح في متاجر الدنيا واكتسب؟

أين من ربح في متاجر الدنيا واكتسب؟ أين من أُعطي وأُولي ثم والى ووَهَب؟ أما رَحَل عن قصره الذهبُ فذهب؟ أما حَلَّ به في الحرب المصْطَلِم

الحَرَب؟ أما نازله التلف وأسره العَطَب؟ أما نابته نائبة لا تشبه النُّوَب؟ أنفعه بكاء مَنْ بكى أو نَدْب مَنْ نَدَب؟ أما ندم على كل ما جنى وارتكب؟ أما توقنون أن طَالِبَه لكم في الطَّلَب؟ تدبّروا قولَ ناصحكم صَدَق أو كَذَب.

قال ميمون بن مهران: خرجتُ مع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل عليَّ فقال: يا أبا أيوب، هذه قبور آبائي كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم، أما تراهم صَرْعى قد حلَّت بهم المَثُلات واستحكم فيهم البلاء، وأصاب الهوامُّ في أبدانهم مَقِيلاً! ثم بكى حتى غشي عليه، ثم أفاق فقال: انطلق بنا فوالله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمِن مِن عذاب الله عز وجل.

صورٌ طواها الموت طيًّا	كانت محبَّبة إليّا
تَبلى ويأكلها الترا	ب وذِكْرها غَضٌّ إليّا
صرعى بأنواع الحتو	ف كأنّهم شربوا الحُمَيّا
لَهْفي على تلك الوجو	ه وهل يَرُدُّ اللَّهْفُ شيّا
أبكي عليهم ثمَّ أر	جع بعدهم أبكي عَليّا
أنا ميِّت بعد الحيا	ةِ وميِّت للحُزْن حيّا
بيتي الثَّرى ولو أنني	نِلْت السماءَ أو الثُّرَيّا
ولو اعتبرت لعَادَ لي	غَيْلَانُ وهو يَذُمُّ مَيّا[1]
مَن للسماء بأن تدو	مَ وأنها تُدعى سُمَيّا
هيهات لا ترجو البقا	ءَ وابك نفسَك يا أُخَيّا

«التبصرة» (١/ ١٧٠-١٧١)

(١) غيلان: هو ذو الرمة الشاعر المشهور، ومَيّ: هي بنت عاصم المنقري محبوبته. ويريد أن غيلان عاد ذامّاً مَيّة بعد الحب والمديح، وكذلك هو لو اعتبر لعاد ذامّاً هواه.

كأنك بالموت وقد فصم العُرَى

كأنك بالموت وقد فَصَم العُرى التي بها قد تمكنْتَ، ونقلك إلى قبر ترى فيه ما أسأت وما أَحْسَنْتَ، ثم تقوم للجزاء على ما أسررت وما أَعْلَنْتَ، فتزيّن بالتقوى فطُوبى لك إن تَزَيَّنْتَ، واعمل اليومَ ما ينفعك غداً وإلا فمَنْ أَنْتَ!

كم طوى الموت من نعيمٍ وعِزٍّ	وديـارٍ مِـن أهلهـا أخـلاَهَـا
وجنـــودٍ أحـالهـا وجـــدودٍ	ووجـوهٍ أحـال منهـا حِـلاَهَـا
أين مَــنْ كان ناعماً في قصورٍ	بِعُلا المَكْرُمَاتِ شِيدتْ عُلاَهَا
قــد جفاها مَنْ كان يرتاح حيناً	نحـوهـا بعـد إلْـفِـهِ وقَلاَهَـا

«التبصرة» (١/ ١٧١-١٧٢)

يا مَنْ في حُلَل جهله يَرْفُل

يا مَنْ في حُلَل جهله يَرْفُل ويَمِيس[١]، يا مؤثراً الرذائل على أنفس نفيس، يا طويل الأمل ماذا صنع الجليس؟ يا كثير الخطايا أشْمَتَّ إبليس، مَنْ لك إذا فاجأك مُذل الرئيس؟ واحتوشتك أعوان ملك الموت وحَمِي الوطيس، وحُمِلْتَ إلى لحدٍ ما لك فيه إلا العمل أنيس، أين أَمْسُك يا مَن أمسك عرى أمله؟ أما ذهب عن كل عبد ببعض أجله؟ أين لذات شهواتك فيما مضى من عمرك؟ أما تَصَرَّمَتْ والوزر على ظهرك، أما الدنيا تخدع مريدَها، أما العِبر تُحادِث مستفيدَها، أما زياداتُ الأيام تَنْقُص الأجَل، أما كمالُ الأمْن قَرِين الوَجَل.

---

(١) يميس: يتبختر، وكذلك يرفل. مِن «رَفَل» و «مَاسَ».

ومَـنْ لِكسـرى لـو فـدى نفسَـه بكـلٍّ مـا أحـرزه من بِـدَرْ
أَنْصَبَـتِ العُمَّـارَ سـاحـاتُهـم ثـم تخلَّـى عـامـرٌ مِـن عُمَـرْ
فـاسْـمُ بـذكـر اللهِ لا غيـره فـإن ذِكـرَ الله خيـرُ السَّمَـرْ
وشمِّـر الـذيـلَ إلـى عفـوه فكـل مَسْعـودٍ إليـه انْشَـمَـرْ

«التبصرة» (١/ ١٧٢)

ويحك! أمِنَ الأخرى عِوض؟

وَيْحك! أمِنَ الأخرى عِوض؟ أنتم في الدنيا عَرَض، يا مَنْ كلما بنى نَقَض، يا مَنْ كلما رُفع انْخَفَض، يا عجيب الداء والمرض، كم شاهدت مسلوباً؟ كم عاينت مغلوباً؟ كم مخفوضٍ بعد الرفع؟ كم مضرورٍ بعد النفع؟ كم مدفوعٍ عن أغراضه أقبح الدَّفْع؟ بينما هو في ثياب أوجاعه ومُنَى السلامةِ تخطر في أطماعه، أسرع الموتُ ونادى بإسراعه، فعجز عن مقاومته أو عن دفاعه، فحارت من حاله قلوبُ أتباعه، واشتغل بضَياع أمره عن ضِياعه، وأقبلتْ قَبائلُه على تقبيله ووَداعه، وبكى لمَيْلِه إلى الهوى عند نَزْعه ونِزَاعه، وهذا مصيرك فانتبه إليه وراَعِه.

«التبصرة» (١/ ١٧٥)

يا غافلاً في بطالته

يا غافلاً في بطالته، يا مَنْ لا يُفيق من سكرته، أين ندمك على ذنوبك؟ أين حسرتك على عيوبك؟ إلى متى تؤذي بالذنب نفسَك؟ وتضيع يومَك تضييعك أمسَك، لا مَعَ الصادقين لك قَدَم، ولا مَعَ التائبين لك نَدَم، هلاَّ

بسطت في الدُّجى يداً سائلة، وأجريت في السَّحَر دموعاً سائلة؟

خـدعتْنـا زخـارفُ الآمـال ... فلَهَـوْنـا بهـا عـن الآجـالِ

عَجَبي من مُؤَمِّلٍ أمِنَ السِّرْ ... بَ بهـا وهـي خُطَّـةُ الأوْجـالِ

نحـن سَفْـرٌ وإنمـا أَمْهَلَتْنـا ... رَيْثمـا نستعـدّ للتِّـرْحـالِ

أسفاً لمن إذا ربح العاملون خَسِر، وإذا أُطلق المقيَّدون أُسِر، مَنْ له إذا خُوصم فلم يَنْتَصِر، ونُسِيَ يَوْمَ الرحمة فما ذُكِر؟! فالجِدَّ الجدَّ أيها الغافل، فأيام العمر كلها قلائل.

«التبصرة» (١/ ١٧٦)

﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾

لو رأيت العصاةَ والكَرْبُ يغشاهم، والندم قد أحاط بهم وكفاهم، والأسف على ما فاتهم قد أضناهم، يتمنون العافية وهيهات مُناهم، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

نزل بهم المرض فألقاهم كالحَرَض[١]، فانفكَّ أملُهم وانقبض، وانعكس عليهم الغرَض، ورحمهم في صَرْعتهم من عاداهم، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾.

يتمنون عند الموت راحة، ويشتهون من الكرب استراحة، ويناقَشون على الخطايا ولا سماحة، فهم كطائر قصَّ الصائد جناحه، في حبس النَّزْع والكَرْبُ يغشاهم، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾.

يتأسفون وأسفهم أشدُّ ما في العِلّة، ويتحسرون وتحسرهم على ما مضى

---

(١) الحَرَض: الشديد المرض.

من زلّة، وجبل ندمهم قد شُقّ كأنه ظُلَّة، فلو رأيتهم بعد الكِبْر قد صاروا أذِلّة، وتملَّك أموالَهم بعدَهم سِواهم، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾.

ما نفعهم ما تعبوا لتحصيله وجالوا، ولا ردّ عنهم ما جمعوا واحتالوا، جاء المرض فأذلَّهم بعد أن صالوا، فإذا قال العائد لأهليهم: كيف باتوا؟ قالوا: إن السقم قد وَهَّاهم وها هُمْ، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾.

نزلوا بطون الفَلا فلا يُقْبَل عذرُهم، ولا ذو وُدٍّ يَنْفَعُهم، قد أضناهم بلاء البِلى فلو رأيتهم في بَلاهم وهم في بِلاهم[1]، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾.

فالبِدار البِدار قبل الفوات، والحِذار الحِذار من يوم الغفلات، قبل أن يقول المذنب «ربِّ ارجعون» فيقال فات، ويح الغافلين عن عُقباهم ما أعماهم! ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾.

«التبصرة» (١/ ١٧٧)

صابر ليل البلاء

صابرْ ليل البَلا فقد دنا الفجر، واثبت لعمل نهار العمر تَسْتَوف الأجر، واحبس نفسك عن هواها فسينفعك الحَجْر، وارجزْ لها فإن لم تَسِر بالرَّجز فبالزَّجْر، ما نال من نال ما نال إلا بالصبر، وبه علا ذكر كل عابد وحبْر، وهو وإن مرّت مذاقتُه بانت حلاوته في القبر.

أيها النائم وهو منتبه، المتحير في أَمْرٍ لا يشتبه، يا من قد صاح به الموتُ في سَلْب صاحبه، وهو مغرور بجهله مفتون بلعبه، يا واقفاً مع الهوى والطبع، أأمِنْتَ شَيْن القلب بالخَتْم والطَّبْع؟!

«التبصرة» (١/ ١٨٤)

---

(١) الأولى: من البَلاء، والثانية: من البِلَى.

يا عظيم الشِّقاق

يا عظيمَ الشِّقاق، يا قليلَ الوِفاق، يا مرير المذاق، يا قبيح الأخلاق، يا كثير التواني، قد سار الرّفاق، يا شديد التمادي، قد صعب اللَّحاق، إخلاصك معدوم وما للنِّفاق نَفاق، ومعاصيك في ازدياد والعمر في انْمِحَاق، وساعي أجلِك مُجِدٌّ كأنه في سِباق، لا الوعظ ينذرك، ولا الموت يزجرك، ما تُطاق.

اتـرك الشـرَّ ولا تـأنـس بِشَـرّْ	وتواضـع إنمـا أنـت بَشَـــرْ
هـذه الأجسـامُ تُـرْب هـامـدٌ	فمن الجهـلِ افتخـارٌ وأشَـــرْ
جسَــدٌ مــن أربـــع تلحظهـا	سبعـة من فـوقهـا اثني عَشَـرْ
فعجيـــب فـــرَحُ النفـــس إذا	شاع في الأرض ثَنَاها وانتشرْ
مستشـــارٌ خائـنٌ في نصحـــهِ	وأميـنٌ ناصـح لـــم يُسْتَشَـرْ
فافعل الخيـر وأمِّــل غِبَّـــهُ	فهــو الـذُّخْـر إذا اللهُ حَشَـرْ
أَضْمِـر الخِيفةَ وأظهـر ندماً	قَلَّ ما أحرزَ الطَّرفُ المَدَى حين ضَمَرْ
وهــي الــدنيـا أذاهــا أبـداً	زُمَـــراً واردةً بعــد زُمَـــرْ
فـــي حيـاةٍ كخيـالٍ طـارقٍ	شَغَـل الفِكْـرَ وخَـلاَّكَ ومَـــرّْ

«التبصرة» (١/ ١٨٤-١٨٥)

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾

الويل كلّ الويل لعاقّ والديه، والخِزْي كل الخِزْي لِمن ماتا غِضاباً عليه، أُفٍّ لـه هـل جزاء المحسـن إلا الإحسـان إليـه، أَتْبِـع الآن تَفْـريطَـك فـي

حَقِّهما أنيناً وزفيراً، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٤].

كم آثراك بالشهوات على النَّفْس، ولو غِبْت ساعة صارا في حَبْس، حياتهما عندك بقايا شمس، لقد راعياك طويلاً فارعهما قصيراً، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾.

كم ليلةٍ سهرا معك إلى الفَجْر، يداريانك مداراة العاشق في الهَجْر، فإن مرضت أجريا دمعاً لم يَجْر، تالله لم يرضيا لتربيتك غير الكَفّ والحِجْر سريراً، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾.

يعالجان أنجاسَك ويحبان بقاءك، ولو لقيت منهما أذى شكوت شقاءك، ما تشتاق لهما إذا غابا ويشتاقان لقاءك، كم جرَّعاك حُلْواً وجرعتهما مريراً، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾.

أتَحْسُن الإساءة في مقابلة الإحسان؟ أوَ ما تأْنَف الإنسانيةُ للإنسان؟ كيف تُعارض حُسْنَ فضلهما بقُبْح العِصيان؟ ثم ترفع عليهما صوتاً جهيراً، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾.

تحب أولادك طبعاً، فأحبب والديك شَرْعاً، وارْعَ أَصْلاً أثمر لك فرعاً، واذكر لُطْفَهما بك وطِيبَ المَرْعى أولاً وأخيراً، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾.

تَصَدَّق عنهما إنْ كانا ميتين (!)، وصَلِّ [عليهما] واقْضِ عنهما الدَّين، واستغفر لهما واستدم هاتين الكلمتين، وما تُكَلَّفُ إلا أمراً يسيراً، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾.

«التبصرة» (١/ ١٨٩-١٩٠)

اسمع يا خائن الذِّمم

اسمع يا خائن الذِّمَم، يا مُضِيع الحُرَم، يا مَنْ على التوبة عزَمَ زَعَم، غير أنه كلما بنى أن يلوذ بنا هَدَم، يسعى إلى الهدى فإذا رأى جيفة الهوى جَثَم، ويحك! إطلاق البصر في سور الحذر ثَلَم، عجباً لأمْنك وأنت بين فكَّي جَلَم[1]! كأنك بك تتمنى العَدَم، وتبكي على تفريطك بندم، إلى كم هذا التواني كَمْ كَمْ وكَمْ! إيّاك والدنيا فما تَشْفى من قَرَم[2]، لمن تحدث لقد نفخنا من غير ضَرَم.

كـم أسيـرٍ لشهـوةٍ وقتيـلِ	أُفٍّ لمشْتَـرٍ خِـلافَ الجميـلِ
شهواتُ الإنسـان تُورثه الذ	لَّ وتُلْقِيه في البلاء الطويلِ

«التبصرة» (١/ ١٩٦-١٩٧)

يا حائراً لَمْ يؤثر إلا خلافاً

يا حائراً لَمْ يُؤْثِرْ إلا خِلافاً، يا واعداً بالتوبة ولم نَرَ إلا إخْلافاً، متى ستعمل عَدْلاً وتُورِث إنصافاً؟ أتصافي الهوى من اليوم إن صافى؟ أما ترى الناس بهذه الدار أضيافاً؟ أتُوقِن بالحساب وتَرْمي الفِعل جُزَافاً؟ أتنسى الموت وكم قد أقام سيَّافاً؟ أما بقي القليل ثم تلحق أسلافاً؟

إذا كَثُرَت منك الذنوبُ فداوِها	برفع يدٍ في الليلِ والليلُ مُظلمُ
ولا تَقْنَطَنْ من رحمةِ الله إنمـا	قُنوطك منها من خطاياك أعظمُ

---

(١) الجَلَم: ما يُجَزّ به الشعر والصوف.

(٢) القَرَم: شدة الشهوة إلى اللحم.

فـرحمتُـه للمحسنيـن كَـرامـةٌ   ورحمتـــه للمسـرفيـن تكَــرُّمُ

«التبصرة» (١/ ١٩٧)

يا بشراهم إذا قدموا وغَنموا

لما عَلِمَ الصالحون أن الدنيا دارُ رِحْلة دافعوا زمان البَلاء وأدْلجوا في ليل الصبر عِلماً منهم بقرب فَجْر الأجْر، فما كانت إلا رقدة حتى أصبحوا بمنزلِ السلامة، نفذت أبصارُ بصائرهم بنور الغيب إلى مشاهدة موصوف الوعد، فتعلقت يَدُ الآمال بما عاينت بواطنُ القلوب، وأخمصوا عن الحرام البُطون، وغَضُّوا عن الآثام الجُفُون، وسَكَبُوا في ظلام الليل الدُّموع، وتململوا تَمَلْمُلَ المَلْسُوع، استقاد قلوبَهم زمانُ التَّلَطُّفِ، ثم جثَّها سائقُ التَّعَسُّف، فكلما ألاح لهم الرجاءُ نُورَ الوصال، طَبَّق ظلامُ الخوف سَماء الأعمال، فهم في بَيْداء التَّحَيُّر يَسْرحون، ومن باب التضرع لا يَبْرحون، وحُزنهم أوفى مما يَفْرحون، فإذا عَمَّهم الغَمُّ فبالذِّكر يَتَروَّحون، رفضوا الدنيا فسَلِمُوا، وطلبوا الأخرى فما ندموا، يا بُشراهم إذا قَدِمُوا وغَنِمُوا. «التبصرة» (١/ ١٩٨)

يا قليل الصبر

يا قليلَ الصبرِ إنما هي مَراحِل، فصابر لُجَّةَ البلاء فالموتُ ساحِل، تأمّل تحت سُجَفِ[١] ليل الصبر صُبحَ الأجر، واحْبِسْ لسانك عن الشكوى في سِجْن الصبر، واقطع نهار اللأْوَاء[٢] بحديث الفِكْر، وأوقد في دَيَاجِي الآلام مِصباح الشكر، وقَلّب قلبَك بين ذكر الثواب وتَمْحيص الوِزْر، وتَعَلَّم أن البَلاء

---

(١) جمع سُجْفَة، وهي الساعة من الليل.

(٢) اللأواء: الشدة وضيق المعيشة.

يُمَزِّق رُكام الذنوب تمزيقَ الشِّباك، ويرفع درجات الفضائل إلى كاهل السِّماك، ومن تفكر في سر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣، والتوبة: ٤٦] أنِس بجليسه، ومن تذكَّر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] فرح بامتلاء كيسه.

إذا أنت لم تَرْحَلْ بزادٍ من التُّقى ... ولاَقَيْتَ بعد الموت مَنْ قد تَزَوَّدا

ندمت على أن لا تكون كمِثْلِه ... وأَنَّك لم تُرْصد كما كان أَرْصَدا

«التبصرة» (١/ ٢٠١-٢٠٢)

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾

لله أقوامٌ امتثلوا ما أُمِروا، وزُجِروا عن الزَّلَل فانْزَجَرُوا، فإذا لاَحَتِ الدنيا غابوا، وإذا بانَتِ الأُخرى حَضَروا، فلو رأيتَهم في القيامة إذا حُشِروا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ [المؤمنون: ١١١].

جَنَّ عليهم الليلُ فسَهِروا، وطالعوا صُحُف الذنوب فانكسروا، وطرقوا باب المحبوب واعتذروا، وبالغوا في المطلوب ثم حَذِروا، فانظر بماذا وُعِدوا في الذكر وذُكروا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

ربحوا والله وما خسروا، وعاهدوا على الزهد فما غَدَروا، واحتالوا على نفوسهم فملكوا وأَسَروا، وتفقَّدوا أَنْعُم المولى فاعترفوا وشكروا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

بيوتهم في خُلوّها كالصوامع، وعيونهم تنظر بالتقى من طَرْف خاشع، والأجفان قد سَحَّت سُحُبَ المدامع، تَسْقي بَذْرَ الفِكر الذي بَذَرُوا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

استوحشوا من كل جليس، شُغلاً بالمعنى النفيس، وزَمُّوا مطايا الجِدِّ فسارت العِيس، وبادروا الفُرْصَة ففاتوا إبليس، لا وقفوا ولا فتروا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾.

قلوبٌ في [الطاعة] حَضَرَتْ، أسرار بالصِّدْق عَمَرَتْ، كم شهوةٍ في صدورهم انكسرت، أخبارهم تُحْيي القلوب إذا نُشِرت، ويقال عن القوم إذا نُشِروا: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾.

جَدُّوا فليس فيهم مَنْ يَلعب، ورفضوا الدنيا فتركوها تَخْرب، وأذابوا قلوبَهم بقِلَّة المَطعم والمَشرب، فغداً يقال: كُلْ يا مَنْ لم يأكل واشرب يا مَنْ لم يشرب، أذكارهم في الحياة وإن كانوا قُبروا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾.

عَلِموا أن الدنيا لَعِبٌ ولَهْو وزِينَة، وأن مَنْ وافق مرادها فارق دِينه، فَحَذِرُوا من غرور يُجْدي غَبِينَة[1]، فركبوا من التقى في سَفينة، أشحنوها بالزاد وعبَروا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾.

طوبى لهم والأملاك تتلقاهم، كَشَفَ الحجابَ عن عيونهم فأراهم، هذا أقصى آمالهم وقد ظَفِروا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾.

بَلَّغَنَا الله ذلك المَبْلَغ، وأسمعنا زَجْر الناصح فقد أبْلَغ، وسَتَرَنَا مِن العقاب فإنه إن عفا أَسْبَغ، ولولا عونُه ما قَدِروا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾.

«التبصرة» (١/ ٢٠٢-٢٠٣)

* * *

(١) الغبينة: الخديعة. يقال: لَحِقَتْه في تجارته غبينة.

يا مُفَرّطاً في ساعاته

يا مُفَرّطاً في ساعاته بالليل والنهار، لو علمت ما فات شَابَهَتْ دموعُك الأنهار، يا طويل النوم عَدِمْت خيراتِ الأسحار، لو رأى طرفُك ما نال الأبرارُ حار، يا مَخْدوعاً بالهوى ساكناً في دار، قد حام حول ساكنها طارقُ الفَناء ودَار، سار الصالحون فاجْتَهِدْ في اتِّباع الآثار، واذكُرْ بظلام الليلِ ظلامَ القبر وخُلوَّ الدِّيار، وحارب عَدُوّاً قد قتلك بالهوى واطْلُبِ الثَّار، فقد أَرَيْتُك طريقاً إنْ سلكتَها أمِنْت العِثَار، فإن فزت بالمراد فالصَّيْد لمن أثار.

«التبصرة» (١/ ٢١٠)

يا مشغولاً قلبه بلُبنى وسُعدى

يا مشغولاً قلبه بلُبْنَى وسُعدى، يا مُسْتَلِذَّ الرُّقاد وهذي الركائب تُحْدى، يا عظيم المعاصي يا مخطئاً جدا، يا طالما طال ما عتا وتعدَّى، كم جاوز حَدّاً وكم أتى ذنباً عَمْدا! يا أسير الهوى قد أصبح له عبدا، يا ناظماً خَرَزاتِ الأمل في سِلْك المُنَى عِقْدا، يا معرضاً عما قد حَلّ كم حلَّ عَقْدا! كم عاهد مَرَّةً وكم نَقَضَ عَهْدا! مَنْ لك إذا سُقِيت كأساً لا تجد مِنْ شُربها بُدّا؟ مُزِجَتْ أَوْصَاباً وصَاباً[1] صار المصابُ عندها شَهْدا، مَن لك إذا لَحِقْتَ أباً وأُماً وأخاً وعَمّاً وجَدّا؟ وتوسَّدْتَ بعد اللِّين حَجَراً صلباً صَلْدا، وسافرتَ سَفَراً يا له من سَفَرِ بُعْدا، واحتوشك عملُك هَزْلاً كان أو جِدّا، ولقِيتَ مُنْكَراً ونكِيراً فهل لقيت أسدا؟ فبَادِرْ قبلَ الموت فما تستطيعُ للفوت رَدّا.

---

(١) (الأوصاب): جمع وَصَب، وهو الوجع والمرض. و(الصاب): شجر مر له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة. والمعنى: من لك يا من تنقض العهود وتعصي علّام الغيوب إذا جاءك الموت وذقت شدته وألمه وتجرعت مرارة كأسه؟ عندها يهون في جنبه كل مصاب ويصير بالنسبة إليه شهداً.

نَهَـاكَ عـن البطـالـةِ والتَّصَـابـي نحولُ الجسمِ والرأسُ الخَضِيبُ
إذا مات بعضُك فابكِ بَعْضاً فبعضُ الشَّيء مِنْ بعضٍ قَريبُ

«التبصرة» (١/ ٢١٥)

لا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل

أيها الناس تَقَوَّوْا بهذه النِّعم التي أصبحتم فيها على الهَرب من النار المُوقَدة التي تَطَّلع على الأفئدة، فإنكم في دارِ الثَّواء فيها قليل، وأنتم فيها مُؤَجَّلون، وخلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا زُخْرُفَها وزَهْرَتها، فهم كانوا أطولَ منكم أعماراً وأمدَّ أجساماً وأعظم آثاراً، فخدَّدوا الجبال وجابوا الصخور، ونَقَّبوا في البلاد، مؤيَّدين ببطش شديد وأجسام كالعِمَاد، فما لبثت الأيامُ والليالي أن طَوَتْ مُدَّتَهم، وعَفَّت آثارهم، وأَخْوَت منازلهم، وأَنْسَتْ ذِكْرَهم، فما تُحسُّ منهم من أحدٍ ولا تَسْمَع لهم رِكْزاً. كانوا بلَهْو الأمل آمنين كبيات قوم غافلين أو كصباح قومٍ نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بياتاً، فأصبح كثيرٌ منهم في ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون في آثار نِقمةٍ وزوال نِعمةٍ ومساكنَ خاوية، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم وعِبْرَةٌ لمن يخشى، وأصبحتم من بعدهم في أَجَلٍ مَنْقُوص ودنيا مَقْبُوضة، وفي زمانٍ قد وَلّى عَفْوُه وذهب رجاؤه، فلم يبق منه إلا جُمّة شر[١] وصُبَابة[٢] كَدَر وأهاويل عِبَر وأرسال فِتَن، ورُذَالة خَلَف بهم ظهر الفساد في البرّ والبحر، فلا تكونوا أشباهاً لمنْ خدعه الأمل، وغَرَّه طول الأجل. نسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن وعى نُذْره وعَقَل سُرَاه فمهَّد لنفسه.

---

(١) أي: شر كثير، والجُمّة: المجتمع من الشيء.
(٢) أي: بقية.

تَـزَوَّجَ دنـيـــاه الغَـبِــيُّ بجـهـلـه فقد نَشَزَتْ مِن بعد ما قُبِضَ المَهْرُ
تَطَهَّـرْ ببُعْدٍ من أذاها وكَيْدِها فتلك بَغِيٌّ لا يصح لها طُهْـرُ
ونحن كَرَكْبِ الموج ما بين بعضهم وبين الـرَّدى إلا الذراعُ أو الشِّـبْـرُ

«التبصرة» (١/ ٢١٦)

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾

يا كثيرَ الخِلاف، يا عظيم الشِّقاق، يا سَيِّءَ الآداب، يا قَبيح الأخلاق، يا قليل الصّبر، يا عديم الوِفاق، يا مَن سيبكي كثيراً إذا انتبه وفاق، ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٩].

أين مَن أنِس بالدنيا ونَسِي الزوال؟ أين من عَمَر القُصور وجَمَع المال؟ تقلَّبَت بالقوم أحوالُ الأهوال، كم أراك عِبْرَةً وقد قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣].

أين صديقُك المُؤانس؟ أين رفيقُك المُجَالس؟ أين الماشي فقيراً وأين الفارس؟ امتدت إلى الكلِّ كَفُّ المُخَالِس[1]، فنزلوا تحت الأطباق.

وكأنْ قَدْ رَحَلْتَ كما رحلوا، ونزلتَ وشيكاً حيثُ نزلوا، وحُمِلْتَ إلى القبر كما حُمِلوا، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠].

مَنْ لك إذا أَلَمَّ الأَلَمُ، وسَكت الصوت وتمكّن النَّدم، ووقع بك الفَوْت، وأقبـل لأخـذ الـرُّوح مَلَـك المـوت، وجـاءت جنـوده، ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٧].

---

(١) الذي يأخذ بغتة ويتناول غفلة، والمقصود هنا الموت.

ونزلتَ منزلاً ليس بمَسْكون، وتَعَوَّضْتَ بعد الحَركات السُّكون، فيا أسفا لك كيف تكون؟ وأهوال القبر لا تطاق.

وفُرِّقَ مالُك وسُكِنَتِ الدار، ودَارَ البَلاءُ فما دَارَى[1] إذْ دَارَ، وشغلك الوزرُ عَمّن هَجَر وزَار، ولم يَنْفَعْك نَدَمُ الرِّفاق.

أمَا أكثر عمرك قد مضى؟ أما أعظم زمانك قد انقضى؟ أفي فعلك ما يصلح للرضا؟ إذا التقينا يوم التلاق.

يا ساعياً في هواه تصوّر رَمْسَك، يا موسعاً إلى خَطاه تذكر حَبْسك، يا مأسوراً في سِجْن الشهوات خَلِّص نَفْسَك، قبل أن تَعِزّ السلامةُ وتُعْتَق الأعناق، ويُنْصب الصراطُ ويُوضَع الميزان، ويُنْشَر الكتاب يَحْوي ما قد كان، ويَشْهد الجِلدُ والمَلَك والمكان، والنار الحَبْس والحاكم الخَلاّق.

فحينئذٍ يَشيب المولود، وتَخْرَس الألسن وتَنْطِق الجلود، وتظهر الوجوه بين بيض وسود، ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢].

فبادر قبل أن لا يُمْكِن، وحاذر قبل أن يفوت المُمْكِن، وأحْسِنْ قبل أن لا تُحْسِن، فاليومَ البُرهان وغداً السِّباق.

فانْتَهِب عُمراً يَفْنى بالمساء والصباح، وعامل مَوْلًى يُجْزل العطايا والأرباح، ولا تَبْخَلْ فقد حَثَّ على السماح، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

«التبصرة» (١/ ٢١٦-٢١٧)

* * *

(١) أي: فما لاطف ولا رفق، من المُداراة.

يا من يؤمر بما يصلحه فلا يقبل

يـا نَفْـسُ أَنَّـى تُـؤْفَكِينـا ... حتـى متـى لا تَـرْعَـوِينـا
حتـى متـى لا تَعْقِليـ ... ـن وتَسْمعيـن وتُبْصِـرينـا
يـا نَفْـسُ إنْ لـم تَصْلُحـي ... فتشبَّهـي بـالصـالحينـا
وتفكّـري فيمـا أقـو ... لُ لعـلّ رُشْـدَكِ أن يحينـا
فليـأتيـنّ عليـك مـا ... أفنـى القـرون الأولينـا
أيـن الأُولـى جمعـوا وكـا ... نـوا للحـوادث آمِنينـا
أفْنـاهـمُ المـوتُ المطـ ... ـلّ على الخلائق أجمعينا
فـإذا مسـاكنُهـم ومـا ... جَمَعـوا لقـومٍ آخَـرينـا

يا مَنْ يُؤْمر بما يُصْلِحه فلا يَقْبل، أمَا الشَّيب نذير بالموت قد أقبل؟ أمَا أنتَ الذي عن أفعاله تُسْأل؟ أما أنت تخلو في اللحد بما تعمل؟ ستعلم يوم الحساب عند العتاب مَنْ يَخْجَل، يا مبادِراً بالخطايا تَوَقَّفْ لا تَعْجَلْ.

«التبصرة» (١/ ٢٢٥)

يا غافلاً طول دهره

يا غافلاً طول دهره، عن مَمَرِّ يومه وشَهْره، يا موعوظاً في سرّه وجَهْره بجفاف النبات وزَهْره، يا مُنَبَّهاً في أمره بأَسْره على حَبْسه وأَسْره، يا مذكوراً في عُسْره ويُسْره، سل حادثات الزمان عن يُسْره، يا عصفوراً لا بد من ذبحه وتخريب وَكْره، ثم لا يَجُول ذلك على فكره، متى يفيق سكران الهوى من سُكره؟ فيستبدل العُرْف بنُكْرِه، ألا يتنبه هذا المُبذِّر لبَذْره؟ ألا يتيقظ الجاني

لإقامة عذره؟ والله لو سكن قلبَه خوفُ حشره لخرج في أعمال الجِدّ من قِشْره، بل لو تفكر حق التفكر في نشره لم يبع ثوباً ولم يَشْرِه، مضى الزمان في مَدّ اللهو وجَزره، وما حَظِي المُفَرِّط بغير وِزْره، تالله لقد اغتبط المحسن في قبره وندم المسيء على قلة صَبْره، يا حُسْن ما أطاع بترتيل القرآن أبو عمرو[1] ويا خُسْر ما أضاع أبو نُوَاس بخَمْره.

حيــاةٌ ومـوتٌ وانتظــارُ قيامةٍ ... ثـلاثٌ أفـادتنـا ألـوفَ معـانـي

فـلا تَمْهُـر الـدنيا الـدَّنِيّة إنهـا ... تفــارقُ أهليهـا فِـراقَ لِعَـانِ

ولا تطلبوها من سنانٍ وصارمٍ ... بيـومِ ضِـرَابٍ أو بيـوم طِعَـانِ

فإن شئتما أن تَخْلُصا من أذاتها ... فحُطَّا بها الأثقـالَ واتّبعانـي

عجبتُ من الصبح المُنير وضِدِّه ... على أهل هذا الضد يَطَّلعانِ

وقد أخرجاني بالكراهة منهما ... كأنهما للضيف ما وَسِعاني

دَعَانـي إلى هذا التَّفَـرّد إننـي ... خبيرٌ فجِدًّا في السُّرَى ودَعَاني

«التبصرة» (١/ ٢٢٧)

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾

أيها الغافل، ربح القومُ وخَسِرْت، وساروا إلى الحبيب وما سِرْت، وقاموا بالأوامر وضَيَّعتَ ما به أُمِرْت، وسَلِمُوا من رِقِّ الهوى واغْتَرَرْتَ فأُسِرْت، فالدنيا تخدمهم والسعادة تَقْدُمهم حين يحشرون، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

---

(١) أحد القراء السبعة.

لقد شُوِّقتم إلى الفضائل فما اشتقتم، وزُجرتم عن الرذائل وأنتم في سكر الهوى ما أفَقْتم، فلو حاسبتم أنفسكم وحققتم، علمتم أنكم بغير وثيق توثقتم، فاطلبوا الخلاص من أسْر الهوى فقد جدّ الطالبون، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾.

أيقظنا الله وإياكم لمصالحنا، وعصمنا من ذنوبنا وقبائحنا، واستعمل في طاعته جميع جوارحنا، ولا جعلنا ممن يرضى بدون، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾.

«التبصرة» (١/ ٢٣٢)

يا سالكاً طريق الجاهلين

يا سالكاً طريق الجاهلين، راضياً بلَعِب الغافلين، متى ترى هذا القلب القاسي يَلين؟ متى تبيع الدنيا وتشتري الدِّين؟ وا عجبا لمن آثر الفاني على ما يدوم! وتَعَجَّل الهوى واختار المذموم، ودَنَتْ هِمَّتُه فهو حول الوَسَخ يحوم، وأقبل على القبيح ناسياً يوم القدوم، فأصبح شَرَّ خاسرٍ وأبْعَدَ مَلُوم.

أتغُـــرُّنـــي آمَـــالِيَـــهْ ... بعـــد القـــرون الخـــالِيَـــهْ

أهـــلُ المـــراتـــب والمنـــا ... صـــب والقصـــور العَـــالِيَـــهْ

عـــادت لهـــم دنيـــاهـــمُ ... بَعْـــد المـــودة قَـــالِيَـــهْ

نـــادتْ منـــازلُهـــم قِفـــوا ... وتـــأمَّلـــوا أَطـــلالِيَـــهْ

فغُمـــوض بـــاطـــنِ حـــالهـــم ... يُبْـــديـــه ظـــاهـــرُ حَـــالِيَـــهْ

كـــانـــوا عقـــوداً عُطِّلـــتْ ... منهـــا النُّحـــور الخـــالِيَـــهْ

إنـــي لأذكـــر مَعْشَـــراً ... مــا النفــسُ عنهــم سَــالِيَـهْ
فــأقـــول والهَفِـــي علـــى ... تـلـك الــوجــوه البَــالِيَــهْ

أَفِقْ مِنْ سَكْرَتك أيها الغافل، وتَحَقَّقْ أنك عن قريبٍ راحل، فإنما هي أيامٌ قَلائل، فخذ نصيبك مِن ظلٍ زائل، واقْضِ ما أنت قاضٍ وافعل ما أنت فاعل.

أنَسِيت يـا مغـرور أنـك ميتٌ ... أيْـقِنْ بأنّك في المقابر نازلُ
تَـفْنَـى وتَبْـلى والخلائق لِلْبِـلَى ... أبمثل هـذا العَيْشِ يَفْرح عاقلُ

«التبصرة» (١/ ٢٤٠-٢٤١)

يا لاحقاً بآبائه وأُمهاته

يا لاحقاً بآبائه وأُمهاته، لا بدَّ أن يصير الطَّلا إلى مهاته[١]، يا مَنْ جُلُّ هِمّته جل خِياطِه وطُهَاته[٢]، يُقَلّبه الهوى وهو غالبُ دُهَاته، إن كان لك في تفريطك عذر فهَاتِه، يا مُتيّماً بالدنيا في ثياب صَبّ، يا من أتى المعاصي ونسي الرَّبّ، يا مُذْنَفاً بالخطايا وما اسْتَطَبّ، يا أسيرَ فَخِّ الأماني وما نال الحَبّ.

إخواني، ذهبت الشَّبِيبَةُ الحَبيبة، ونِبَالُ المُصِيبة بها مُصِيبة، كانت أوقات الشباب كفصل الربيع، وساعاته كأيام التشريق، والعيش فيها كنَوْرِ الرياض، فأقبل الشَّيْب يَعِدُ بالفَناء ويُوعِد بصُفْر[٣] الإناء، فَحلَّ المِرَّة[٤] وأَحَلَّ المَرِيرة.

«التبصرة» (١/ ٢٤١)

---

(١) الطلا: ولد الظبي ساعة يولد، والصغير من كل شيء. والمهاة: البقرة الوحشية.
(٢) يعني: أن معظم همته مصروفة إلى الملبس والمأكل.
(٣) الصُّفر والصِّفر: الخالي.
(٤) أي: أوهن القوة، وحَلّ ما أُحكم فتله. والمريرة: مؤنث المرير، وهو المُرّ؛ ضد الحُلْو.

اعتبروا بمن مضى من الأقران

إخواني، اعتبروا بمن مضى من الأقران، وتفكروا فيمن بَنى كيف بان؟ تقلبت والله بهم الأحوال، ولعبت بهم أيدي البَلْبَال، ونَسيهم أحبابُهم بعد ليال، وعانقوا التراب وفارقوا المال، فلو أُذِن لصامتهم لقال:

مَـــنْ رآنـــا فَلْيُحَـــدِّثْ نَفْسَـــه ... أنـــه مُـــوفٍ علـــى قُـــرْبِ زَوالْ
وصُـروف الدهرِ لا يَبْقَى لها ... ولِمَا تأتـي بـه صُمُّ الجِبـالْ
رُبَّ رَكْبٍ قـد أناخُوا حَوْلَنا ... يَشربون الخَمْـر بالماء الزُّلالْ
والأبـاريـقُ عليهـا قِـدمٌ ... وعِتَاق الخيلِ تَرْدِي[1] في الجِلالْ
عمـروا دهـراً بعيـشٍ حسَـنٍ ... آمِنـي دَهْـرِهِـمُ غيـرَ عِجَـالْ
ثم أضْحَوا لَعِبَ الدَّهْرُ بهـم ... وكـذاك الدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالْ

«التبصرة» (١/ ٢٥٦-٢٥٧)

يا مشغولاً بالأمل والمنى

يا مشغولاً بالأمل والمنى، تأهَّب لمصرعٍ قد قارب ودَنا، وتزود للقبر من الصبر كَفَنًا، وتهيأ لحربِ الهوى فإذا عزمت فَأَلْقِ القنا، فاللُّحُود المقيلُ وبيت الموتِ لا يُبْتَنى، وحاكم العَدْل يجازي كُلًّا بما جَنَى.

لا بُـدّ للإنسان من ضَجْعَـةٍ ... لا تَقْلِـبُ المُضْجَـعَ عـن جَنبـهِ
يَنْسَى بها مـا كان مـن عُجْبهِ ... بمـا أذاق الموتُ مـن كَرْبِهِ

(١) أي: تعدو. و(الجلال): جمع جَلّ، وهو ما تُغَطّى به الدابة لتصان.

نحن بنو الموتى فما بالُنا | نعافُ ما لا بُدَّ من شُرْبِهِ
يموت راعي الضأنِ في جَهْلهِ | مَوْتَةَ جَالِينُوسَ في طِبِّهِ
وربما زاد على عُمْره | وزاد في الأمن على سِرْبِهِ
وغايةُ المُفرِط في سِلْمِهِ | كغاية المُفْرِط في حَرْبِهِ

«التبصرة» (١/ ٢٥٧)

لا يغرّنكم الإمهال

يا أهل الذنوب لا يَغُرَّنكم الإمهال، فإنما هي أيام وليال، رُبَّ مشغول بلذاته عن ذِكر تخريب ذاته، يلهو بأمله عن تجويد عمله، يَتَقَلَّب في أغراضه ناسياً قُرْب إمراضه، بَغتَهُ الفَاجِعُ بباسه فأخذه عن أهله وجُلاّسه.

«التبصرة» (١/ ٢٦٠)

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾

كم مأخوذٍ على الزّلل خُتِمَ له بسوء العمل! نزل به الموت فيا هول ما نَزَل، فأسكنه القبر فكأنْ لم يَزَلْ، وهذا مصير الغافل لو غفَل، ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ [الحجر: ٣].

كم نائمٍ على فراش التقصير! مغترٍ بعُمْرٍ قَصير، صاح به فلم يُبَالِ النَّذير، فاستَلَبَه الخطأُ والتَّبذير، فلما أحسَّ الباسَ ثارت مِن نيران النَّدمِ شُعَل، ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾.

كم مُسْتَحْلٍ شرابَ الهوى شَرِبَ مِن كأسه حتى ارتَوى، بينا هو على جادة إعراضه هَوَى، فما نَفَعَه عند الموت ما حَوى، ولا ما شرب ولا ما أَكَل، ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾.

لا تَغْتَرِرْ بنعيم القوم، فإن غداً بعد اليوم، دَعْهُمْ فما يؤثر فيهم اللَّوم، وهل ينفع التحريك ميتاً وهل؟ ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾.

يجمعون الحطام بكسب الحرام، ويتفكرون في نَصْب شَرَك الآثام والناسُ نيام، يرقدون في الليل وفِكْرهم في الويل طويل لا ينام، والأقدامُ فيما لا يَحِلّ إقدامٌ، تسعى في هواها سَعْيَ الرَّمَل[1]، ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾.

ما عندهم خَبَرٌ مِن الساعة، والعمر يمضي ساعةً فساعة، خسروا في أشرف تجارة وأغلى بضاعة، يتثاقلون تثاقل عُطَارد في الطاعة، فإذا لاَحَ الذَنْبُ فزُحَل، ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾.

كيف بكف تَعْيَا وتَعِيث؟ كيف نُحَذِّرها شر الخطايا وكل فعلها خبيث؟ كيف نُخَوِّفُها قليلَ الذنبِ ولِسانُ الحالِ يَسْتغيث: أنا الغريقُ فما خَوفي مِنَ البَلَل؟ ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾.

«التبصرة» (١/ ٢٦٠-٢٦١)

التقوى دِرع

إخواني، متى أصبح الهوى أميراً أمسى العقلُ أسيراً، التقوى دِرْع والدِّرع مجموع حَلَق، فغَضُّ البَصَر حَلْقة، وحَبْس اللسان حَلْقة، وعلى هذا سائر ما

(١) الرَّمَل: الهَرْوَلة.

يُتوقّى، فإياك أن تترك خَللاً في دِرْعك، فإن الرامي يقْصد الخَلَل، متى فَسَحْتَ لنفسكِ في تفريطٍ وإن قَلّ انخرق حِرْز احترازك.

كان بعض المتعبدين يمشي في وسط الوحل ويتّقيه ويُشَمّر عن ساقَيْه، إلى أن زَلَقَتْ رِجْله، فجعل يمشي في وسط الوحل ويبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: هذا مَثَلُ العبد لا يزال يَتَوَقّى الذنوبَ حتى يقع في ذَنْبٍ وذنبين فعندها يخوض الذنوب خوضاً.

«التبصرة» (١/ ٢٦٦)

يا ذا الأمل الطوْيل العريض

يا ذا الأمل الطويل العريض، أمَا أنذرتْك الشَّعَرات البيض؟ أمَا الموتُ بَرْقٌ والشَّيْب وَمِيض؟ عجباً لتأميل الكَسِير المهِيض! لقد فات الفوزُ قِدْح المغِيض، يا دائم الخطأ وكم عُلِّم ورِيض، يا معجباً بالسلامة وهو في الحقيقة مريض، لا اللسان محفوظ ولا الجَفْن غَضِيض، لا بالنَّشْر ترجع ولا بالقَرِيض، لقد نزلت بك المعاصي إلى أسفل حَضِيض.

ليت شعري بعد الموت إلى أين تذهب؟ لقد تعمَّى والله عليك المَذْهب، لا بد مَرَّةً من كأس الحِمَام تشرب، ولهذه الأجساد المبنية أن تخرب، ولولا فراخ الحياة ما كانت فِخاخ الموت تُنْصَب.

ما لي بما بَعْد الرَّدَى مُخْبِرَهْ ... قد أَدْمَتِ الأنْفَ هذه البُرَهْ[1]

الليل والإصباح واليقظهْ ... والإبراد والمنزل وَالمَقْبرهْ

عِشنا وجَسْر الموت قُدّامَنا ... فشمِّروا الآن لكي نعبُرهْ

---

(١) (البُرَة): حَلْقة توضع في أنف البعير للتذليل، أو في أنف المرأة للزينة.

عِيسٌ تَبَارى بالفلا خُدْلُها[1] فجُدْ لها يا ربٌّ بالمغفرهْ
أَفْقَرَ بالمطعَم رُكَّابُها والقوم بالدَّوِيّة المُقْفِرهْ
كم جاوزوا من حِنْدِسٍ مُظلمٍ ليبلُغوا رحمته المسْفِرهْ

«التبصرة» (١/ ٢٦٧)

تذكَّر يا من جنى ركوب الجنازة

تذكَّر يا مَن جَنَى ركوب الجنازة، وتصوَّر يا مَن ما وفى طول المفازة، وَدَع الدنيا مُوَدِّعاً للحلاوة والمَزَازة، وارقُمْ من قلبك ذِكرَ الموت على جُزَازَة[2]، وخَلِّص نَفْسَك من غُلّ الغِلّ وحَزّ الحزازة[3]، وذكِّرْها يومَ تُمْسي في التراب مُنْحَازة.

«التبصرة» (١/ ٢٦٩)

﴿فَاعْتَبِرُوا يا أُولي الأَبْصَارِ﴾

كم من ظالم تعدّى وجار، فما راعى الأهل ولا الجار، بينا هو يَعْقِدُ عَقْدَ الإصرار حَلّ به الموتُ فحلَّ مِن حُلَّتِه الأزرار، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

---

(١) العيس: جمع، مفردها «أعيس»، وهو الذي يخالط بياضه شقرةٌ من الإبل. وهو الكريم منها. و(الخدل): العظام الممتلئة منها، مفردها: خدلاء.

(٢) الجزازة: القطعة.

(٣) (الحزازة): وجع في القلب من غيظ ونحوه. والمقصود هنا: ألم وهَمّ الغِل والحسد والعداوة التي في القلب.

ما صحبه سوى الكَفَن، إلى بيت البِلى والعفَن، لو رأيتَه وقد حلَّتْ به المِحَن، وشِينَ ذلك الوجه الحسن، فلا تسأل كيف صار، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

سال في اللَّحد صديدُه، وبَلِيَ في القبر جديدُه، وهجره نسيبُه ووَدِيدُه، وتفرَّق حشمُه وعبيدُه والأنصار، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

أين مجالسه العالية؟ أين عِيشته الصافية؟ أين لَذّاته الحالية[1]، كم كم تَسْفَى على قبره سَافِية! ذهبتِ العَيْنُ وأُخْفِيَتِ الآثار، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

تَقَطّعت به جميعُ الأسباب، وهَجَره القُرَناء والأتراب، وصار فراشه الجَنْدَلَ والتراب، وربما فُتِح له في اللّحد باب النار، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

خلا والله بما كان صَنَع، واحتوشه النّدم وما نَفَع، وتَمَنَّى الخلاصَ وهيهاتَ قد وَقَع، وخَلاَّه الخليلُ المُصَافي وانْقَطَع، واشتغل الأهلُ بما كان جَمَع، وتَمَلّك الضِدُّ المالَ والدار، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

نادمٌ بلا شَكٍّ ولا خَفَا، باكٍ على ما زلَّ وهفَا، يَوَدّ أنّ صافي اللذاتِ ما صَفَا، وعَلِم أنه كان يَبْني على شَفَا جُرُفٍ هَار، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

قارنه عملُه مِن ساعة الحَيْن، فهو يَتمنّى الفِرار وهيهاتَ أين؟ ويقول يا لَيْتَ بيني وبينك بُعْد المَشْرقين، فهو على فراش الوَحْدة وَحْدَه والعمل ثاني اثنين، ولكن لا في الغار، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

وهذه وإن كانت حالةَ مَنْ غدَا، فلكلٍّ منكم مثلُها غداً، فانتبهوا من

---

(١) الحالية: من الحُلِيّ، أو من الحلاوة. ويحتمل أنها: «الخالية».

رقادكم قبل الرّدى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]؟! إنما هي جنّة أو نار، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

«التبصرة» (١/ ٢٧٢-٢٧٣)

تأملوا عواقب الذنوب

إخواني، تأمّلوا عواقبَ الذنوب، تَفْنَى اللّذةُ وتَبْقى العيوب، احذروا المعاصي فبئس المطلوب، ما أقبحَ آثارها في الوجوه والقلوب.

يا بن آدم، فَرَحُ الخطيئة اليومَ قليل، وحزنها في غَدٍ طويل، ما دام المؤمن في نور التقوى فهو يبصر طريق الهدى، فإذا طَبَّق ظلامُ الهوى عدم النور.

«التبصرة» (١/ ٢٧٩)

يا سكران الهوى متى تصحو؟

يا سكرانَ الهوى متى تَصْحو؟ يا كثيرَ الذنوب متى تَمْحو؟ إلى كم تَهْفُو وتَغْفو؟ وتتكدر ونعم الله تَصْفو، ابْكِ لِمَا بك، وانْدُب في شَيْبتك على شبابك، وتأهَّب لسيف المَنون فقد عَلِق الشَّبَا[1] بك.

«التبصرة» (١/ ٢٨٠)

يا كثير الذنوب متى تُفْضي؟

يا كثير الذنوب متى تفضي؟ يا مقيماً وهو في المعنى يمضي، أفنيت الزمان في الهوى ضَياعا، وساكَنْت غُروراً من الأمل وأطماعا، وصِرت في

(١) الشَّبَا: مفردها: شَبَاة، وشَبَاة الشيء حد طرفه. والشَّبَاة: إبرة العقرب.

طلب الدنيا خبيراً صَنَاعا، تُصبح جامعاً وتمسي مَنّاعا، فتِّش على قلبك ولُبِّك فقد ضَاعَا، تفكّر في عمرك فقد ذهب نهباً مُشَاعا، اترك الهوى محموداً قبل أن يتركك مذموما، إن فاتتك قَصَبات السَّبق في الزهد فلا تفوتنك ساعات النّدم في التوبة.

«التبصرة» (١/ ٢٨١)

الأيام سفر ومراحل

إخواني، الأيام سفر ومراحل، وما يُحِسُّ بسيرها الراحل، حتى يَبْلغ البلدَ أو الساحل، فليبادر المُسْتدرك، وما أَظُنّه يُدرك، ما هذه الغفلة والفتور؟ أما المَآل إلى اللّحود والقبور؟ أما علمتم منتهى السرور؟ أما الأجداثُ المنازل إلى النشور؟ أيها الشّابّ ضَيَّعْتَ الشبابَ في جهلك، أيها الكهل بعض فِعْلِك يُهْلِك، أيها الشيخ آن الرحيل عن أهلك، أيها المغتر بالأمل قد نَقَضَتْ كَفُّ الأجل مَجْدُولَ حَبْلك، أيها الغافل أما أَنْذَرَكَ مَنْ كان مِن قبلك؟

مات الأبُ الأعلى وتابَعَه أبناؤه فَفَنُوا ونحن نَسَقْ
في الترب من أبنائنا رِمَمٌ كانوا لنا سَلَفاً ونحن لَحَقْ

«التبصرة» (١/ ٢٨٤)

نطقت العبر فأين سامعها؟

لقد نطقَتِ العِبَرُ فأين سامِعُها؟ واستنارتْ طريقُ الهدى فأين تابِعُها؟ وتَجَلَّت الحقائِقُ فأين مُطالِعُها؟ أمَا المنيةُ قد دَنَتْ واقتربَتْ؟ فما بال النفوس قد غَفَلَتْ ولَعِبَتْ؟ أأَمِنَ المفرِّط أن يؤخذ بكَظْمه ويُجَازَى من تفريطه على

أَعْظَمِه، ويأتيه الموت فيُذْهِلَه بعِظَمِه، ويفاجئَه بغتةً بشَتات مُنْتَظَمه؟ يا مَنْ على ما يضره قد اسْتَمَرّ، يا مَنْ أعلن المعاصي وأسَرّ، يا مؤثراً ما شَان وما ضَرّ، يا محباً ما قد قَتَل غيرَه وغَرّ، يا مَنْ إذا دُعِي إلى نفعه تولّى وفَرّ، أمَا تعتبر بمن رَحَل مِن القُرَناء ومَرّ؟ أمَا تَعْلَمُ أنّ مَنْ خالف الذنوب اسْتَضَرّ؟ أما تَعْلَمُ أنّ الموتَ إذا أتى حَمَل وكَرّ؟ كأني بك إذا بَرِق البَصَرُ تَطلب المَفَرّ، إلى متى تُؤْثر الفسادَ على السَّداد، وتُسْرِع في جواد الهوى أسرعَ من الجَواد؟ متى يَتَيَقَّظُ القلبُ ويَصْحو الفُؤاد؟ كيف بك إذا حُشِرْتَ فَخَسِرْتَ يَوْمَ المَعاد؟

أيسـرّك أن تكـون رفيـقَ قـومٍ ... لهـم زادٌ وأنـتَ بغيـر زادِ

«التبصرة» (١/ ٢٨٥)

أسمع قولاً بلا عمل

أسمع قولاً بلا عمل، وأرى خِلالاً خِلاَلَها الخَلل، إذا دُعِيتَ إلى الخير جاء الكسل، وقلت: لو شاء أن يوفقني فَعَل، وإذا لاحت المعاصي كَرَّ البطل، ويقول: «**خُلِقَ الإنسانُ من عَجَل**».

ويحك! هذا الشَّيْب قد نزل، يخبرك بقرب الأجل، خلت الديار وناح الطَّلَل، أيحتاج المهم إلى اعتدل؟ يا قبيح الخصال إلى كم زلل، ما لِكَبيرٍ في العَذْلِ لا ناقة ولا جَمَل.

عليك بما يُفيدُك في المعادِ ... وما تنجو به يوم التَّنَادِ
فما لَكَ ليس ينفعُ فيك وعظٌ ... ولا زَجْرٌ كأنك من جَمَادِ
ستندم إن رَحَلْتَ بغير زادٍ ... وتشقى إذْ يناديك المنادي
فلا تفرح بمالٍ تَقْتَنيه ... فإنك فيه معكوس المرادِ

وتب مما جنيت وأنت حيٌّ   وكن متنبهـاً مـن ذا الرّقـادِ

«التبصرة» (١/ ٢٨٥)

﴿أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾

أيها الضّال عن طريق الهدى، أمَا تسمع صوت الحادي وقد حدا؟! من لك إذا ظهر الجزاء وبَدَا؟! وربما كان فيه أن تشقى أبدا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

يا من تُكتب لحظاته، وتُجمع لفظاته، وتُعلم عزماته، وتُحسب عليه حركاته إن راح أو غدا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

ويحك! إن الرقيب حاضر، [يحفظ] عليك اللسان والناظر، وهو إلى جميع أفعالك ناظر، إنما الدنيا مراحل إلى المقابر، وسينقضي هذا المدى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

ما لي أراك في الذنوب تعجل؟! وإذا زُجِرْت عنها لا تَقبل؟! ويحك! انتبه لقبح ما تفعل، فإنّ الأيام في الآجال تعمل مثل عمل المُدَى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

سترحل عن دنياك فقيراً، لا تملك مما جمعت نقيراً، بلى قد صرت بالذنوب عقيراً، بعد أن ردّاك التلفُ رداءَ الرّدى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

كأنك بالموت قد قطع وبَتّ، وبَدّدَ الشّمْل المجتمع وأَشَتّ، وأثّر فيك النّدمُ حينئذ وفَتّ، انتبه لنفسك فقد أشْمَتّ والله العِدا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

كأنك ببساط العمر قد انطوى، وبعُود الصحة قد ذَوَى، وبسلْك الإمهال قد قُطِع فهوى، اسمع يا من قَتَله الهوى وما وَدَى[1]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

تالله ما تُقال وما تُعذر، فإن كنت عاقلاً فانتبه واحذر، كم وعظك أَخْذُ غيرك وكم أعذر؟! ومَنْ أنذر قبل مجيئه فما اعتدى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

فبادر نفسك واحذر قبل الفوت، وأصخ للزواجر فقد رَفَعَتِ الصوت، وتنبه فطال ما قد سهوت، واعلم قطعاً ويقيناً أن الموت لا يقبل الفِدا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

انهض إلى التقوى بقريحة، وابك الذنوب بعين قريحة، وأزعج للجدِّ أعضاءك المستريحة، تالله لئن لم تقبل هذه النصيحة لتندمن غدا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

«التبصرة» (١/ ٢٨٥-٢٨٦)

ألا متيقظ لما بين يديه؟

ألا متيقظ لما بين يديه؟ ألا متأهب للقادم عليه؟ ألا عامر للقبر قبل الوصول إليه؟ يا واقفاً مع هواه وأغراضه، يا معرضاً عن ذِكر عوارضه إلى أعراضه، يا غافلاً عن حكم الموت وقد بُتَّ بمقراضه، سيعرف خبره إذا اشتد أشدُّ أمراضه، وأورده حوضاً مريراً من أصعب حياضه، ونزل به ما يمنعه من اغتماضه، واستبدل بانبساط كَفِّه عن انقباضه، وأَخَذَتْ يَدُ التلف بعد إحكامه

(١) أي: وما أعطى الدِّية. وَدَى القاتلُ القتيلَ وَدْياً ودِيَةً ووَدْيَةً: أعطى وَلِيَّه دِيَتَه.

في انتقاضه، وأُخْرِج عن خُضْر الرُّبَى وروضه وغياضه، وأُلْقِيَ في لَحْدٍ وَعْرٍ يخلو برَضْرَاضِه[1]، وعلم أنه باع عمره بأرْدأ أعواضه.

«التبصرة» (١/ ٢٩٣)

يا من عمله بالنفاق مغشوش

يا من عمله بالنِّفاق مغشوش، تتزين للناس كما يُزَيَّن المنقوش، إنما يُنْظَر إلى الباطن لا إلى النُّقوش، إذا هممت بالمعاصي فاذكر يوم النعوش، وكيف تُحْمَل إلى قبر بالجَنْدل مفروش، من لك إذا جُمِع الإنس والجن والوحوش؟ وقام العاصي من قبره [وهو] حيران مدهوش، وجيء بالجبار العظيم وهو مغلول مَخْشوش[2]، فحينئذ يتضاءل المتكبر وتذل الرؤوس، ويومئذ يبصر الأكمه ويسمع الأطروش، ويُنصب الصراط فكم واقع وكم مخدوش، ليس بجادّةٍ يقطعها قِصْلٌ ولا مرعوش[3]، ولا تقبل في ذلك اليوم فدية ولا تؤخذ الأُروش[4]، والمتعوس حينئذ ليس بمنعوش، ويتقلب أهل النار في الأقذار والريح كالحُشوش[5]، لحافهم جَمْر وكذلك الفروش، ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

«التبصرة» (١/ ٢٩٧)

* * *

(١) الرضراض: الحصا.

(٢) المخشوش: المنقاد الذليل.

(٣) القِصْل: الفَسْل الضعيف الأحمق، والذي لا صبر له ولا جَلَد. والمرعوش: الرِّعْديد الجبان.

(٤) جمع أَرْش، والأرش: دية الجراحة، وما يسترد من ثمن المبيع إذا ظهر فيه عيب.

(٥) جمع حش: وهو الكنيف (المرحاض).

﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾

يا من أركان إخلاصه واهية، أما لك من عقلك ناهية؟ إلى متى نفسُك ساهية، مُعْجَبةٌ بالدنيا زاهية، مفاخرة للإخوان مضاهية؟ النار بين يديك وتكفي داهية، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝ نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [القارعة: ١٠و١١].

تقوم من قبرك ضعيف الجاش، وقد جأر قلبك في بدنك وجاش، ووابل الدمع يسبق الرَّشَاش، أتدري ما يلاقي العِطاش الظامئة؟ ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾.

أين من عتى وتجبَّر؟ أين من علا وتكبَّر؟ أين من لِلدُّول بالظلم دبَّر؟ ماذا أعدّ للحضرة السامية؟ ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾.

لو رأيت العاصي وقد شقي، يصيح في الموقف واقَلَقي، اشتد عطشه وما سُقي، وشرر النار إليه يرتقي، فمن يتقي تلك الرامية؟ ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾.

لو رأيته يقاسي حرَّها ويعاني ضرها، جحيمها وقرّها، والله لا يَدْفع اليوم شرَّها إلا عين هامية[1]، ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾.

يفر الولد من أبيه، والأخ من أخيه، وكلُّ قريب من ذويه، أسمعت يا من معاصيه نامية؟ ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾.

لهذا كان المتقون يقلقون، ويخافون ربهم ويشفقون، وكم جرَتْ من عيون القوم عيون! وكانت جفونهم دائمة دامية، من خوفهم من: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾.

أجارنا الله بكرمه منها، ووفقنا لما ينجّي منها، وجعلنا بفضله ممن قام بما يُؤمر واجتنب ما عنه يُنْهى، فكم له من نعم سامية! ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾.

«التبصرة» (١/ ٣٠٢)

---

(١) أي: باكية.

من أخطأته سهام المنية قَيّده عقال الهرم

إخواني، من أخطأته سهامُ المنية قيّده عِقَالُ الهَرم، إنّ لكل سَفَرٍ زاداً فتزوّدوا لسفركم التقوى، وكونوا كمن عاين ما أُعِدَّ له، ولا يَطُولنَّ عليكم الأمَدُ فتقسوَ قلوبُكم، والله ما بُسِط أَمَلُ مَنْ لا يدري: أيصبح إذا أمْسى أو يُمْسي إذا أصبح.

«التبصرة» (١/ ٣٠٨)

إن العبر قد وضحت

إخواني، إن العِبَر قد وضحت، وإن النُّذر قد نصحت، وإن المواعظ قد أفصحت، ولكن النفوس من سكرها ما صَحَت، أين الهمُّ المجتمع؟ تَفَرّق فما تنتفع، يَدعوك الهوى فتتبع، ويحدثك المُنى فتستمع، كم زجرك ناصح فلم تُطِع؟! وَصَلَ الصالحون يا مُنْقطع، أما الذي عاقك لَهْوٌ مُخْتَدِع! شرَوْا بما يَفْنى ما يَبْقى ولم تَشْرِ ولم تَبِع، أين تعبهم؟ نُسِخَ بالرَّوح ولم يَضِعْ، كأنه ما شَبِع مَنْ جاع ولا جاع مَنْ شبع، أين الهمم المُجِدَّة؟ أين النفوس المستعدّة؟ أين المتأهب قبل الشّدة؟ أين المتيقظ قبل انقضاء المدّة؟ عاتب نفسك على قبح الشِّيَم، وحَذِّرها من مُثْمِرات الحزن والندم، وامنعها تخليطَها فقد طال السَّقَم، وذكِّرها لحاقَها بمَنْ قد سَبَق من الأُمم، واحضر معها باب الفِكْر فإنه نِعْم الحَكَم، ونادها في الخلوات إلى كم مع السُّبَات وكم؟!

«التبصرة» (١/ ٣٠٨)

* * *

يا مدمن الذنوب

يا مُدْمن الذنوب مذ كان غلاماً، علام عوّلت قل لي على ما، أتأمن ما أتى من أتى حراماً، أما ترى ما حل بهم من الذنوب إليك قد ترامى، آهٍ لجفن علم ما سيَلْقى كيف يلقى مناماً، أين أرباب الأسمار والنَّدامى، كلٌّ قوم في قبورهم ندامى، قل لي من اتخذت في أمورك إماماً، أما ما جرى على العصاة يكفي إماماً[1]، إلى كم تضيع حديثاً طويلاً وكلاماً، ما أرى داءك إلا داء عقاماً، أما تؤثّر نيران تخويفك؟ صارت برداً وسلاماً.

فذكِّر النفوس هولاً أنت راكبه   وكُرْبةً سوف تلقى بعدها كُرَبَا

إذا أتيت المعاصي فاخش غايتَها   من يزرع الشوك لا يجني به عِنَبَا

«التبصرة» (١/ ٣١٢)

إلى متى أعمالك كلها قِباح؟

إلى متى أعمالك كلها قِبَاح؟ أين الجِدُّ إلى كم مزاح؟ كثر الفساد فأين الصلاح؟ ستفارق الأجسادُ الأرواح، إمّا في غُدُوٍّ وإمّا في رَوَاح، سينقضي هذا المساء والصباح، وسيخلو البِلى بالوجوه الصِّباح، أفي هذا شك أم الأمر مُزَاح؟! أين سكران الرّاح[2] رَاح؟ حَلَّ للبلى والدُّودُ مُباح، لهما اغتباق به ثم اصطباح[3]، عليه نطاقٌ من التراب ووِشاح، عنوانه لا يزول مفهومه لا بَراح، أتاه منكر ونكير كذا في الأحاديث الصحاح، فمَنْ لمحتج مرعوبٍ ومقاتلٍ بلا

---

(١) أي: مثالاً.

(٢) الراح: الخمر.

(٣) يعني: أن البِلى والدّود يتناوبانه بالعشي والإبكار.

سلاح؟ مشغولٍ عن مَنْ مدح أو ذمَّ أو بكى أو ناح، لو قيل له تَمَنَّ كان العَوْد الاقتراح، وأنّي وهل يطير مقصوص الجناح؟!

«التبصرة» (١/ ٣١٢)

العاقل من راقب العواقب

العاقل مَن راقب العواقب، والجاهل مَن مضى قُدُماً ولم يُراقِب، أين لذة الهوى زالت؟ وكأنها لم تكن إذ حالت، أين الذين بَرَوْا أقلام المُنَى وقَطُّوا، وكتبوا صِكاك الآمال وخَطُّوا، وتحكموا في بلوغ الأغراض واشتطّوا، وانفردوا بما جمعوا فخزنوا ولم يُعطوا؟ عَلَوْا على عالٍ وما أسرع ما انحطّوا، وسارت بهم مطايا الرحيل تُخْذي بهم وتَمْطُو[1].

فكم من صحيح بات للموت آمناً ... أتته المنايا بغتةً بعدما هَجَعْ

فلم يستطع إذ جاءه الموتُ فجأةً ... فِراراً ولا منه بقُوّته امتنَعْ

فأصبح تَبْكيه النساءُ مُقنَّعاً ... ولا يَسْمع الداعي وإنْ صوتَه رفَعْ

وقُرِّب من لَحدٍ فصار مقيلَهُ ... وفارق ما قد كان بالأمس قد جَمَعْ

«التبصرة» (١/ ٣١٩-٣٢٠)

يا حريصاً على الدنيا

يا حريصاً على الدنيا مضى عمرك في غير شيء، انقشع غيْمُ الزمان لا عن هِلَال الهُدى، ما لَذَّتْ لذةُ الدنيا إلا لكافر لا يؤمن بالآخرة، أو لقليل

---

(١) أي: مرة تسير بضعف واسترخاء ومرة تَجِدّ في السير.

العقل لا ينظر في عاقبة، الدنيا خراب وأخرب منها قلب مَنْ يَعْمُرها، إلى أيِّ حين مع الصِّبا، أما يكفي ما قد مضى؟ إلى كم هذا الكرى، أين التيقظ لحلول الثرى؟ كم قد قتل قبلك المنى! وإنما يفهم أولو النُّهى، يا أسير رُقاده، يا مريض فساده، يا معرضاً عن رشاده، يا من حُبّ الدنيا في سواد سواده، ما ينفعه النصح على كثرة تَرْداده، سواءٌ عليه ناداه أم لم يناده، تالله لقد غمزتك الحوادث بسلب القرناء غَمْزا، ولزَّكَ المتقاضي بالأجل لو فهمت لَزّا، أما في كل يوم بمحبوب تُعزَّى؟ أين من أوعد ووعد؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]؟

«التبصرة» (١/ ٣٢٠)

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ﴾

زيَّن السماءَ بالنجوم تزيين النَّقْش، وجَمَع الثُّرَيّا وفرَّق بنات نَعْش[١]، ومدَّ الأرض كتمهيد الفَرْش، وأنزل القَطْر بين الوَبْل والطّشّ[٢]، وحمل الآدمي على الفرش والنَّعْش، بينا هو يلهو جاء أمرٌ زاد على الحَرْش[٣]، وضجَّ لمرضه وما يصبر على الخدْش، ثم يقيمه للقيامة بالبَعْثرة والنَّبش، سبحانه من عظيم شديد البطش، ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥].

«التبصرة» (١/ ٣٢١)

---

(١) (بنات نعش): سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي، شُبِّهَتْ بحملة النعش. «وسيط».

(٢) (الوبْل): المطر الشديد. و(الطّشّ): المطر الضعيف.

(٣) حَرْش الضَّبّ: صيده، وهو أن يُحَكَّ الجُحْر الذي هو فيه يُتَحَرَّشُ به، فإذا أحَسَّه الضَّبُّ حسبه ثعباناً، فأخرج إليه ذنبه فيُصاد حينئذ. ومن أمثالهم: هذا أجلّ من الحَرْش، وراجع أصل ذلك ومعناه في «اللسان».

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾

لو رأيت الظَّلَمة قد ذَلُّوا بعد الارتفاع، وصاروا تحت الأقدام وكانوا يَفاع[1]، وبكوا ولا ينفعهم على وفاق الطِّباع، وكيل لهم الجزاء عدلاً بأوفر صاع، وعلموا أن الأعمار مرَّت بالغرور والخداع، وأن مُلْكاً كانوا فيه بئس المتاع، ودّوا لو أن لقاء الدنيا كان لهم الوداع، مرضوا بالحسرات والحسرات أشدّ الأوجاع، وندم مَنْ مدَّ الباع فاشترى ما يَفْنى وباع، لا يُنظر إليهم يوم القيامة كأنهم رديء المتاع، ظهر ذُلّهم بين الخلائق كلِّهم وشاع، ورأوا من الأهوال ما أزعجهم وراع، حُشِر الخلائق كلهم يومئذ في قاع، وطارت الصحف والرِّقاع في تلك البقاع، وقُرِّبت الأعمال ونودي: سَماع سَماع، ونفعت الشفاعة للمؤمنين وما للفجار انتفاع، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

«التبصرة» (١/ ٣٢٣-٣٢٤)

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

يا من عليه منازل الموت تدور، وهو مستأنس بالمنازل والدور، لا بد أن تخرج من القصور على التواني والقصور، لا بد من الرحيل إلى بلاد القبور على الغفلات وعلى الفتور، أهلكك والله الغرور بفنون الخداع والغرور، يا مظلم القلب وما للقلب نور، الباطن خراب والظاهر معمور، لو ذكرت القبر المحفور كانت عين العين تفور، لو تفكرت في الكتاب المسطور دفنت الاستغفار بين السطور، ولو تصورت النفخ في الصور والسماء تتغير وتمور،

---

(١) أي: عالين مرتفعين. يَفَع الشيء: علا وارتفع.

والنجوم تنكدر وتغور، والصراط ممدود ولا بد من عبور، وأنت متحير في الأمور تبكي على خلاف المأمور، ستحاسب على الأيام والشهور، وترى ما فعلته من فجور في النهار والدَّيْجور، ستحزن بعد السرور على تلك الشرور إذا وُفِّيت الأجور، وبان المواصل من المهجور، ونجا المخلصون دون أهل الزور، تصلي ولكن بلا حضور، وتصوم والصوم بالغيبة مغمور، ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

«التبصرة» (١/ ٣٢٥)

حاسبوا أنفسكم قبل الحساب

إخواني، حاسبوا أنفسكم قبل الحساب، وأعدّوا للسؤال صحيح الجواب، واحفظوا بالتقوى هذه الأيام، واغسلوا عن الأجرام هذه الأجرام[1]، قبل ندم النفوس في حين سياقها، قبل طمس شمس الحياة بعد إشراقها، قبل ذوق كأسٍ مُرَّة في مذاقها، قبل أن تدور السلامة في أفلاك محاقها، قبل أن تُجْذب النفوس إلى القبور بأطواقها، وتفترش في اللحود أخلاق أخلاقها، وتنفصل المفاصل بعد حسن اتساقها، وتشتد شدائد الحسرة حاسرة عن ساقها، وتظهر مخبآت الدموع بسرعة اندفاقها، وتتقلب القلوب في ضنك ضيق خناقها، ويطول جوع من كان في الدنيا فاكها[2]، وتبكي النفوس في أسرها على زمان إطلاقها.

«التبصرة» (١/ ٣٣١)

---

(١) الأولى جمع جِرْم: وهو الجسد، والثانية جمع جُرْم: وهو الذنب.

(٢) المراد بالفاكه هنا: الناعم العيش مع اللهو والغفلة، والله أعلم.

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾

أين الذين كانوا في اللذات يتقلبون، ويتجبّرون على الخلق ولا يُغلبون؟ مُزِجَتْ لهم كؤوس المنايا فباتوا يتجرّعون، ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٧].

مَدُّوا أيديهم إلى الحرام، وأكثروا من الزلل والآثام، وكم وُعِظوا بمنثورٍ ومنظومٍ من الكلام، لو أنهم يسمعون! ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾.

حُمِل كلٌّ منهم في كَفَن، إلى بيت البلى والعَفَن، وما صحبهم غيره من الوطن، من كل ما كانوا يَجْمعون، ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾.

ضَمَّهم والله التراب، وَسُدَّ عليهم في ثراهم الباب، وتقطعت بهم الأسباب، والأحباب يرجعون، ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾.

شُغِلوا عن الأهل والأولاد، وافتقروا إلى يسيرٍ من الزاد، وباتوا من الندم على أَخَسّ مهاد، وإنما هذا من حصاد ما كانوا يزرعون، ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾.

أين الجنود والخدم؟ أين الحُرَم والحَرَم[1] ؟ أين النِّعم والنَّعَم؟ بعد ما كانوا يربعون فيما يرتعون، ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾.

لو رأيتهم في حُلَل الندامة، إذا برزوا يوم القيامة، وعليهم للعقاب علامة، يُساقون بالذل لا بالكرامة، إلى النار فهم يوزعون، ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾.

---

(١) الأولى: جمع حُرْمة وهي المرأة، ولعل الثانية: ما يُمْتَنَع به ويُحتمى، ومنه حرم مكة.

يا معشر العاصين، قد بقي القليل، والأيام تنادي: قد دنا الرحيل، وقد صاح بكم إلى الهدى الدليل، إن كنتم تسمعون، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾.

«التبصرة» (١/ ٣٣٧-٣٣٨)

جبلت القلوب على حب من أحسن إليها

يا هذا، جُبِلت القلوبُ على حبِّ مَنْ أحسن إليها، فوا عجبا ممن لم ير مُحْسِناً سوى الله عز وجل كيف لا يميل بكليته إليه! يا مُنْعَماً عليه بالعافية بئس ما أنفقت فيه رأسَ المال، كم ذنبٍ لك فعله غيرُك فَهُتِك ذاك وسُتِرْت.

ويحك! احذر نَفَار النِّعم فما كل شارد بمردود، إذا وَصَلَتْ إليك أطرافها فلا تنفِّر أقصاها بقلة الشكر.

لــك نَفْـــسٌ يَسُـــرُّهــا ... كــلُّ شـــيء يَضُـــرُّهــا

هـــي تفنـى علـى الـزمـا ... ن ويـــزداد شَـــرُّهــا

«التبصرة» (١/ ٣٤٥)

ما من الموت بد

إخواني، ما من الموت بدّ، باب البقاء في الدنيا قد سُدّ، كم قَدٍّ في القبر قد قُدّ، كم خَدٍّ في الأُخدود قد خُدّ، يا مَنْ ذنوبه لا تُحصى إن شككت عُدّ، يا مَنْ أتى باب الإنابة كاذباً فُرُدّ.

يا شدّة الوجل عند حضور الأجَل، يا قلة الحِيَل إذا حَلّ الموتُ ونَزَل، يا

قوة الأَسَى إذا نوقش من أسا[1].

يا خَجَلَ العاصين، يا حَسْرةَ المُفَرِّطين، يا أَسَفَ المُقَصِّرين، يا سوءَ مصيرِ الظالمين.

كيف يَصنع مَنْ بضائعه القبائح؟ كيف يفعل مَنْ شهوده الجوارح؟

عُدِموا والله الوسيلة، وأُظْلِمَتْ في وجوههم وجوهُ الحِيلة، أصبحوا جِثِيّاً على رُكَبِهم، مأسورين بما في كُتُبهم، لا يَدْرُون ما يُراد بهم.

قد جُمِعوا في صَعيد، ينتظرون حلول الوعيد، والأرض بالخلق كلهم تميد، والعَبَراتُ على العَثَرات تزيد، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

زَفَرَتْ والله الحُطَمَةُ[2] في وجوه الظَّلَمة، فذلوا بعد العَظَمة، وخَرِسوا عن كلمة.

«التبصرة» (١/ ٣٤٧)

كم ليلة سهرتها في الذنوب؟!

كم ليلةٍ سهرتَها في الذنوب! كم خطيئة أَمْلَيْتَها في المكتوب! كم صلاةٍ تركتَها مُهملاً للوجوب! كم أسبلتَ ستراً على عتبة عيوب! يا أعمى القلب بين القلوب، ستدري دمع مَنْ يجري ويذوب، ستعرف خَبَرَكَ عند الحساب والمحسوب، أين الفرار وفي كَفّ الطالب المطلوب! تنبه للخلاص أيها المسكين، أعتق نفسك من الرِّقّ يا رهين، اقلَع أصل الهوى فعِرق الهوى

---

(١) يعني: أساء.

(٢) أي: جهنم، سُمِّيت بذلك لأنها يحطم بعضها بعضاً، ولأنها تحطم كل شيء؛ أي: تكسره وتدقه.

مَكين، احذرِ غرور الدنيا فما للدنيا يمين، يا دائم المعاصي سِجْن الغفلة سِجِّين، تثب على الخطايا ولا وثبة تِنِّين، كأنك بالموت قد برز من كَمِين، وآن الأمر فوقعت في الأنين، واستبَنْتَ أنك في أحوال عِنِّين[1]، كيف ترى حالك إذا عبثت الشمال باليمين، ثم نُقِلتَ ولُقِّبتَ بالميت الدفين؟! وا أسفا لعِظم حيرتك ساعة التلقين! يا مستوراً على الذنوب غداً تتجلى وتبين، متى هذا القلب القاسي يرعوي ويلين؟! عجباً لقسوته وهو مخلوق من طين!

وقبلَ شُخوصِ المرءِ يَجْمع زادَه   وتُمْلأ من قَبْل الرِّماء الكَنائنُ

حَصادك يوماً ما زرعتَ وإنما   يُدَان المرء يوماً بما هو دائنُ

ساعات السلامة بين يديك مبذولة، سابق سيوف الآفات فإنها مَسْلولة، وبادر ما دامت المعاذير مَقْبولة، واقرأ علومَ النجاة فهي منقوطة مشكولة، وافتح عينيك فإلى كم بالنوم مكحولة! وغَيِّر قبائحك القباحَ المرذولة، يا لها نصيحة غير أن النفس على الخلائق مجبولة!

«التبصرة» (١/ ٣٤٩-٣٥٠)

﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾

ويح العصاة لقد عَجِلوا! لو تأملوا العواقب ما فعلوا، أين ما شربوا؟! أين ما أكلوا؟! بماذا يجيبون إذا أُحْضِروا وسُئلوا، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾ [النور: ٦٤، والمجادلة: ٦].

آهِ لهم في أي حَزْن[2] من الحُزْن نَزَلوا، لقد جدَّ بهم الوعظ غير أنهم

---

(١) العِنِّين: العاجز عن إتيان النساء لمرض يصيبه، والمراد هنا: أنه عَنّان عن الخير؛ أي: بطيء عنه.

(٢) الحَزْن: الخشن الغليظ الصعب.

هَزَلوا، ما نفعهم ما اقتنَوْا من الدنيا وعَزَلوا، إنما كانت ولاية الحياة يسيراً ثم عُزِلوا، وانفردوا في زاوية الأسى واعتزلوا، فإذا شاهدوا ذنوبهم مكتوبة ذُهِلوا، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾.

ما نفعتهم لَذّاتهم إذا خرجت ذواتُهم، لقد جُمِعت زلاتُهم فَحَوَتْها مكتوباتُهم، فلما عاينوا أفعالَهم خَجِلوا، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾.

ذهبتْ من أفواههم الحلاوة، وبقيت آثارُ الشقاوة، وحُطُّوا إلى الحضيض من أعلى رُباوة[1]، وحَمَلوا عِدْلي الموتِ والفوتِ والحسرةُ عِلاوة[2]، فأعجزهم والله ما حَمَلوا، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾.

«التبصرة» (١/ ٣٥٠)

﴿أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ﴾

اجتمعت كَلِمةٌ إلى نَظْرة، إلى خاطرٍ قبيح وفِكْرة، في كتابٍ يُحْصي حتى الذَّرَّة، والعصاة عن المعاصي في سكرة، فجَنَوْا مِنْ جَنَى ما جَنَوْا[3] ثمار ما غرسوه، ﴿ أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة: ٦].

وكم تنعَّم بمال المظلوم الظالم، وبات لا يُبالي بالمظَالم، والمسلوبُ يَبْكي ويُبْكي الحمائم، وما كفاهم أخذُ ماله حتى حبسوه، ﴿ أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾.

أين ما كانوا جمعوه؟! كم لِيمُوا وما سمعوه! كم قيل لهم لو قَبِلوه! ذهب

---

(١) الرُّباوة: الرابية، وهي ما ارتفع من الأرض.

(٢) العِدل هنا: نصف الحِمْل يكون على أحد جَنْبَي البعير، فالمعنى: أن العِدْلَين اللذين حملوهما: الموت وآلامه وفوات الدنيا وشهواتهم فيها، وفوق هذا وعِلاوة عليه الحسرة والندامة.

(٣) (جنوا): الأولى من جني الثمار، والثانية من جني الآثام.

العَرَضُ [1] غير أن العِرْض [2] دنّسوه، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾.

كم كاسبٍ للمال من حرامه وحلاله، كان يحاسب شريكه على عُود خِلَاله [3]، ولا يُنْفق شيئاً منه في تقويم خِلاله [4]، فلما وقع صريعاً بين أشباله اشتغلوا عنه بانتهاب ماله، ثم في اللّحد نكّسوه، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾.

«التبصرة» (١/ ٣٥١)

يا نادماً على الذنوب أين أثر ندمك؟!

يا نادماً على الذنوب، أين أثر ندمك؟! أين بكاؤك على زلة قدمك؟! أين حَذرك من أليم العقاب؟! أين قلقك من خوف العتاب؟! أتعتقد أن التوبة قول باللسان؟! إنما التوبة نار تَحْرق الإنسان [5]، جَرِّد قلبك من الأقذار، ثم ألبسه الاعتذار، ثم حَلِّه حُلَّة الانكسار، ثم أقِمْه على باب الدار.

لَهِجَ بعض العُبّاد بالبكاء، فعوتب على كثرته، فقال:

بكيت على الذنوب لِعِظَمِ جُرْمي ... وحُقّ لكل مَنْ يَعْصِي البكاءُ

فلو أن البكاءَ يردّ هَمِّي ... لأسْعَدَتِ الدموعَ معاً دماءُ

«التبصرة» (١/ ٣٦٢)

* * *

---

(١) أي: متاع الدنيا.

(٢) أي: الحَسَب والشرف.

(٣) أي: العود الذي يُتَخَلّل به؛ أي: يُخْرج به ما بين الأسنان من الطعام.

(٤) جمع خَلَّة، وهي الخَصْلة.

(٥) أي: تحرق تعلقه بالشهوات المحرمة وتدفعه إلى التخلص منها؛ لِمَا أحدثتْه في قلبه من وجيع الندم وأليم الحسرة على التفريط.

ابك على كثرة الذنوب أو على قلة الشكر

يا هذا، اكتب قصة الرجوع بقلم النزوع بمداد الدموع، واسْعَ بها على قدم الخضوع إلى باب الخشوع، وسَلْ رَفْعها فربَّ سؤال مسموع، كم هُتِك سِتْرُ مَنْ فَعَل خطيئةً قد فَعَلْتَها وسُتِرْتَ، فابك على كثرة الذنب أو على قلة الشكر.

لئن جل ذَنْبي وارتكبت المآثما ... وأصبحت في بحر الخطيئة عائما

أُجَرِّرُ ذيلي في مُتابعة الهوى ... لأقضي أوطار البطالة هائما

فها أنا ذا يا ربِّ أقررتُ بالذي ... جنيت على نفسي وأصبحت نادما

أَجَلُّ ذنوبي عند عفوك سيدي ... حقيرٌ وإن كانت ذنوبي عظائما

«التبصرة» (١/ ٣٦٢-٣٦٣)

مُنَاجاتك مَنْجاتك

يا هذا، مُناجاتُك مَنْجاتُك، وصَلاتك صِلاَتك، نادِ في نادي الأسحار والناس نائمون: يا أكرم من أمَّلَه الآملون، إن طردتني فإلى من أذهب؟! وإن أبعدتني فإليك أُنْسب، علمتَ ذنبي وخلقتني، ورأيت زَلَلي ورزقتني.

«التبصرة» (١/ ٣٦٣)

آهٍ لنفس لا تعقل أمرها ثم قد جهلت قَدْرها

آهٍ لنفسٍ لا تعقل أمرها، ثم قد جهلت قَدْرها، تُضَيِّع في المعاصي عمرَها، وتخوض من الذنوب غَمْرها، إلى متى تعصي وكم تتمرد؟! وأقبح

من قبيحك أنك تتعمد، يا رديء العزم يا سَيِّء المقصد، يا نقي الثوب والقلبُ أسود، ما هذا الأمل ولست بمخلَّد؟! أما تخاف مَنْ أوعدك وهَدَّد؟! يا مستوراً على القبيح أتقرّ أم تجحد؟! يا من شاب وما تاب هذا الدأب مذ أنت أمرد، يا مشتريا لذةً تزول بالعذاب السَّرْمَد، يا مَرْمِيّاً في جُبِّ الهوى هذا الحبل وما تَصْعَد، بالله عليك تأمل نُصحي وتفقَّد، أما الطريق طويلة فاقبل مني وتزوّد، تخلّص من أَسْر الهوى فإلى كم مُقيّد؟! ميّز ما يبقى بما يفنى ثم اطلب الأجْوَد، ما أرى قولي يؤثّر فيك ولو دُرِس مُجَلَّد، أظرف من فعلك قلةُ فهمك وأنت تتبغْدَد، أسفاً لأيام مضت في الذنوب وتولَّت، تَحَكَّمَتْ فيها النفسُ فأفسدتها إذ تولت، وعلى ليالٍ كَسَتِ الصحائفَ لونَها فَوَكَسَتْ وأَذَلَّت، وعلى ساعاتٍ في طِلاَب الهوى هَوَتْ واضمحلت.

آهٍ لشيب كان الشباب منه أصلح، ولذي عيب ما قَرَمه[1] العتاب ولا أَصْلح، ولمفرّط يخسر كل يوم ولا يربح، ولمتخبط في ظلام الظلم والصباح قد أصبح.

«التبصرة» (١/ ٣٦٤)

يا ويح عزيمة نُقِضت بالهوى عهودها

يا ويح عزيمة نُقِضَتْ بالهوى عهودُها، ترقَّت في درجات العُلا ثم انعكس صُعودها، بينما ثمرها الجِد يَبِس عودُها، لقد سَوّدت الصحائف في طلب ما لا تُصادِف، متى تذكر المتالف؟! إلى كم وكم تخالف؟! كم طوى الدهر من طوائف! إنما يَسْلم في الشدة من هو في الرجاء خائف، إلى متى تضيع الوقت الشريف، وتعرض عن الإنذار والتخويف، وتبيع أفضل الأشياء

(١) قَرَمَه: عضه وآلمه.

بقَدْر طفيف، وتؤثر الفاني على الباقي وهذا الرأي السخيف؟! أين لذة فرحك بعد تَرحك؟! وأين سرور مَرَحك في مجترحك؟! إنما العمر أيام معدودة، والسلامة عَوَارٍ مردودة.

وأي هوى أو أي لهو أصبته ... على لذة إلا وأنت مُفارِقُهْ

وتُرْخي على السُّوء الستورَ وإنما ... تُقلَّب في علم الإله خلائِقُهْ

ألا أيها الباكي على الميت بعده ... رويدك لا تَعْجلْ فإنك لاحِقُهْ

وما هذه الساعات إلا على الفتى ... تغافصه[1] طوراً وطوراً تُسَارِقُهْ

أرى صاحب الدنيا مقيماً بجهله ... على ثقةٍ من صاحب لا يُواثِقُهْ

«التبصرة» (١/ ٣٧٣)

لقد ربح القوم وأنت نائم

لقد ربح القومُ وأنت نائم، وخِبْت ورجعوا بالغنائم، أنت بالليل راقد وبالنهار هائم، وغاية ما تشتهي مشاركة البهائم.

نظروا في عواقب الأمور فقبروا أنفسهم قبل القبور، وخرجوا من ظلام الشبهة إلى أجْلى نور، فما استفزهم فانٍ ولا أذلّهم غرور.

عَرضوا على النفس ذكر العرْضِ فاعترضها القلق، وصَوَّروا إحراق الصُّوَر فأحرقهم الفَرَق، وتفكروا في نَشْر الصحائف فأزعجهم الأرَق.

أطار خوف النار خوفَهم، وأطال ذكر العطش الأكبر صومَهم، وهوّن فكرهم في العتاب نَصَبهم، ونَصَبهم على الأقدام ذِكْرُ القيام وأنْصبهم.

---

(١) أي: تأخذه على غِرّة.

أمّا الأجساد فالخوف قد أنحلها، وأمّا العقول فالحذر قد أذهلها، وأما القلوب فالفِكْر قد أشغلها، وأما الدموع فالإشفاق قد أرسلها، وأما الأكُفّ فقد كَفَّت عما ليس لها.

«التبصرة» (١/ ٣٧٥)

يا غائب القلب في صلاته

يا غائب القلب في صلاته، يا شتيت الهم في جِهاته، يا مشغولاً بآفاته عن ذكرِ وفاته، يا قليل الزاد مع قُرْب مماته.

يا من يرحل عن الدنيا في كل لحظة مَرْحَلة، وكتابه قد حوى حتى مقدار خَرْدَلة، وما ينتفع بنذير والنُّذُر متصلة، وما يرعوي لنصيح وكم قد عذَله، ودروعه متخرقة والسهام مُرْسَلة، ونور الهدى قد يُرى وما رآه ولا تأمَّله، وهو يأمل البقاء وقد رأى مصير مَنْ أَمَّلَه، وأجَلُه قد دنا ولكن أملَه قد شغَلَه، وقد انعكف على العَيْب بعد الشَّيْب بصبابةٍ وَوَلَه، ويُحْضِر بدنَه في الصلاة فأما القلب فقد أهمله، كُنْ كيف شئتَ فبين يديك الحساب والزلزلة، ونَعِّم جسدك فلا بد للدود أن يأكله، يا عجبا من فتورِ مؤمنٍ بالجزاء والمسألة! أيقين بالنجاة أم غرور وبَلَه؟! بادر ما بقي من العمر واستدرك أوّله، فبقية عمر المؤمن لا قيمة له.

«التبصرة» (١/ ٣٧٨)

* * *

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ اَجَلُهَا﴾

وا عجبا لنفسٍ الموتُ مَوْئلها، والقبر مَنْزلها، واللحد مُدْخَلها، ثم يَسُوء عملها! ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾ [المنافقون: ١١].

كم قاطعٍ زمانَه بالتسويف، بائعٍ دينَه بالحَبّة والرغيف، مُشترٍ للويل بتطفيف الطَّفيف، يتمنى العَوْد إذا رأتَ نفسُه ما يُذْهلها، ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾.

كم مشغولٍ بالقصور يَعْمُرُها، لا يفكر في القبور ولا يَذْكُرُها، يبيت الليالي في فكر الدنيا ويَسْهَرُها، يَجمع الأموال إلى الأموال يُثْمِرُها، وقع في أشراك المنايا وهو لا يُبْصِرُها! أفٍّ لدنيا هذا آخرها، وآهٍ لأخرى هذا أولها، ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾.

إذا مَلَكَ شمسَ الحياة المغيب، قام عن المريض الطبيب، فأخذ النفس من باطنها التوبيخ والتأنيب، فلو رأيتها تُسْأل عما بها ولا تُجيب مَنْ يَسْأَلُها، ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾.

آهٍ لساعاتٍ شديدة الكُرُبات، فيها غَمَرَات ليست بنوم ولا سُبَات، تتقطع فيها الأفئدة باللوم على الفوات، وتبكي عين الأسف لما مضى من هَفَوات، والمريض ملقَىً على فراش الحُرقات، فآهٍ ثم آهٍ من جبال حسراتٍ يَحْمِلُها، ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾.

لقد صاح بك الصائح بأخذ غادٍ وسَلب رائح، يكفي ما مضى من قبائح، فاقبل اليوم هذه النصائح، فإن المسكين مَنْ يُهْمِلُها، ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾.

«التبصرة» (١/ ٤١٢-٤١٣)

يا مقيماً قد حان سفره

يا مقيماً قد حان سفره، يا مَنْ عساكرُ الموتى تنتظره، سيَعْزل الصحةَ السَّقَم، وسيغلب الوجودَ العدم، الساعات مراحل، والموت ساحل، البِدار قبل فواته، اجمع الزاد قبل شتاته.

إذا كنْتُ أعلَم علماً يقيناً — بأن جميع حياتي كساعَهْ
فلم لا أكون ضنيناً بها — وأجعلها في صلاحٍ وطاعَهْ

كم أخلى الموت داراً! كم ترك المعمورَ قِفَاراً! كم أوقد من الأسف ناراً! كم أذاق الغُصَصَ المرةَ مِراراً! لقد جال يميناً ويساراً، فما حابى فَقْراً ولا يساراً، أين الجيش العَرَمْرَم[1]؟ أين الكبير المُعظَّم؟ إن الزمان يَقْدَح في يَلَمْلَم[2]، أَلْحَقَ أخيراً بمَنْ تَقَدَّم، وبنى يسيراً ثم هَدَّم، بَيْنَا يُرى بَحْر الأمل لمَنْ تيَمَّم، أتاه فرآه سراباً فتَيَمَّم[3].

أين الذين على عهد الثرى وَطِئوا — وحُكِّموا في لذيذ العيش فاحتكموا
وملكوا الأرض من سهلٍ إلى جبلٍ — وخُوِّلوا نِعَماً ما مثلها نِعَمُ
لم يبقَ منهم على ضَنٍّ القلوب بهم — إلا رسومُ قبورٍ حَشْوُها رِمَمُ

«التبصرة» (١/ ٤٢٥)

* * *

---

(١) أي: الكثير.

(٢) يلملم: جبل، هو ميقات أهل اليمن للإحرام بالحج. ولعل المعنى: أن الزمان يضرب ويطعن في الجبل، فكيف بكبراء بني آدم.

(٣) الأولى بمعنى: قصد، والثانية بمعنى: مسح وجهه ويديه بالتراب، من التيمم للصلاة.

كأنكم بالأمور الفظيعة قد حلَّت

كأنكم بالأمور الفظيعة قد حلَّت، وبالدنيا التي تولّت[١] قد تولت[٢]، وبالنفس العزيزة عند الموت قد ذلت، ويحاً كم أخطأت وكم قد زلّت! متى يقال لهذه الغَمْرَة التي قد جلَّت[٣] قد تجلَّت[٤]؟! عجباً لنفسٍ كلما عقدنا نفعها حَلّت!

أوجـز الدهـر في العظات إلى	أن جعل الصَّمْتَ غاية الإيجازِ
منطـق ليس بالنَّثِير ولا الشِّعـ	ـــر ولا فـي طـرائـق الـرُّجَّـازِ
وعَــدَتْنـا الأيـام كـلَّ عجيـبٍ	وتكــون الــوعــود بــالإنجــازِ
والليـالي هــوازىءٌ راجعـــاتٌ	فـي أبـي جـادِهـا وفـي هَـوَّازِ
أوعز الدهر بالفناء إلى النا	س فــواهــاً لـذلـك الإيعــازِ
أعـرِضـوا عـن مـدائـحٍ وتهــانٍ	فالمراثي أولى بكم والتعازي

«التبصرة» (١/ ٤٢٦-٤٢٧)

﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾

عَزّت الدار وجلَّ المَرَام[٥]، ونال ساكنها فوق المَرَام[٦]، فيا مشغولاً

---

(١) أي: كان لها الولاية والسلطان عليك.

(٢) أي: ذهبت.

(٣) أي: عَظُمَتْ.

(٤) أي: تكشفت.

(٥) أي: الطلب.

(٦) أي: فوق ما يطلب.

عنها بأضغاث أحلام، وصل كتابُ الملك العلاّم، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

دار الإعزاز والإكرام، بُنِيت لقوم كرام، لا غُرْم فيها ولا غَرام، ما يسكنها من يُضام، ثمنها يا مشتري بيِّن: صلاةٌ وصيام، نعيمها في دوام، لذاتها في تمام، والحور في القصور والخيام، شهواتها لم تخطر على الأوهام، انتبهوا لطلبها يا نيام.

قد جمعتْ كلَّ مشتهى، وزادت على كل الغرض المنتهى، عجباً لمن غفل عنها وسها! انهض لها يا غلام، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

أما آن يا صاحِ أن تستفيقا ... وأن تأتينّ الحِمى والعَقِيقا[(١)]

وقد ضحك الشَّيْبُ فاحزنْ له ... وصار مساؤك فيه شُروقا

وركبٍ أتاهم وقد عرَّسوا ... على القاعِ راعي المنايَا طُروقا

يُدير عليهم كؤوس المنون ... صَبوحاً على كرهها أو غَبُوقَا[(٢)]

«التبصرة» (١/ ٤٣٤-٤٣٥)

جرت دموع حزنهم

جرت دموع حُزنهم في سواقي أسَفهم، إلى رياض صفائهم، فأورقت أشجارُ وِصَالهم، ودموعهم تجري كالدِّيَمْ كلما ذكروا زَلَّةَ قدم، يرعون العهد والذِّمم، يحذرون ناراً تعيد الجسم كالحِمم، يخافون حَرَّها ومن له بتَحِلَّة القسم[(٣)]! الليل

---

(١) العقيق: واد بالحجاز.

(٢) الغَبُوق: شرب آخر النهار مقابل الصَّبوح.

(٣) يريد قول الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٧١].

قد سجى والدمع قد سَجم، يراوحون بين الجبهة والقدم[1]، كم بينك وبينهم؟! عند النقد تَبين القِيَم، تالله ما جعل مَنْ نام مثلَ مَنْ لم ينم، جاءوا من طعام الهوى وآذاك التَّخَم، يا قبيح العزائم يا سيّءَ الهمم، يا مرذول الصفات يا رديء الشِّيَم، كأنك بك تتمنى إذا حُشِرْتَ العدم، نُثِرَتْ عطايا الأسحار فبسط القوم حجورَ الآمال، كاتبوا بالدموع فجاءهم ألطفُ جواب، اجتمعت أحزان السر على القلب فأوقد حوله الأسَف، وكان الدمع صاحب الخبر فَنَمَّ[2].

«التبصرة» (١/ ٤٣٦-٤٣٧)

يا من لا يتعظ بسلف آبائه

يا من لا يتعظ بسلف آبائه، يا من لا يعتبر بتلفٍ أو دائه، يا أسير أغراضه وقتيل أهوائه، يا من عجزت الأطباء عن إصلاح دائه، يا مشغولاً بذكر بقائه عن ذكر فَنائه، يا مغروراً قد حلَّ المماتُ بفِنائه، يا معجباً بثوب صحته يمشي في خُيَلائه، يا مُعْرِضاً عن نصيحه مُشْمتاً لأعدائه، يا من يلهو بأمله ويا من أجلُه من ورائه، يجمع العيب إلى الشيب وهذا من أقبح رائه، كم رأيت مستلَباً من سروره ونَعْمائه؟! كم شاهدت مأخوذاً عن أحبابه وأبنائه؟! بينا هو في غروره دَبَّ الموتُ في أعضائه، بينا جُرَعِ اللذة فيه شَرِق بمائه، بَيْنا ناظِر النَّظير يعجبه صار عبرةً لنظرائه، ما له ضيَّع مالَه وبقي في بلائه؟!

باتت همومي تسْري طوارقُها   أكفُّ عيني والدمع سابقُها

---

(١) يعني: في قيام الليل.

(٢) أي: أشاع الخبر وأفشاه.

هما طريقان فائز دخل الـ ـجنَّة حفَّتْ به حدائقُها
وفرقةٌ في الجحيم مع تبع الشَّيْـ ـطان يشْقى بها مُوافقُها
اقترب الوعدُ والقلوب إلى اللَّـ ـهو وحُبّ الحياة سائقُها
ما رغبة النفس في البقاء وإن عاشت قليلاً فالموت لاحقُها
وكلُّ ما جمعت وأعجبَها من عيشها مرةً مُفَارقُها
يوشك مَنْ فرَّ من منيَّته في بعض غِرّاته يوافِقُها
من لم يمت عَبْطَةً[1] يَمُتْ هَرَماً للموت كأسٌ والمرء ذائقُها

«التبصرة» (١/ ٤٦١-٤٦٢)

لقد نطقت الغِيَرُ بالعِبَر

لقد نطقت الغِيَر بالعِبَر، ولقد خبَرَ الأمر مَنْ عنده خبر، وإنما ينفع البصر ذا بَصر، فاعجبوا لمقصِّر عمره في قِصَر، يا مَنْ لا يُرى من توبته إلا الوعود، فإذا تاب فهو عن قريب يعود، أرَضِيتَ بفوت الخير والسعود؟! أأعدَدْتَ عُدَّة لنزول الأخدود؟! أما علمت أن الجوارح من جملة الشهود؟! تالله إن حوض الموت عن قريب مورود، والله ما الزاد في الطريق بموجود، والله إن القيامة تُشَيِّب المولود، والله إن العمر محبوس معدود، والوجوه غداً بين بيض وسود.

إلى كم هذا الصِّبا والمِرَاح؟! أأبقى الشيبُ موضعاً للمِزَاح؟! لقد أغنى الصباح عن المصباح، وقام حرب المنون من غير سلاح، اعوجّت القناة بلا قَنا ولا صِفاح، فعاد ذو الشّيبة بالضعف ثخين الجراح، ونطقت ألسن الفناء بالوعظ الصُّراح، وا أسفا صمَّت المسامع والمواعظ فِصَاح، لقد صاح لسانُ

(١) أي: شاباً صحيحاً.

التحذير: يا صاح يا صاح، وأنّى بالفهم لسكران غير صاح، أسْكرك الهوى سُكراً لا يزاح، أوَ ما تفيق حتى يقول الموت لا بَرَاح؟!

متى يظهر عليك سيما المتقين؟! متى ترقى إلى مقام السابقين؟! كأنك بك تَذكر قولي وقد عَرِق الجبين، وخابت الآمال وعبثت الشمال باليمين، وبَرق البصر وجاء الحقُّ اليقين، ولا ينفع الانتباه حينئذ يا مسكين.

يا من يوعظ وكأنه ما يسمع، يا مشغولاً بما يفنى يَحْوي ويجمع، يا من شاب وما تاب في أي شيء تطمع؟! يا غافلاً والموت على أخْذه قد أَزْمع، ستعرف يوم عَرْض الكتاب وسوء الحساب عينَ مَنْ تَدمع، أتراك يوم الرحيل إذا ضاق رحب السبيل ما تصنع؟! أتراك بماذا تتقي هوْل ذاك المصْرَع؟! عجباً لك تؤثر ما يفنى وتعلم [أنّ] ما يبقى أنفع! يا من أماراتُ طَرْده من وجه صَدِّه تَلْمع، لقد نادانا لسانُ حالك بدوام القبيح من أفعالك غير أنّا فيك نَطْمع.

كم تَعْذِلون وعَذْلُكمْ لا ينفعُ ضاعَ الحديثُ فعلِّموا من يَسْمَعُ

«التبصرة» (١/ ٤٦٢-٤٦٣)

لله دَرّ أقوام أخلصوا الأعمال وحقّقوها

للهِ دَرُّ أقوام أخلصوا الأعمال وحَقّقوها، وقيدوا شهواتهم بالخوف وأوثقوها، وسابقوا الساعات بالطاعات فسبقوها، وخلصوا أعمالهم من أشراك الرياء وأطلقوها، وقهروا بالرياضة أغراض النفوس الردية فمحقوها، فعن إبعاد مثلهم وقع نَهْي النبي، ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢].

صعدت صحائفهم من الأكدار صافية، وارتفعت أعمالهم بالإخلاص

ضافية، وأصبحت نفوسهم عن الدنيا متجافية، والناس في أخلاطٍ والقوم في عافية، ففاق المولى منهم على الرئيس القرشي، ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾.

دموعهم بالأحداق محدقة، ورؤوسهم في الأسحار مطرقة، وأكُفّهم بما تسكبه في الخير مُنْفقة، ونفوسهم بعد الجدِّ من اللوم مشفقة، يَرِدُون من حياض المصافاة على أوفى الرِّي، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾.

خَلَّصوا الأعمال من الأكدار نفلاً وفرضا، واجتهدوا في طاعة مولاهم ليرضى، وحَضُّوا أنفسهم لطلب الحظ الأحظّ حَضّا، وغضوا أبصارهم عن غضّ الشهوات غضّا، فإذا أبصرتهم رأيت أجساداً مرضى، وعيوناً قد أَلِفَتِ السَّهر فما تكاد تَطْعَم غمضا، بادروا أعمارهم لعلمهم أنها ساعات تتقضّى، فأمَدَّهم بالعونِ السَّرْمديّ، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾.

ابتلاهم فرضوا وصبروا، وأنعم عليهم فاعترفوا وشكروا، وجاؤوا بكلّ ما يرضى ثم اعتذروا، وجاهدوا العدو فما انقشعت الحرب حتى ظفروا، فنالوا غاية الإمكان في المكان العَلِيّ، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾.

لله درُّ أنـاس أخلصـوا العمـلا ... على اليقين ودانوا بالذي أُمِروا

أَوْلاهـمُ نعمـاً فـازداد شُكـرهُـمُ ... ثم ابتلاهم فأرضَوْه بما صَبروا

وَفَوْا له ثم وَافَوْه بما عملوا ... إذاً سَيُوفِيهـمُ يومـاً إذا نُشِـرُوا

«التبصرة» (١/ ٤٨٤)

* * *

لو صَحَّتْ منك العزيمة

قالت المَكْرُمَاتُ لستُ لمختا ... رِ ولكن لصامدٍ ليَ صَمْدا

ويُكِدُّ الجثمانَ والروحَ والجا ... هَ طويلاً ولا يرى الكَدَّ كَدَّا

يا هذا، لو صَحَّتْ منك العزيمة أوقعت في جيش الهوى هزيمة، إن في البدن مُضْغةً إذا صَلُحت صَلُح البدنُ وإذا فسدت فسد البدن ألا وهي القلب[1]، يا هذا متى حصل الفساد في رأي المَلِك تَشَتَّت الأعوان، ومتى رُمي القذر في فوهة النهر أَثَّرَ في المشارع.

وإذا كان في الأنابيب خُلْفٌ ... وقع الطَّيْشُ في رؤوس الصغارِ

«التبصرة» (١/ ٤٨٧)

الدنيا دار المحن ودائرة الفتن

يا هذا، الدنيا دار المحن ودائرة الفتن، ساكنها بلا وطن واللبيب قد فطن، أين من مال إلى حُبّ المال بالآمال وصَبَا؟! وأصبح بين غَبُوقه وصَبُوحه[2] لا يَعْرف وصَبَا، وتقلّب بجهله في رَوْضَتَيْ هوًى وصِبا، وأضحى عَلَمُ شهواته على قِباب عزه منتصبا، وظلّ ربيع ربعه بوفور جمعه خَصْبا، وكلما دُعِي إلى نفعه في عاقبته أبى، أما شارك بمصرعه الفاجع له أُمّاً وأَبَا؟! أما صار إذا رحل نبأ؟! أتراه تزوّد لمذهبه إذْ أَذْهَبَ ذَهَبا؟! لقد لقي والله إذا نصب الموت شَرَكه نَصَبا.

---

(١) «أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ القَلْبُ» بعض حديث متفق على صحته.

(٢) الغَبُوق: ما يشرب آخر النهار، ويقابله الصَّبُوح، وهو ما يشرب أول النهار.

أين من رضي ظلال البطالة بضلاله ربْعاً وفِنا؟! أما أدركه التلف في أسوإِ حاله ثياباً وفنَا، لقد غادره جفاؤه لما ينفعه جَفَا، لا يجدُ لمرضه إذ تمكن من جملته شِفا.

أين من كان مجلسه بين الناس في الصدور؟! أين من كانت همته نِضَار القصور؟! أما استلبه الموت من المنازل والقصور؟! أين من كانت تقوى بسقائه الظهور؟! أما عدم الظَّهير عند الموت حين الظهور؟!

حام الحِمام حول حِماهُ فلم ينفعه الحمى، ورام راميه مراميه فرماه إذ رمى، وصاحت به هاتفات الفراق بملء فيها، ولفظته المنازل كأنْ لم يكن فيها، كأنْ لم تعلق راحته براحة الهوى إذ زلَّ قدمه في التلف وهوى، وكأنه ما عزم على غرض ولا نوى إذ جذبته بأيديها النَّوى، وكأنه ما تحرك من مراد ولا التوى حين أدركه سكون التلف والتَّوى[1]، انبَتَّ والله حبلُ بقائه بأَقْطع المُدَى، وانتثر منظوم حياته وانقطع المَدى، فأُخْرِج عن الإنس كأنه ليس من الجنس، وكُفَّ كفُّه في الرَّمس بعد تصرف الخَمْس، وأصبحت منازله إذ لم يصبح بها ولم يمس كأنْ لم تغن بالأمس.

أخي إنما الدنيا مَحِلَّة نَغْصَةٍ ... ودارُ غــرورٍ آذَنَــتْ بفــراقِ
تَزَوَّد أخي من قبل أن تسكن الثرى ... ويلتف ساق للممات بساقِ

ما أقربَ ما هو آت! ما أبعدَ ما قد فات! ما أغفلَ الأحياءَ عمّا حلَّ بالأموات!

يــا غــافليــن عـــن الفَنــا ... ليـس الفَنـا عنكـم بغـافـلْ

«التبصرة» (١/ ٤٩٢-٤٩٣)

---

(١) التّوى: الهلاك.

يا من لا يسمع قول ناصح

يا من لا يسمع قولَ ناصح، أما هذا الشيب دليل واضح؟! لمن نُحَدِّث والقلب غائب؟! ليتنا نعلم مُستقرَّه فنكاتب، قلنا له: بياض الشيب قد فَضَحَكَ فَضَحِكَ، يجمع التقصيرَ إلى التفريط ويَضُمّ، وينوي فعل الذنوب فيعزم ويَهُمّ، ويحك! تأمل هلال الهدى فما خَفِيَ ولا غُمّ، واسمع واعظ العِبَر فقد زعزع الجبال الشُّمّ، وأَيْقِظْ قلبك الغافل وهيهات لا تَسْمَعُ الصُّمّ، وعُمْ في بحر حزنك على ذنوب تَعُمّ، فلقد بَالَغْنَا في زجرك يا من بالزجر قد أُمّ، فإذا رضيت أن تكون لنفسك مبيراً [1] فلحى اللهُ ظِئْراً أَشْفَقَ من الأُمّ.

«التبصرة» (١/ ٤٩٤)

قلوبهم بالحق متعلقة

كانت قلوبهم بالحق متعلقة، وأنوارهم على الظواهر متألقة، كلما هَدَلت حمائمُ نَوْحهم هطلت غمائم شَجْوهم، دموعهم في الدجى ذوارف لما بين أيديهم من المخاوف، يغسلون بالبكاء ذنوب الصحائف، خوفهم شديد ما فيهم مخالِف، إذا جَنَّ الليلُ فالقدم واقف.

علموا أن الدنيا متاعٌ يفنى فعبروها وما عمروها للسكنى، واشتغلوا بدار كلما نُقِضَتْ هذه تُبْنَى، طرق الوعظ أسماعَهم فتلمَّحوا المعني، يأخذون أُهْبَة الرحيل ولا يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى[2]، لا كِبْرَ عندهم تراهم بين المساكين

---

(١) أي: مهلكاً.

(٢) مستفاد من قول الله عز وجل: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

والزَّمْنى[1]، لو تأملتهم رأيت ضلوعاً على المحبة تُحْنى، حَلَف صادقُهم على هجر الهوى فلا والله ما استثنى، وأقبلوا على قدم الفقر فلما رآهم أَغْنى، ذكروا الجنة فاشتاقوا ولا شوق قيسٍ إلى لُبْنى.

«التبصرة» (١/ ٤٩٨)

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

سبحان مَنْ قَدَّمَنا على جميع الناس، وجعل نَبِيَّنا أفضل نبي رعى وساس، فلما فَضّله على الأمة، وأنعم علينا بعلو الهِمَّة، قال لنا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أفي الأُمم مثلُ أبي بكر الصديق، أو عمر الذي أَغَصّ كسرى بالرِّيق، أو عثمان الصابر على مُرّ المذيق، أو عليّ بحر العلم الغمر العميق، أو مثل حمزة والعباس؟!

أفيهم مثل طلحة والزبير القرينين؟! أو سعد وسعيد هيهات من أين؟! ألهم صَبر خَبّاب وخُبَيْب ومَنْ مثل الاثنين؟! إنْ شبهناهم بهم أبعدنا القياس.

هل شجرة الرضوان في أشجارهم؟! هل وقعة بدر من أسمارهم؟! إنما عَرَضَتْ لهم غَزاة في جميع أعمارهم، وجهادنا مع الأنفاس، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أين أصحاب الأنبياء من أصحابنا؟! هيهات ما القوم من أضرابنا، ولا ثوابهم في الأخرى مثل ثوابنا، نُتِقَ الجبلُ فقالوا: أقِلنا، ونحن قلنا في كتابنا على العينين والراس، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

---

(١) جمع زَمِن، وهو المريض مرضاً يدوم زماناً طويلاً.

رَدُّوا كتابَهم وقد سُطِّر وصُكّ، وطلبوا صنماً وقيد الهجر قد فُكّ، وشَكّوا عند الجبل وما فينا مَنْ يَشُكّ، إن تشبيه المسك باللَّك[1] وسواس.

غمرهم التغفيل وتناهى، فاعتقدوا للخالق أشباها، فقالوا يوم اليَمّ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً﴾، وما في عقائدنا نحن التباس.

آثر الصحابةُ الفقر والمجاعة، واشتغلوا عن الدنيا بالطاعة، وسألتِ النصارى مائدة للمجاعة، إنما طلبوا قوتَ الأضراس.

أعِند رهبانهم كزهد أويس؟ أفي متعبديهم كعامر بن [عبد] قيس؟ أفي خائفهم كالفضيل؟ هيهات ليس ضوء الشمس كالمقباس.

أفيهم مثل بشر ومعروف؟ أفي زهادهم مذكور معروف؟ أفي طوائفهم طائفة صلت وقد صلصلتِ السيوفُ ورنَّتِ الأقواس؟

أفيهم مثل أبي حنيفة ومالك؟ أو كالشافعي الهادي إلى المسالك، كيف لا تمدحه وهو أجل من ذلك؟ ما أحسن بنيانه والأساس!!

أفيهم أعلى من الحسن وأنبل، أو ابن سيرين الذي بالورع تَسَرْبَل[2]، أو كأحمد الذي بذل نفسه وسبّل، تالله ما فيهم مثل ابن حنبل، ارفع صوتك بهذا ولا باس، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

«التبصرة» (١/ ٥٠٠-٥٠١)

* * *

---

(١) (اللَّك): صِبْغ أحمر يصبغ به جلود المِعزى للخفاف وغيرها. «لسان».

(٢) في الأصل: «تقبّل»، وما أثبته أذكر أنني وجدته في بعض كتب ابن الجوزي، ولا يحضرني موضعه الآن، وهو أنسب معنًى وأصَحّ وزناً.

كأنك بما يُزعِج ويَرُوع

كأنك بما يُزعج ويَرُوع، وقد قلع الأصولَ وقطع الفروع، يا نائماً إلى كم هذا الهجوع؟! إلى متى بالهوى هذا الولوع؟! أينفعك وقت الموت الدموع؟! كم لك إلى التُّقى عند النزع نزوع؟! هيهات لا ينفع الذل إذاً والخضوع، يقول فرِّقوا المال فالعجب لجُود المَنُوع، هذا وملك الموت يَسُلُّها من بين الضلوع، رَشَقك سهم المنون فما أغنت الدروع، وأتى حاصدُ الزرع وأين الزُّروع؟! وخلت منك المساكن وفرغت الرُّبوع، وناب غراب البين عن الورْقاء السُّجُوع، وتمنيتَ أن لو زدت من سجودٍ وركوع، فاحذر مكر العدو ولا تقبل قول الخَدُوع.

ضَيَّعْتَ وقتك فانقضى في غفلةٍ ... وطَوَيْتَ في طلب الخوادع أَدْهُرَا

أفهمتَ عن هذا الزمان جوابَه ... فلقد أبان لك العِظَات وكَرَّرَا

عانيتَ ما ملأ الصدورَ مخافةً ... وكفاك ما عاينتَه مَنْ أَخْبَرَا

«التبصرة» (٢/ ٩)

يا عجبا كيف أَنِسَ بالدنيا مفارِقُها؟!

يا عجبا! كيف أنِس بالدنيا مفارقُها، وأمِن النارَ واردُها؟ كيف يغفل مَنْ لا يُغْفل عنه؟! كيف يَفْرح بالدنيا مَنْ يومُه يهدم شهرَه وشهرُه يهدم سَنَتَه وسَنَتُه تَهْدِم عُمرَه؟! كيف يلهو مَنْ يقوده عُمُره إلى أجله وحياتُه إلى موته؟!

إخواني، الدنيا في إدبار، وأهلها منها في استكثار، والزارع فيها غير التُّقى لا يَحْصد إلا الندم.

«التبصرة» (٢/ ٩)

ألست الذي دمت على الخطايا؟

ألست الذي دُمْتَ على الخطايا وعصيت؟ وبارزت بالقبيح وما استحييت، وعَلِمْت تحريم الذنب ثم أتيت، وعرفت عظيم الجزاء وتناسيت، ستُكَفّ منك الخَمْسُ بعد الحركة واللَّمس، وسيذهب اليومُ كما ذهب أمْس، وسَيُبَدَّل النطقُ بالسكوت والهَمْس، وسَتُعْدَم نورَ القمر وضوء الشمس، وسيُقْلَع البستانُ وييْبس الغرْس، وقد قَرُب وقت الغَمْس في بحر الرَّمْس، وسَيَنْسى ذو العلم الدَّرْس بالدَّرْس[1].

«التبصرة» (٢/ ٢٣-٢٤)

يا من يُنْصَح وليس منه إلا الإباء

يا من يُنْصَح وليس منه إلا الإباء، أين الأجداد أين الآباء؟ أين الإخوان أين الأقرباء؟ أدرك القومَ بعد القهر السِّبَاء، فبكى لسوء منقلبهم الغرباء، تالله لقد قامت بالمواعظ الخطباء، ولقد أذَّنَتْ برحيل الجيش النُّقَباء، ولكن قد عَمَّت الغفلة والغباء، وكأنْ قد كَفَّت عن الدواء الأطباء، وهل مَرَضُ القلوب إلا حُبّ الدنيا! فعلى الدنيا العفَاء.

أقـلُّ قليلهـا يكفيـك منهـا ... ولكـنْ لسـت تَقْنـع بـالقليـلِ
ومَنْ هـذا الـذي يَبْقى وتَبْقَى ... مضـاربُـه بمَـدْرَجَـةِ السُّيـولِ

«التبصرة» (٢/ ٢٤)

---

(١) الأولى: من القراءة والتعلم، والثانية: من العفو والمحو، والمعنى: أن ذا العلم سينسى الدرس الذي قرأه وتعلمه إذا ما دخل قبره ومحا الترابُ أثرَه.

انظروا لخلاصكم قبل انقضاء أعماركم

إخواني، إنكم تغدون وتروحون في آجال قد غُيِّبت عنكم، فانظروا لخلاصكم قبل انقضاء أعماركم، الوحَا الوحَا[1]، فالطالب حثيث، تذكروا تلك الصَّرْعة بين الأهلِ وهم لا يقدرون على ضرٍ ولا نَفْع، والله ما بات عاقلٌ قط إلا على فراش حَذَر، إنما هو دَبيبٌ من سُقْم ثم تؤخذون بالكظم، فإن زلَّت القدم لم ينفع ندم، لا توبة تُنال ولا عثرة تُقَال ولا فداء بمال.

«التبصرة» (٢/ ٢٤)

تقلبوا كيف شئتم

قل للذين أعرضوا عن الهدى فما تبعوا، وخُوِّفوا يوم الرَّدى فما ارتدعوا، وسمعوا المواعظ فكأنهم ما سمعوا، تقلبوا كيف شئتم وما شئتم فاصنعوا.

غداً تُوَفَّى النفوسُ ما كَسَبَتْ ... ويَحْصدُ الزارعون ما زَرَعوا

إنْ أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساؤوا فبئس ما صنعوا

للهِ دَرُّ أقوام بادروا الأعمال واستدركوها، وجاهدوا النفوس حتى ملكوها، وتأهبوا لسبيل التوبة ثم سلكوها، وعَرَفوا عيوب العاجلة فتركوها، استعمالهم الأدب في جمادى كرجب[2].

يا هذا إذا هممت بخير فبادر هواك لئلا تُغْلَب، وإذا هممت بشر فسَوِّف هواك لعلك تَغْلِب.

«التبصرة» (٢/ ٢٥)

---

(١) أي: السرعة السرعة، والمبادرة المبادرة.

(٢) يعني: أنهم على طريق التقوى وسبيل التوبة في كل الأوقات لا تفوتهم مواسم القربات.

بادروا في هذا الشهر

بادروا في هذا الشهر من الخير كُلَّ ممكن ما دام الأمر يمكن، واعلموا أن العمر لا قيمة لأوقاته وزمان الصحة لا مِثْل لساعاته، فحاسبوا أنفسكم قبل الحساب وأعِدُّوا للسؤال صحيح الجواب، واحفظوا بالتقوى هذه الأيام واغسلوا عن الأجرام قبيح الأجرام[1]، قبل ندم النفوس حين سِياقها، قبل طَمْس شمس الحياة بعد إشراقها، قبل ذوق كأسٍ مُرّة في مذاقها، قبل أن تدور بُدور السلامة في أفلاك محاقها، قبل أن تُجْذَب الأبدانُ إلى القبور بأطواقها، وتَفْترش في اللحود أخلاقَ أخلاقها[2]، وتَنْفصل المفاصل بعد حُسْن اتّساقها، وتَشتد شدة الحسرات حاسرةً عن ساقها، وتَظْهر مُخَبَّآت الدموع بسرعة اندلاقها، وتتقلب القلوبُ في ضَنْك ضِيق خِناقها، ويطول جَزَع مَنْ كان في عمره ناقهاً[3]، وتبكي النفوس في أسرها على زمان إطلاقها.

«التبصرة» (٢/ ٢٨)

هذا حادي الممات قد أسرع

هذا حادي الممات قد أسرع، هذه سيوف المُلِمَّات[4] قد تقطع، هذه قصور الإخوان بَلْقع[5]، مَالَ صاحبُ المالِ فإذا المال يُوزَّع، أَنَفَعَه حِرْصُه

---

(١) الأولى جمع مفرده: جِرْم، وهو الجسد، والثانية جمع مفرده: جُرْم، وهو الذَّنْب.

(٢) الأولى مفرد خَلَق: وهو الثوب البالي، والثانية مفرد خُلُق، والخُلُق معروف، فكأنه يقول: المبادرة قبل أن تفترش الأبدان في القبور سَيِّىءَ ما قدمت وبالي ما أسلفت من الأعمال والأخلاق، والله أعلم.

(٣) الناقه: القريب العهد بالعلة والمرض، لم يرجع إليه بعد كمال صحته وقوته. وانظر: (صفحة ٩٠).

(٤) جمع مُلِمَّة: وهي النازلة الشديدة.

(٥) أي: خالية.

حين سُلِب ما جَمَعَ أَجْمَع، إنما هذه الدنيا فَخُذْ منها أَوْ دَعْ، إن وَصَلَتْ فعلى نية أن تقطع، وإن بَذَلَتْ فعلى عزيمة أن تمنع، انتظر سَلْبها يا مشغولاً بها، وتوقع أسفاً لكَبِدٍ على حُبِّها تتقطع، أتراها أنها ما علمت أنها تخدع؟! أفيها حيلة أم في وَصْلها مَطْمَع؟! أين كسرى أين قيصر أين تُبَّع؟! أين حاتِم الجود أين من كان يَجْمَع؟! أين قيس وسَحْبان أين ابن المقفَّع؟! إنها لتمحو العَيْن ثم للأثر تَقْلع، إن لك مَقْنَعاً في وَعْظها لو كفاك المَقْنع، يا مُفَرَّقاً في البِلَى قل لمن تَجْمَع، إذا خلوتَ وخُلِّيت فكيف تصْنع؟! أتُرى أنت عندنا أَوَ ما تسمع؟! يا أُطروش الشّقوة أمَا الحديث معك أما التخويف لك؟!

«التبصرة» (٢/ ٢٩)

يا قليل النظر في أمره

يا قليل النظر في أمره، يا غافلاً عن ذكر قبره، أما نَقَل الموتُ واحداً واحداً؟! وها هو قد أضحى نحوك قاصداً، كم سلب ولداً وأخذ والداً! إلى متى تصبح جاهلاً وتمسي مارداً؟! وتُحَثُّ على النهوض وما تبرح قاعداً، متى يذوب دمعٌ ما يزال جامداً؟! متى ينقص جهلٌ ما يَفْتأ زائداً؟! يا مَنْ إذا قاربه النصح أضحى متباعداً، لقد نظرت لنفسك نظراً فاسداً، كم أشْمَتَّ بك عدواً وأفرحت حاسداً! يا نائماً عن خَلاصه راقداً، يا مريضاً ما نرى له عائداً، كم نوضح الأمثال ونضرب حديداً بارداً؟!

أترضى هذا الحال أن يكون زاد الارتحال؟! تذكَّر عبث اليمين والشمال إذا خابت جميع الآمال، ورأيت حسرة ما جمعتَ من مال، وتيقنت فراق الأيتام والأطفال، وحملت هماً خَفَّت عنده الجبال، وبان لك أن حديث المنى مُحَال.

يا مؤثر الغَيّ تأمل رشدك، يا راحلاً عن قليل تَعَرَّفْ قَصْدك، أصلح بالتقى يومك قبل أن تَلقى غدك، إياك والهوى ودَعْ مُتَعَوَّدَك.

«التبصرة» (٢/ ٥٦)

لقد رضيت لنفسك الغبينة

لقد رضيت لنفسك الغَبِينة[1]، وبعت الدار الشريفة بالدار المهينة، وأعجبك مع عقلك ما يعجب الأطفال من الزِّينة، أتراك ما علمت أن الدنيا صحبة سفينة؟!

إن ذُكِرَ الصالحون فلست فيهم، وإن عُدَّ الأبرار فما أنت معهم، وإن قام العُبَّادُ لم تُرَ بَيْنهم، ويحك! أتطمع في الحصاد ولا بَذْر لك؟! أترجو الأرباح ولا تجارة معك؟! تبني بلا أساس ولا يثبت البناء، وتحمل على عسكر الهوى بلا عزم فلا تصل إلى مراد، ويحك! دُمْ على الحِمْيَة يَزُلْ أثرُ التخليط، واستوثق من عَقْد العزم خوفاً أن ينحلَّ، فإنْ عَرَض تقصير يُوهِن فاستدرك تُعَنْ.

إذا ما عقدتَ العَقْد ثم تركتَه ... ولم تَثْنِه عَقْداً وَهَى ذلك العَقْدُ

وما اليدُ لولا أختها بقويةٍ ... ولا الرِّجل لولا الرِّجل تمشي ولا تَعْدُو

«التبصرة» (٢/ ٥٧)

* * *

(١) أي: الخديعة. يقال: لحقته في تجارته غبينة.

يا مشغولاً بما لديه عما بين يديه

يا مشغولاً بما لديه عما بين يديه، يا غافلاً عن الموت وقد دنا إليه، يا ساعياً إلى ما يضره بقدميه، يا مختار المؤذي له من حالتيه، يأمن الدهر وقد رأى صَرْفَيْه، كم عاين مَيّتاً لو اعتبر بعينيه! إنما أغار على شبابه هاجمٌ على فَوْديه[1]، أينفعه يوم الرحيل دمع يملأ خديه؟! يا من يصير عن قليل إلى حُفْرة، تَنَبّه لنفسك من هذه السَّكْرة، لو أنك تذكَّرت لحدك: كيف تبيت وحدَك، ويباشر الترابُ خدَّك، وتتقسّم الديدانُ جِلدك، ويضحك المحب بَعْدك ناسياً عنه بُعْدك، والأهل قد وَجدوا المالَ وما وَجَدوا فَقْدك، إلى متى وحتى متى تترك رُشْدك؟! أما تُحْسِن أن تُحْسِن قصدك؟! الأمر مُجِدّ جداً فالزم جِدَّك.

ذهـب الأحبـة بعـد طُـول تَـوَدُّدٍ ... ونأى المزار فأسلموك وأَقْشَعُوا

خذلـوك أفقـر مـا تكـون لغربةٍ ... لم يؤنسوك وكربةً لم يَدْفَعُوا

قُضِي القضاءُ وصِرْت صاحب حُفْرة ... عنك الأحبةُ أعرضوا وتَصَدَّعُوا

«التبصرة» (٢/ ٦٤)

حبال الأمل رِثاث

إخواني، حِبَال الأمل رِثاث[2]، وساحر الهوى نَفَّاث، رحلَ الأقران إلى ظلام الأجداث، لله ما صنعت الأجداثُ في الأحداث، باتوا شِبَاعاً من الأمل

---

(١) الفَوْد: جانب الرأس مما يلي الأذن، والفَوْد: الشعر النابت فوقه. ويقال: حَلَّ الشيب بفَوْديه. فالمعنى هنا: أغار على شبابه الشيب.

(٢) جمع رثّة ورثيثة، أي: بالية.

فإذا هم غِرَاث[1]، وبان لهم أن ما كانوا فيه من الهوى أضغاث، واستعانوا بالخلاص وقد فات الغِياث، عجباً لهم ما لهم؟! صَيَّر النَّوى مالَهم في الميراث، فدبِّروا أنتم أحوالكم فغداً تَرَوْن أموالكم للوُرَّاث، أسفاً لأجسامِ ذكورٍ وعقولِ إناث.

أكَبَّ بَنُو الدنيا عليها وإنها ... لتنهاهم الأيام عنها لو انْتَهَوْا

مضى قبلنا قِدْماً قرونٌ كثيرةٌ ... ونحن وشيكاً ما سنمضِي كما مَضَوْا

سيبكون حُزْناً حول قبرك ساعةً ... ولا يَبْرحون القبر إلا وقد سَلَوْا

رأيتُ بني الدنيا إذا ما سَمَوْا بها ... هَوَتْ بهمُ الدنيا على قَدْر ما سَمَوْا

«التبصرة» (٢/ ٦٨)

يا مَنْ يجول في المعاصي قلبه وهمُّه

يا مَنْ يجول في المعاصي قلبه وهَمُّه، يا مؤثر الهوى على التُّقى لقد ضاع حزمه، يا معتقداً صحته فيما هو سقمه، يا مَنْ كلما زاد عمره زاد إثمه، يا طويل الأمل وقد رَقَّ عظمه، أما وعظك الزمان وزجرك مُلِمّه؟! أين الشباب؟ قل لي قد بانَ[2] رَسْمه، أين زمان المرح؟ لم يبق إلا اسمه، أين اللذة؟ ذهب المطعوم وطَعْمه، كيف يقاوي المقاوي[3] والموت خَصْمه؟ كيف خلاص مَنْ قد أغرق فيه سَهْمه[4]، يا لديغ الأمل قد بالغ فيه سُمُّه، يا قليل العِبَر وقد رحل أبوه وأمّه، يا مَنْ سيجمعه اللحدُ عن قليل ويَضُمُّه، كيف

(١) أي: جياع، من غَرِث غَرَثاً إذا جاع، فهو غَرْثان.
(٢) أي: بعد وانفصل وانقطع، أو: رَحَل عنه وفارقه.
(٣) أي: كيف يغالب المغالب؟
(٤) أي: نفذ فيه إلى الغاية.

يُوعظ مَنْ لا يَعِظه عقله ولا فهمه؟! كيف يُوقَظ مَنْ نام قلبه لا عينه ولا جسمه.

«التبصرة» (٢/ ٦٨-٦٩)

تفكروا: لماذا خلقتم؟

إخواني، تفكروا لماذا خُلِقْتم فالتفكر عبادة، وامتثلوا أمر الإله فقد أمَر عِبادَه، والتفتوا عن أسباب الشقاء إلى أسباب السعادة، واعلموا أنكم في نقصٍ من الأعمار لا في زيادة.

آهٍ لنفس أقبلت على العدوّ وقَبلتْ، وبادرت ما يؤذيها من الخطايا وعَجِلَتْ، مَنْ لها إذا نوقشت على أفعالها وسُئِلتْ، وقُرِّرَتْ بقبائحها يوم الحشر فخَجِلَتْ، وقُيِّدَتْ بقيود الندم على التفريط وكُبِّلَتْ، وشاهدتْ يوم الجزاء قُبْحَ ما كانت عَمِلَتْ.

«التبصرة» (٢/ ٧٨)

يا من أكثر عمره قد مضى

يا مَنْ أكثر عمره قد مضى، يا مَنْ نَفْسُه مع اللحظات تُقْتَضى، يا مَنْ قد أنذره سَلْبُ القرين مُعْرِضاً[1]، كيف يحترس العُرْيان مع سيف مُنْتَضَى، إن كان ما فَرَط يوجب السخط فاطلب في هذا الشّهر[2] الرِّضا، يا كثير القبائح غداً تنطق الجوارح، أين الدموع السوافح على تلك القبائح؟! يا ذا الداء

(١) أي: أنذره أخذُ القرين أيّما إنذار وبالغ في ذلك وتوسع فيه، من العَرض، أي: السَّعة.

(٢) يعني: شهر رمضان.

الشديد الفاضح، ما أعْسَرَ مرض الجوانح! هذا الشيب دليل واضح، وهو في المعنى عَذُولٌ ناصح، جائحته لا تُشبه الجوائح، يضعضع الأركان الصحائح، يَسدُّ أبواب اللهوِ والمَمَازح[1]، والموت في خِلَاله مُبين لائح، أين زادك يا أيها الرائح؟! أين ما حَصَّلت هل أنت رابح؟! يا أسفي لهذا النازح! كيف حاله في الضَّرائح؟! مَنْ له إذا أوثقه الذابح؟! مَنْ له إذا قام النائح؟ واستوى لديه العاتب والمادح، ولم ينفعْه في بطون الصفائح إلا عملٌ إن كان له صالح، أتراه يعتقد أن النصيح مازح؟! ضاعت المواعظ إلا أن الموعوظ سَكْرانُ طافح.

«التبصرة» (٢/ ٧٩)

آن الرحيل وما عندكم خبر

إخواني، آن الرحيلُ وما عندكم خبر، إلى كم تُوعَظون ولا تتَّعظون، وتُوقَظون ولا تَتيـقظون، وتُتْعِبون الناصحَ ولا تَقْبلون؟ ويكفي في البيان رؤية الأقران يرحلون، ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]؟ أكُلِّفْتم ما لا تُطِيقون؟ أكُـلِّمْتم بما لا تفهمون؟ ما لكم عن مآلكم مُعْرضون؟ ما هذا الفتور وأنتم سالمون؟ ما هذا الرقاد وأنتم مُنْتبهون؟

كم مُؤَمِّلٍ إدراك شهرٍ ما أدركه! فاجأه الموتُ بغتةً فأهلكه، كم ناظرٍ إلى يوم صومه بعين الأمل طَمَسها بالممات كفُّ الأجل! كم طامعٍ أن يلقاه بين أترابه[2] ألقاه الموت في عُقْر ترابه!

«التبصرة» (٢/ ٨٣)

---

(١) جمع مَمْزح، وهو مصدر ميمي من مَزَح.

(٢) أي: أن يستقبل يوم الصوم وهو بين أمثاله من أصحابه وإخوانه.

أيها المجتهد هذا ربيع جِدِّك

أيها المجتهد هذا ربيع جِدِّك، أيها الطالب هذه أوقات رِفْدك، تيقَّظ أيها الغافل من سِنَة البطالة، تحفَّظ أيها الجاهل من شُبَه الضلالة، اغتنم سلامتك في شهرك قبل أن تُرْتَهَنَ في قبرك، قبل انقراض مدتك وعدم عُدَّتك، وإزماع فَوْتك وانقطاع صوتك، وعثور قدمك وظهور ندمك، فإن العمر ساعات تذهب وأوقات تُنْهَب، وكلها معدود عليك والموت يدْنو كلَّ لحظة إليك.

«التبصرة» (٢/ ٨٤)

إنما شرع الصوم ليقع التقلل

إخواني، إنما شُرِع الصوم ليقع التقلُّل، فأمَّا من أَوْثق الرِّزْمة[1] فما له نية في البيع، وإذا استوفيت العَشاء تكدَّر الليل بالنوم، وإذا استوفيت السُّحور تخبَّط النهارُ بالكسل، وإنما شُرِع السحور ليتقوَّى المتقلِّل من العَشاء ولينتبه الغافل، وما أرى رمضان إلا زادك شِبعاً وغفلة.

وا عجبا! لو عُرِض عليك أن تشرب شَرْبة ماء في رمضان لما شربت ولو ضُرِبْت، وأنت فيه تَغُشّ في البيع وتُطَفِّف في الميزان، فإذا خَرَجَ شربت الخمر في شوال، أما كان الناهي عن هذا هو الناهي عن ذاك؟! ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ﴾ [البقرة: ٨٥].

«التبصرة» (٢/ ٨٥)

---

(١) الرِّزْمَة: ما جُمع في شيء واحد. يقال: رزمة ثياب، ورزمة ورق، وهكذا.

إذا خَسِرْتَ في رمضان فمتى تربح؟!

تالله لو قيل لأهل القبور تمنَّوْا لتمنَّوْا يوماً من رمضان، إلى متى أنت في ثياب البطر؟! أما تعلم مصير الصّور؟ عجباً لك تُؤْمن وتأمن الغِيَر [1] ! أما ينفعك ما ترى من العِبَر؟! أصُمَّ السمعُ أم غُشِي البصر؟! تالله إنك لعلى خطر، آن الرحيل ودنا السَّفر، وعند الممات يأتيك الخبر، كلما خرجتَ من ذنوب دخلت في أُخَر، يا قليل الصفا إلى كم هذا الكَدَر؟! أنت في رمضان كما كنت في صَفَر، إذا خسرتَ في هذا الشهر متى تَرْبح؟! وإذا لم تسافر فيه نحو الفوائد فمتى تَبْرح؟! يا من إذا تاب نَقَض، يا من إذا عاهد غَدَر.

«التبصرة» (٢/ ٨٥)

طوبى لعبد بالغ في حِذاره

طوبى لعبدٍ بالَغ في حِذَاره، واحتفَر بكفِّ فِكْره قَبْرَه قبل احتفاره، وانتهبَ زمانَه بأيدي بِدَاره، وأعْذَر في الأمر قبل شَيْب عِذاره، ولم يرض في زاده بتقليله واختصاره، ورأى عَيْب الهوى فلم يَصْطلِ بناره، ودافَع الشهواتِ وصابر المكاره، إن بحثت عنه رأيته صائم نهاره، وإن سألت عن ليله فقائم أسحاره، وإن تلمَّحته فالزفير في إصعاده والدمع في انحداره، ولا يتناول من الدنيا إلا قَدْر اضطراره، باعها فاشترى ما يبقى باختياره، هل فيكم متشبِّه بهذا أو على نِجَاره [2]؟

يا حُسْنَه ومصابيح النجوم تُزْهر، والناس قد ناموا وهو في الخير يَسْهر،

---

(١) أي: الأحوال والأحداث المتغيرة.

(٢) أي: على شاكلته وهيئته. فالنجر والنِّجار: شكل الإنسان وهيئته. راجع «اللسان» (نجر).

غسل وجهه من ماء عينه وعَيْن العَيْن أطهر، فلما قضى وِرْد الدُّجَى جلس يتفكَّر، فخطر على قلبه كيف يموت وكيف يُقبر، وتصوَّر صحائفه كيف تُطوى وكيف تُنْشر، فهامَ قلبُه في بوادي القلق وتحيَّر، فطلَّق الدنيا ثلاثاً وهل يُسْتَوْطَن مَعْبَر؟

«التبصرة» (٢/ ٩٢)

أما يكفي زجر المقيم بمن رحل؟

لله درّ تلك القلوب الطاهرة، أنوارها في ظلام الدجى ظاهرة، رفضت حِلية الدنيا وإن كانت فاخرة، كم تركتْ شهوةً وهي عليها قادرة! باتت عيونها والناس نِيام ساهرة، زفراتُ الخوف تُثير سحائبَ الأجفانَ الماطرة، يَنْدبون على الذنوب وإن كانت نادرة، كم بينك وبينهم يا بائع الآخرة! شَيْب وعَيْب أمثالٌ سائرة، أمَلٌ مع هرمٍ هذه نادرة، كم أقوامٍ أمَّلوا هذا الشهر فخاب الأمل! أين هم؟! خَلَوْا في الألحاد بالعمل، تالله إن نسيان النَّقْل في العقل خَلَل، أما يكفي زجر المقيم بمن رحَل؟!

«التبصرة» (٢/ ٩٥)

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ﴾

يا له من وقت عظيم الشان، تجب حراسته مما إذا حَلَّ شان، كأنكم به قد رحَل ووجه الصُّلْح ما بان، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

من اللازم فيه أن تُحرس العينان، ومن الواجب أن يحفظ اللسان، ومن المتعيِّن أن تمنع من الخُطَى في الخَطا القدمان، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ

﴿فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

زِنُوا أفعالكم في هذا الشهر بميزان، واشتروا خَلاصكم بما عزَّ وهان، فإن عَجَزْتم فسَلُوا المعين وقد أعان، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

قد ذهب نصف البضاعة في التفريط والإضاعة، والتسويف يَمْحق ساعة بعد ساعة، والشمس والقمر بحسبان، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

«التبصرة» (٢/ ٩٦-٩٧)

يا واقفاً في مقام التحيّر

يا واقفاً في مقام التحيُّر! هل أنت على عَزْم التغيّر؟ إلى متى ترضى بالنزول في منزل الهوان؟ هل مضى من يومك يومٌ صالح سلمت فيه من جرائم القبائح؟! تالله لقد سبق المتقي الرابحُ وأنت راضٍ بالخسران، عينك مُطْلقة في الحرام، ولسانك منبسط في الآثام، ولأقدامك على الذنوب إقدام، والكلُّ مُثْبُت في الديوان، قلبك غائب في صلواتك، وفكرك ينقضي في شهواتك، فإن ركن إليك معامل في معاملاتك دخلت به خانَ من خان، أكثر كلامك لغو وهَذَر[1]، والوقت بالتفريط شَذَر مَذَر، وإن اغتبت مسلماً لم تُبْقِ ولم تَذَرْ، الأمان منك الأمان! تالله لو عقلت حالك أو ذكرت ارتحالك أو تصوَّرت أعمالك لبنيت بيت الأحزان، سيشهد رمضان عليك بنطق لسانك ونظر عينيك، وسيشار يوم الجمع إليك شَقِي فلان وسعد فلان.

---

(١) الهَذْر والهَذَر: الكلام في ما لا يعني.

في كل لحظة تقرب من قبرك، فانظر لنفسك في تدبير أمرك، وما أراك إلا كأول شهرك، الأول والآخر سِيّان، قد ذهب من الشهر النِّصْف وما أرى من عملك النَّصْف[1]، فإن كان في الماضي قد قَبُح الوَصْف فقُمِ الآن.

«التبصرة» (٢/ ٩٧)

إذا استوطنت السلامة فتذكر العَطَب

إذا استوطنت السلامة فتذكر العَطَب، وإذا طاب لك الأمن فتفكَّر في المخاوف، وإذا لذَّت لك العافية فلا تنس قُرْب السَّقم، وإن كنت محباً لنفسك فلا تسيءْ إليها بالزَّلل، إنّ طالبَ الدنيا لا ينال منها حظاً إلا بفَوْت نصيب الآخرة.

«التبصرة» (٢/ ١٠٩)

العمر ثلاثة أيام

هل العُمْرُ إلا ثلاثة أيام: يوم انقضى بما فيه ذهبتْ لذتُه وبقيتْ تَبِعَتُه، ويوم مُنْتَظَر ليس منه إلا الأمل، ويوم أنت فيه قد صاح بك مُؤْذِناً بالرحيل، فاصبر فيه عن الهوى فإن الصبر إذا وصل إلى المحبوب سَهُل[2].

«التبصرة» (٢/ ١٠٩)

* * *

---

(١) أي: الإنصاف.

(٢) أي: إن الصبر يسهل إذا كان يوصِل إلى المحبوب.

شهر رمضان قد قرُب رحيله

إخواني، إن شهر رمضان قد قَرُب رحيلُه وأزِف تحويلُه، وهو ذاهب عنكم بأفعالكم وقادِم عليكم غداً بأعمالكم، فيا ليت شعري ماذا أودعتموه وبأي الأعمال ودّعتموه؟!

أتراه يرحل حامداً صنيعكم أو ذاماً تَضْييعكم؟ ما كان أعظم بركات ساعاته! وما كان أحلى جميع طاعاته! كانت ليالي عتق ومباهاة، وأوقاته أوقات [عبادة] ومناجاة، ونهاره زمان قربة ومصافاة، وساعاته أحيان اجتهاد ومعاناة، فبادروا البقية بالتقية قبل فوات البِرّ ونزول البَرِّيّة وتَخَلّى عنك جميعُ البَرِيّة.

أين المخلص المتعبد؟ أين الراهب المتزهد؟ أين المنقطع المتفرِّد؟ أين العامل المُجَوِّد؟ هيهات بقي عبدُ الدنيا ومات السّيّد، وهلك مَنْ خطؤه خَطأ وعاش المتعمِّد، وصار مكان الخاشعين كلُّ منافق مُتمرِّد.

رَحَل عنك شهر الصيام، وودَّعك زمان القيام، ولحّ النصيح وقد لام، أفتشرق شمسُ الإيقاظ وتنام؟! فاستدرك ما قد بقي من الأيام، قد رأيتك توانيت في الأولى والثانية والثالثة فما بعد أن دنا الصباح؟!

«التبصرة» (٢/ ١٠٩-١١٠)

يا من يفرح في العيد بتحسين لباسه

يا من يفرح في العيد بتحسين لباسه، ويوقن بالموت وما استعد لباسه[(١)]، ويغترّ بإخوانه وأقرانه وجُلاّسه، وكأنه قد أَمِنَ سُرعة اختلاسه، كيف تَقَرّ بالعيد

(١) أي: لبأسه.

عينُ مطرود عن الصلاح؟! كيف يضحك سِنٌّ مردود عن الفلاح؟! كيف يُسَرُّ مَنْ يُصِرّ على الأفعال القِباح؟! كيف لا يبكي مَنْ قد فاته جزيلُ الأرباح؟! النَّوْح أحق بك من السرور يا مغرور، والحزن أجْدر بك من جميع الأمور، والجدُّ أولى بك من التواني والفتور، كيف يُسرّ بعيده مَنْ تاب ثم عاد؟! كيف يفرح مَنْ آثامُه في ازدياد؟!

«التبصرة» (٢/ ١١٦)

يا من وَفّى رمضان على أحسن حال

يا مَنْ وَفّى رمضان على أحسن حال، لا تتغير بعده في شَوّال، يا مَنْ رأى العِيد ووصل إليه، متى تشكر المنعم وتُثْني عليه، كم من صحيح هيَّأَ طيب عِيده، صار ذاك الطِّيب في تلحيده، سَلَبَتْهم والله أيدي المنون، فأنزلتهم قَفْراً ليس بمَسْكون، فهم في القبور بعد البيان خَرِسون، ومن نَيْلِ آمالهم أو بعضها آيسون، وهكذا أنتم عن قريب تكونون، وقد دلَّهم على صدق قولي ما تعملون، أما تَرَوْن الأتراب كيف يتقلبون؟! أترى ضلَّت الأفهام أم عَمِيَت العيون؟! ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]؟!

إلى متى تَرْضَوْن من العمل بالفاسد؟! ومنَ السِّلَع بالكاسد، وتَنْسَوْن الحَتْف الرابض المستأسد، لقد أشْمَتُّم بكم كلَّ حاسد، يا مظهرون ضِدَّ ما به الكتاب وارد، إلى متى تُبهرجون[1] والبصيرُ ناقِد؟! كيف يكون حالكم وهو عليكم شاهد؟!

«التبصرة» (٢/ ١٢١-١٢٢)

---

(١) أي: تُزَيِّفون.

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

لله دَرّ أقوامٍ تلمَّحوا العواقب فعملوا عمل مُراقِب، وجاوزوا الفرائض إلى طلب المناقب، عَلَتْ هِمَمُهم عن الدنايا وارتفعت، وَكَفَّت الأَكُفّ عن الأذايا وامتنعت، ووسَّعت خُطاها إلى الفضائل وسَعَتْ، مَنْ يُحِبّ العِزّ يَدْأب إليه، وكذا مَنْ طلب الدرَّ غاص عليه، كانوا إذا ابتلاهم مولاهم يصبرون، وإذا أعطاهم مناهم يشكرون، وإذا استراح البطّالون يدأبون، فلو رأيتهم يوم يقول[1]: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

زال الخوف عنهم واندفع، فأفادهم حزنُهم في الدنيا ونَفَع، وتَمَّ السرورُ لهم واجتمع، وزال الحجاب بينهم وبين [مولاهم] وارتفع، فهم إلى وجه الكريم ينظرون، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

«التبصرة» (٢/ ١٢٢)

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

امتثَلوا ما أمرهم به مولاهم، واجتنبوا ما عنه نهاهم، فإذا أخرجهم من الدنيا وتوفّاهم استقبلوا الرَّوْح والريحان وتلقاهم، فإذا حضروا لديه أكرم مثواهم، وكشف الحجاب فأشهدهم وأراهم، وهذا غاية ما كانوا يأملون، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣].

كانوا يتّقون الشِّرْك والمعاصي، ويجتمعون على الأمر بالخير والتواصي،

---

(١) هذا قاله الله تعالى من قول الملائكة وهو: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ويحذرون يوم الأخذ بالأقدام والنواصي[1]، فاجتهد في لَحاقهم أيها العاصي، قبل أن تبغتك المنون، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

«التبصرة» (٢/ ١٢٣)

أين العُدَّة قبل المنايا؟

عباد الله، هذه الأيام مَطايَا، فأين العُدَّةُ قبل المنايا، أين الأَنَفَة من دار الأذايا، أين العزائم أرضيتم بالدنايا؟! إن بلية الهوى لا تُشْبه البلايا، وإنّ خطيئة الإصرار لا كالخطايا، يا مَسْتورين ستَظْهَر الخبايا، سَرِيّة الموت لا تشبه السَّرَايا، قضية الزمان ليست كالقضايا، راعي السلامةِ يَقْتل الرعايا، رامِي المنون يُصْمِي[2] الرَّمايا، مَلَك الموت لا يقْبل الهدايا، أيها الشابّ ستُسأل عن شبابك، أيها الكهل تأهَّبْ لعِتابك، أيها الشيخ تدبَّر أمرك قبل سَدِّ بابك، كنت في بداية الشباب أصْلَح، فيا عجبا كيف أَفْسَد مَنْ أصْلَح! يا مريض القلب قِفْ بباب الطبيب، يا منحوس الحظ اشكُ فواتَ النصيب، لُذْ بالجناب ذَليلاً، وقِفْ على الباب طويلاً، واتخذ في هذا العشر[3] سبيلاً، واجعل جناب التوبة مَقِيلاً، واجتهد في الخير تجد ثواباً جَزِيلاً، قل في الأسحار: أنا تائب، نادِ في الدُّجى: قد قَدِم الغائب:

أنا المسيءُ المذنب الخاطِي — المُفْـــرط البيِّــنُ إفراطـــي

فإن تعاقـبْ أنــا أهـلٌ لــه — وأنت أهلُ العفو عن خاطي

. . . .

(١) كما قال الله سبحانه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

(٢) أي: يقتل، يقال: أصمى الصيدَ: رماه فقتله مكانه.

(٣) يعني: عشر ذي الحجة.

اعْـفُ عنـي وأقِلْنـي عَثْـرَتـي ... يـا عمـادي لمَلَمّـات الـزمـنْ

لا تعـاقبنـي فقـد عـاقبنـي ... نـدَمٌ أتلَـفَ رُوحـي والبَـدَنْ

إنْ تـؤاخـذني فمـن ذا أرتجي ... وإذا لم تعف عن ذنبي فمَنْ

«التبصرة» (٢/ ١٣٣-١٣٤)

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾

قل للمشغولين بالفساد الواقفين مع العِناد: إلى متى ظلم العباد؟! كم مَسْتَلَبٍ ما نال المراد! ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

أما عَادَ العَذاب على عَادٍ؟ أما أمرض وما عَادَ؟ أين مَنْ ادَّعى الربوبية أو كاد؟ كاده الجبار فيمن كاد، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

بينا هم في ظُلَم المظالم سُلِبَ على أقبح فعله الظَّالم، فبات يقرع سِنَّ نادم ولكن لما عثر الجواد، [﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾].

أُخِذَ والله في مَضيقه، وأغصَّه الموت بريقه، وبقي مُتَحَيِّراً في طريقه، لا ماءِ ولا زاد، [﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾].

كأنك بك قد بلغت النَّبْوة[1]، وصُرِعْتَ صرعة تُعجزك الأوْبة، وقمت تَعْرِض يومئذ سِلَع التوبة ولكن وقت الكساد[2]، [﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾].

فلا تَغْتَرَّ بمالك وقَصْرك، ولا تعجب بنهيك وأمرك، يا طائر الهوى ستؤخذ من وَكْرك وما تُعْجز الصيَّاد، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

---

(١) نَبْوة الدهر: خَطْبه. والمراد هنا: الموت.

(٢) الكساد ضد الرَّوَاج. كَسَد الشيء كساداً وكُسوداً: لم يَرُج لقلة الرغبة فيه، فهو كاسد وكسيد. ويقال: كَسَدَتِ السوق: لم تَنفُق، فهي كاسد وكاسدة.

من لك إذا سئلت عن خلقك وجوزيت بأقبح عملك، تالله إن تُبْت من ذلك فكل عَشْرك أعياد، [﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾].

كم أُرشدك إلى رشادك وأنت على فسادك! كم أدعوك إلى إسعادك وأنت مع سُعَادك! ضُربَ بوق رحيلك وما اهتممتَ بزادك، أنا في وادٍ وأنت في واد، [﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾].

قد بالغتُ لك في النصائح، وقمتُ مُنْذِراً عُقْبَى القبائح، والطريق واضح والعَلَم لائح[1]، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣، وفي مواضع أخرى].

«التبصرة» (٢/ ١٣٩)

لبيك اللهم لبيك

ستعلم أيها العاصي ما أَتيت، وستدري يوم الحساب مَنْ عصيت، وستبكي دماً لقبح ما جنيت، كأنك بالموت قد جاء فانتهيت وارْعَويْت، وتذكَّرت تلك الخطايا فتَعِسْتَ وبَكيت، وأُخْلِي منك البيت شئت أو أَبَيْت، وصِحْتَ بلسان الأسف: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، وليت، انهض يا حيّاً قادراً قبل أن تُسَمَّى باسم مَيْت، ويحك! تأمل أمرك وافتح عينيك، ويحك! كم تعي من الذنوب عليك! إن سهام الموت قد فُوِّقت[2] إليك، اقبل نصحي وقم نادماً على قدميك، وأَحِسَّها أرض عرفة وقل: لبيك اللهم لبيك.

«التبصرة» (٢/ ١٤٦-١٤٧)

---

(١) أي: ظاهر.

(٢) أي: وُضِعَتْ فيها فُوَقُها ليُرمى بها إليك، والفُوَق والأفواق جمع مفرده: فُوق، والفُوق من السهم: حيث يثبت الوترُ منه.

أين الوالدون وما ولدوا؟!

أين الوالدون وما ولدوا؟! أين الجبارون وأين ما قصدوا؟! أين أرباب المعاصي على ماذا وردوا؟! أما جَنَوْا ثمرات ما جَنَوْا وحصدوا! أما قَدِموا على أعمالهم في مآلهم ووفَدُوا! أما خَلَوْا في ظلمات القبور! بكوا والله وانفردوا، أما ذلوا وقَلُّوا بعد أن عَتَوْا ومَرَدُوا! أما طلبوا زاداً يكفي في طريقهم ففقدوا! أما حَلَّ الموتُ فحَلَّ عَقْدَ ما عَقَدوا! عاينوا والله كلَّ ما قَدَّموا ووجدوا، فمنهم أقوامٌ شَقُوا وأقوامٌ سَعِدوا.

لا والـدٌ خـالـدٌ ولا ولَـدُ ... كـلُّ جليـد يخُـونـه الجلَـدُ
كأنّ أهل القبور لم يسكنوا الدُّ ... ور ولـم يَحْـيَ منهـمُ أحـدُ
ولـم يكـونـوا إلا كهيئتهـم ... لـم يـولَـدوا قَبْلها ولـم يَلِـدوا
يا مَنْ نعى مَنْ مضى كذاك غداً ... تُنْعـى فبـادِرْ فقـد أتـاك غَـدُ
يا ناسيَ الموت وهـو يذكـره ... ما لـك بالمـوت إذا أتـاك يَـدُ
دارُك دارٌ يمـوت سـاكنُهـا ... دارك يُبْلـي جـديـدَهـا الأبَـدُ
تبكي على مَنْ مضى وأنت غداً ... يوردك المـوتُ في الذي وَرَدُوا
لـو كنتَ تدري ماذا يريد بك الـ ... ـموت لأبكـى جفونـك السُّهْـدُ

«التبصرة» (٢/ ١٦٧)

الموت مسرع مُجِدّ

الموت مسرع مُجِدٌّ غير رائث[١]، والأموال تمضي عن قليل للوارث،

---

(١) أي: غير بطيء.

وكأنك بوقوع الحادثات وحصاد الحارث، يا طويل الأمل هل قلبك لابث؟! لا تَسْمَعَنَّ المُحال فلست بماكث، يا مُطَالَباً بالجد وهو لاعب عابث، يا معاهداً باللسان والعَزْم ناكث، يا مَنْ أعماله إذا فُتِّشَتْ خبائث.

صرَّح الشَّيب وطال ما مَجْمَجَ[١]، ووَضح فجره وما كان قد تَبَلَّج[٢]، أوْضَحَ طريقَ الحذَر وبيّن المنهج، أين الشباب؟ رحل مُسْرعاً وهَمْلج[٣]، إن نار الفراق في القلب تتأجّج[٤]، إن فؤاد المتفكر يكاد أن يَنْضَج[٥]، هذه خيول الرحيل قد أقيمت تُسْرَج، والشكوك قد أُزيلت والحق أبْلج[٦]، هذا وأنت بالمعاصي مُغْرَى[٧] وتَلْهَج[٨]، لك كأس من المنون صِرْف[٩] لا يُمْزَج، يا مَنْ هو في الكفن عن قليل مُدْرَج، يا لابساً حُلّة من البلاء لم تُنسج، يا مَنْ بضاعته إذا نُقِدَتْ كلها بَهْرج[١٠]، يا سالكاً طريقُ الهوى عَوْسج[١١]، كيف الطمع في المرتجى والباب مُرْتج[١٢]، يا من ضَيَّقَتِ الذنوب خِنَاقه أين المخرج؟! يا عظيم فَقْرِك في القبر مَنْ مِنك أَحْوج؟! ما هذا الغرور أيّ مطمئن لم يُزْعَج؟!

---

(١) مجمج في الخبر: لم يبينه. فالمعنى: صرح الشيب وبَيَّنَ وطالما لم يُبَيّن.
(٢) أي: توَضَّح.
(٣) أي: وأمعن في السرعة، والهملجة: حُسْن سَيْر الدابة في سرعة.
(٤) أي: تتلهب.
(٥) أي: يتم ويكمل، ورأي نضيج: محكم.
(٦) أي: واضح مشرق.
(٧) أي: مُولَع.
(٨) لهج بالشيء: أُغرِي به وثابر عليه.
(٩) أي: بَحْت غير ممزوج.
(١٠) أي: زيف.
(١١) أي: معوج. وأيضاً العوسج: شجر من شجر الشوك.
(١٢) أي: مضطرب مهتز.

أخْلَقَ الدهر الشباب الحسنا ... ما أظن الوقت إلا قد دنا

قد قطَعْنا في التصابي بُرْهةً ... وجَرَرْنا في الذنوب الرَّسَنا

وركبنا غَيّنا جهلاً به ... فوجدناه علينا لا لنا

وشَرَيْنَا الدُّون بالدِّين فما ... عُذْرُ مَنْ قد باع بيعاً غُبِنا[1]

لقد بان السبيل ولاح المنهج، فما للقلب عن الهدى قد عرَّج، أما يزعجك الترهيب؟! أما يشُوقك الترغيب؟! إلامَ تروغ عن النصح روغان الذِّيب؟! وتَلَفَّتُ إلى أحاديث المنى الأكاذيب؟!

«التبصرة» (٢/١٦٨-١٦٩)

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾

أيها المتيقظون وهم نائمون! أتبنون ما لا تَسكنون؟! وتجمعون ما لا تأكلون؟! كونوا كيف شئتم فستُنقلون، ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥].

يا مقيمين سترحلون، يا مستقرين ما تُتْرَكون، يا غافلين عن الرحيل ستَظْعَنون، أراكم متوطّنين تأمنون المَنون، ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

طول نهاركم تلعبون، وطول ليلكم ترقدون، والفرائض ما تُؤَدّون، وقد رضيتم عن الغالي بالدُّون[2]، لا تفعلوا ما تفعلون، ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

---

(١) أي: باع بيعاً خُدِع فيه وخسر ولحقه منه النقص.

(٢) أي: الخسيس الحقير.

أمّا الأموال فتجمعون، والحق فيها ما تُخْرجون، وأما الصلاة فتُضَيِّعون، وإذا صليتم تَنْقِرون، أترى هذا إلى كم يكون؟! ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

أين العُتاة المتجبرون؟! أين الفراعنة المتسلطون؟! أين أهل الخُيَلاء المتكبرون؟! قدِّروا أنكم صِرتم كهم أما تسمعون: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

ما نفعتْهم الحصون، ولا رُدَّ المالُ المَصُون، هَبَّت زَعْزَعُ الموت فكسَّرت الغصون، قَدِّروا أنكم تزيدون عليهم ولا تنقصون، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

تقلّبوا من اللذات في فُنون، وأَخرجهم البَطَرُ إلى جنون، فأتاهم ما هم عنه غافلون، ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾؟! ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

لو حصل لكم كلُّ ما تحبون، ونما جميع ما تُؤتَون، ونلتم من الأماني ما تشتهون، أينفعكم حين ترحلون؟! ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

إلى متى وحتى متى تُنْصَحون؟! وأنتم تَكْسبون الخطايا وتجترحون، أأمنتم وأنتم تَسْرحون ذِئبَ هلاكٍ فلا تبرحون، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

لا تفرحوا بما تفرحون فإنه لغيركم حين تُطْرَحون، وإياكم مَنْ يراكم أن يراكم تمرحون، قد خسرتم إلى الآن فما تربحون، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

ويْحَكُم! الدنيا دار ابتلاء وفنون، وقد زجركم عنها المُفْتون، وكم رأيتم مِن هالك بها مفتون! وكأنكم بكم قد حُمِلْتُم على المُتون[1]، كم أَدُلّكم على النظافة وتختارون الأتون[2]! [﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾].

«التبصرة» (٢/ ١٧٠-١٧١)

---

(١) المتن من كل شيء: ما صَلُب ظهره. ولعل المراد هنا: النعوش.

(٢) الأتون: الموقد الكبير، كموقد الحَمّام والجَصّاص.

يا غافلاً قد طُلِب

يا غافلاً قد طُلِب، يا مخاصماً قد غُلِب، يا واثقاً قد سُلِب، يا حازماً قد خُلِب[1]، كأنه به قد قُلِب، إياك والدنيا فما الدنيا بمأمونة، وتزوّد للسفر فلا بد من مؤونة، إذا قدرت على الكمال فلا ترض دونه، واصدق في أمرك تأتك المعونة، أين المغرورون بغرورها؟! أين المسرورون بسرورها؟! صاح بهم الموتُ فأجابوا، واستحضرهم البِلى فغابوا، ظنوا بلوغ الآمال وتوهّموا، واعتقدوا دوام السلامة فلم يَسْلَموا، وأُعْلِموا بالرحيل وكأنهم لم يعلموا، وناولوا أنفسهم أعِنَّة الهوى وسلَّموا،كم هتف بهم نذير الفِراق فلم يفهموا! فلما بلغوا منتهى الآجال ولم يُظْلَموا، خَلَوا في ألحادهم بما كانوا قَدَّموا.

ولسنا بأبقى منهُمُ غير أننا أقمنا قليلاً بعدهم وتقدَّموا

«التبصرة» (٢/ ١٧٨)

أفٍّ لنفس تؤثر ما يَضِيرها

أفٍّ لنفس تؤثر ما يَضيرها، ما ترعوي وقد مرَّ نظيرها، ما تُصْغي إلى المواعظ وقد قال نذيرها، أما نهاها لمّا علاها قَتِيرها[2]، أما لاح لبصر البصيرة مصيرها؟! أما يرجع إلى العقول مستشيرها؟! أتقدر على نَفْسٍ إن تَلِفَتْ تستعيرها؟! قل لهذه النفس الجهولة في فعلها: ويحها إنما تسعى في قتلها، أما لها عِبَر ممن كان قبلها؟! كأنها بها تبكي على الأيام كلها، إذا حانت المنية وبَعثتْ بعضَ رسلها، وعَبَثَتْ يَدُ القاطع بموصول حبلها،

---

(١) أي: خُدِع.

(٢) القتير: الشيب، أو أوله.

وامتدت كَفُّ الأجل إلى عُرى الأمل تَحُلّها.

تساوى الناس في طرق المنايا ... فما سلم الصّريح ولا الهَجينُ[1]

تَدَيَّنا البقاءَ من الليالي ... ومِن أرواحنا تُوَفّى الدُّيونُ

كأننا قد شككنا في المنايا ... وعند جميعنا الخبرُ اليقينُ

«التبصرة» (٢/ ١٧٨-١٧٩)

تأملوا العواقب تأمُّلَ من يراقب

إخواني، تأملوا العواقب تَأَمُّل مَنْ يراقب، وتفكروا في النهاية فعين العقل ترى الغاية، الموت قريبٌ أَمَم[2]، كم أهلك من أُمم، لقد ارتهن الذِّمم، وتشبَّث[3] باللِّمَم[4]، فيا مَنْ ستَخْلَق منه الرِّمَم! أسماع أم صَمَم؟! مَنِ ارتحل بغير الطبع حَسُن وحَزَم[5]، مَنْ عَلِمَ شرف المطلوب جدَّ وعَزَم، إنما يكون الاجتهاد على قدر الهِمَم، إنما ينافَس في المطلوب على حَسَب القِيَم.

«التبصرة» (٢/ ١٧٩)

---

(١) الهجين: اللبن ليس بصريح ولا لِبَأ، والصريح: الخالص مما يشوبه. وللهجين من الناس عدة معانٍ، لعل أقربها هنا: الذي أبوه عربي وأمه أعجمية، فالمراد بالصريح هنا: الخالص، أبوه عربي وأمه عربية. فيصير المعنى: قد تساوى في طرق المنايا هذا وذاك.

(٢) أي: يسير عن كثب، وأَمَمٌ: قريب.

(٣) أي: تعلق.

(٤) مفردها: لِمّة، وهي شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن.

(٥) طَبَع الدابةَ: حَمَّلها ما لا تطيق. والمعنى: من رحل خفيفاً من الذنوب حَسُنَ ذلك منه ويكون قد حَزَم أمره. هذا ما يناسب وزن الكلام. أما إن كان الضبط: حَسُن وحَزُم؛ فالمعنى: كان حازماً.

أيها الشابّ تدبر أمرك

أيها الشابّ تدبَّر أمرك، فإنك في زمن الربح ووقت البَذْر وإبّان الفضائل، احذر أن يخدعك العدوُّ عن نفيس هذا الجوهر فتُنفقه بكَفِّ التبذير، تالله لئن فعلت لتغرسن بذلك شجرة الندامة، فيتساقط عليك من كل فَنَنٍ[1] منها فَنٌّ[2] حسرة، واعرف قدْر ما تؤمِّن به هذا الجوهر من الفضائل، واحذر من اختلاس العدو له، فصابِرْ فكأنْ قد انقضى الموسم.

«التبصرة» (٢/ ١٧٩)

أين عُدَّتك لذلك الزمان؟!

إخواني، هذا نذير الموت قد غدا يقول: الرحيل غداً، كأنكم والله والأمر معاً، طوبى لمن سمع فوعى، كيف بكم إذا صاح إسرافيل في الصُّور بالصُّوَر، فخرجت تسعى من تحت المَدَر[3]، وقد رُجَّت الأرض وبُسَّت الجبال[4]، وشَخَصَت الأبصار لتلك الأهوال، وطارت الصحائف فقلق الخائف، وشاب الصِّغار، وبان الصَّغَار[5]، وزفرت النار، وأحاطت الأوزار، ونُصِب الصراط، وآلمت السِّيَاط، وحَضَر الحساب، وقوي العذاب، وشهد الكتاب، وتقطعت الأسباب، فكم من شيخ يقول: وا شيبتاه! وكم من كهل ينادي: وا خيبتاه! وكم من شاب يصيح: وا شباباه! برزت النار فأحرقت،

---

(١) أي: غصن.

(٢) أي: نوع.

(٣) المدر: قطع الطين اليابس، وقيل: اللزج المتماسك. والمقصود هنا: أنها خرجت من القبور.

(٤) أي: فُتِّتَت.

(٥) أي: الذل.

وزفرت غضباً فمزَّقت، وتقطعت الأفئدة وتفرَّقت، وقامت ضوضاء الجدل، وأحاط بصاحبه العمل، والأحداق قد سالت، والأعناق قد مالت، والألوان قد حالت، والمحن قد توالت، أين عُدَّتك لذلك الزمان؟! أين تصحيح اليقين والإيمان؟! أترضى يومئذ بالخسران؟! أما تعلم أنك كما تدين تدان؟!

«التبصرة» (٢/ ١٨٢)

المؤمن يتقلب على جمرات الحذر

إخواني، المؤمن يتقلب على جَمَرات الحَذَر في نيران الخوف، يرهب العاقبة، ويحذر المعاقبة، فالنار متمكِّنة من سويداء قلبه، إنْ هو هَفَا توقَّدت في باطنه نار الندم، وإن تذكر ذنباً اضطرمت نار الحَزَن، وإن تفكَّر في مُنْقَلبه التهبت نار الحَذَر، وإنْ صفا قلبه لمحبة خالقه صار القلب جمرةً بنار الفَرَق[1]، فإذا ورد القيامة عادت ناره نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، فإذا جاز على الصراط لم تقاوم نار التعذيب نيران التهذيب، فتنادي بلسان الاعتراف بالتفضيل: جُزْ فقد أطفأ نورك لهبي[2]!

«التبصرة» (٢/ ١٨٣)

* * *

---

(١) كيف هذا؟! فكأنه يقصد أن قلبه وإن صفا لمحبة خالقه فإنه عامر بالخوف منه. فلو قال: وإن صفا قلبه لمحبة خالقه لم يَخْلُ القلب من نار الفَرَق.

(٢) يشير إلى ما روي عن يعلى بن منبه، عن النبي ﷺ قال: «تقول النار للمؤمنين يوم القيامة: جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي». أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٢٥٩/ رقم ٦٦٨) وغيرُه، وقال الهيثمي في «المجمع»: «وفيه سليم بن منصور بن عمار وهو ضعيف». وقال الألباني في «تخريج الطحاوية» (ص٤٧٢): «ضعيف رواه الطبراني وابن عدي وأبو نعيم وغيرهم بسند فيه ضعف وانقطاع».

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾

يا أسفا للعصاة في مآبها، إذا قَلِقَتْ لقطع أسبابها، وغابت في الأسى عند حضور عِتابها، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨].

قامت الأمم على أقدامها، فأقامت تبكي على إقدامها، وسالت عيونٌ من عيون غرامها، ندماً على آثامها في أيامها واحتقابها[1]، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

ظهرت أهوالٌ لا توصف، وبدت أمور لا تُعْرَف، وكُشِفَتْ حالات لم تكن تُكْشَف، إن لم تنتبه لهذا فأنت أعْرَف، ستعرف من يلوم نفسه عند عذابها، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

قُيِّدت جهنم فبدتْ بأزِمَّتها، فبكت النفوس على دناءة هِمّتها، كم من ديون تعلقت بذمتها! على أنه يكفيها ما بها، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

أنت تدري ما في كتابك، وستبكي والله عند عتابك، وستعلم حالك يوم حسابك، إذا كَلَّت كلُّ الألسن عن جوابها، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

يا له يوم لا كالأيام، يتيقظ فيه مَنْ غَفل ونام، ويحزن كل من فرِحَ في الآثام، وتيقنْ أنّ أحلى ما كنت فيه أحلام، وا عجبا لضحكِ نفسٍ البكاءُ أولى بها! ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

كم من نفسٍ تُرَى بعين الصلاح، تفعل الخير في المساء والصباح، عملت أعمالاً ترجو بها الفلاح، فلاح لها ما لم يكن في حسابها! ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

«التبصرة» (٢/ ١٨٥)

---

(١) أي: احتقابها الآثام، احتقب الشيء: ادّخره. واحتقب الإثم: كأنه جمعه واحتقبه من خلفه، أي: جعله وراءه حقيبة، كما يجعل الزاد على الراحلة.

الدنيا بحرٌ عجّاج

الدنيا بحرٌ عَجّاج، ليس راكبه بناج، الدنيا كظُلْمة ليلٍ داج، ليس فيها إلا الزهد سراج، هدوؤها انزعاج، وسكونها اختلاج، ضيّقة الفِجَاج، كَدِرة المِزاج، لا تَغُرَّنَّك ولو ألبستْك التاج، وقد خاطر مَنْ حمل في الوحل الزُّجَاج، تُرِيك السلامة تغريراً وتمويهاً، وتظهر المحاسن والقبائح تُخْفِيها، تَبِين[1] كل كَفٍّ كانت تبنيها، ما تعتذر إلى جريحها كبراً وتيهاً.

هــي الدنيا فـلا يَغْرُرْك منها زخارفُ تستغرّ ذَوِي العقــولِ

أقـــلُّ قليلهـــا يكفيـك منهـا ولكـن ليـس تَقْنَـع بـالقليـلِ

«التبصرة» (٢/ ١٩١)

كم أسمعك الموت وعيدك!

كم أسمعَك الموتُ وعيدَك، فلم تنتبه حتى قَطَع وريدك، ونقض منزلك وهدم مَشيدك، ومزَّق مالك وفرّق عبيدك، وأخلى دارك وملأ بِيدَك[2]! أما رأيت قرينك؟ أما أبصرت فقيدك؟ يا ميتاً عن قليل مَهِّد تمهيدك، وانظر لنفسك مجتهداً وحقِّق تجويدك، لقد أمرضك الهوى وفي عزمه أن يزيدك، يا عجبا للجاهل المغرور! كيف يشتغل بعِمارة الدُّور؟ قد بَعث الموتُ للرحيل المنشور، السَّقام أقلامه واللّحود السُّطور.

«التبصرة» (٢/ ١٩٢)

---

(١) أي: تقطع وتفصل.

(٢) جمع بيداء، وهي الفلاة.

يا من لا يترك ذنباً يقدر عليه

يا من لا يترك ذنباً يقدر عليه، يا من أكثر عمله الذي له عليه، كم ضَيَّعت في المعاصي عَصْراً، كم حملت على الأزر[1] من الوِزر أزراً، أترضى أن تملأ الصحائف عَيْباً وخُسْراً؟! أما يكفي سَلْبُ القرين وَعظاً وزَجْراً؟! لقد ضيعت شَطْراً من الزمان فاحفظ شَطْراً، ما أبقتْ لك الصحةُ حُجةً ولا تركت عُذْراً، كم نعمةٍ نزلت بك وما قَرَنْتها شكراً! تُقابلُها بالمعاصي فتبَدِّل العُرْفَ نُكْراً، كم ستَرك على الخطايا وأنت لا تقلع دهراً! كم نمت عن صلاة وكم شربت خمراً! كان الشيب هِلالاً وقد صار بَدْراً، تُعَاهِد ولا تَفِي إلى كم غَدْراً؟! أطال عليك الأمَدُ فصار القلب صخراً[2]؟! إنما بقي القليل فصبراً يا نَفْس صبراً.

«التبصرة» (٢/ ١٩٧)

يا غافلاً عن نفسه أمرك عجيب

يا غافلاً عن نفسه أمرك عجيب، يا قتيل الهوى داؤك غريب، يا طويل الأمل ستُدعى فتجيب، وهذا عن قليلٍ وكلُّ آتٍ قريب، هلاَّ تذكرت لَحْدَك: كيف تَبِيت وحدك، ويُبَاشر الثرى خَدَّك، وتقتسم الديدان جِلْدك، ويضحك المحبُّ بَعْدك ناسياً عنه بُعْدك، والأهل مذ وجدوا المال ما وجدوا فَقْدك، إلى متى وحتى متى تترك رشدك؟!

ذهـب الأحبـة بعد طـول تـَـوَدُّدٍ　　　ونأى المَزارُ فأسْلموك وأقْشَعُوا

---

(١) الأزر: الظَّهر. والأزر: الضعف. والوزر: الإثم. فالمعنى -والله أعلم-: كم حملت على الظهر من الإثم ضعفاً، أي: بسبب ثقل الإثم، وهو يشبه ما تضمنه قول الله عز وجل: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۞ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح: ٢و٣]، أي: أثقل ظهرك.

(٢) مستفاد من قول الله تعالى: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٦].

خذلوك أفقرَ ما تكون لغُربةٍ ... لم يؤنسوك وكُرْبةً لم يَدْفعوا

قُضِي القضاء وصِرْتَ صاحبَ حُفْرة ... عنك الأحبةُ أعْرَضوا وتَصَدَّعوا

«التبصرة» (٢/ ٢٠٧)

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾

يا هذا، لقد بلغ القومُ الآمال، ونالوا ملكاً عظيماً لا يزال، فأين ذاك التعب وتلك الأثقال؟! بقي المدح والتَّرَحُ [(١)] زال، ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ [يسٓ: ٥٦].

طالما نصبوا في [طاعة] ذي الجلال، فشغلتهم عن اللذات أشغال، وأزعجتهم عن الشهوات أوْجال، وقَلَقَهم الموت[(٢)] إذا خطر بالقلب وجال، فإذا وردوا تُلُقُّوا بالنَّوال، ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾.

بالغ القوم في التحقيق، وأخَذوا بالأمر الوثيق، وأنذرهم الموتُ فما أبْلَغهم الرفيق، فَجدُّوا حتى خرجوا من المضيق، فأما البطَّال فإنه لما تلمح الطريق رآه قد طال، ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾.

صام القوم عن الشهوات، وقاموا لله في الخلوات، وحَبَسُوا الألسن عن فضول الكلمات، وتركوا في الجُملة جُمْلةَ اللذات، فانقضى رمضانُ صومهم وجاء شوال، ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾.

كم بينك وبينهم! أسخن الشرُّ عينَك وأقرَّ الخير أعينَهم، نالوا الحظ

---

(١) أي: الحزن والشِّدة.

(٢) أي: أزعجهم.

ونِلْتَ الحضيض، أين أنت وأين هم! وإنما يُكَال للعبد كما كال، ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾.

سبحان مَنْ أصلحهم وسامحهم، وعاملهم فأربحهم، وأثنى عليهم ومدحهم، وأقال مُجْتَرِحَهم وقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾.

قطعوا المَهَامِهَ[1] ففازوا، وعبروا قاطر الخوف[2] وجازوا، ونالوا غاية المنى وحازُوا، فسلم الربح ورأس المال، ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾.

«التبصرة» (٢/ ١١٤)

يا من قد أجدبت أرض قلبه

يا مَنْ قد أجدبت أرضُ قلبه، متى تهب رياح الوعظ فتثير سحاباً فيه رعود تخويفٍ وبروق خشية، فتقع قطرةٌ على صَخْر القلب فيتروّى ويُنْبت؟!

يا من أَجْدَبت أرض قلبه واشتغل عنها ولها، اخرج إلى أرضِ صحراءِ التيقّظ واسْتَسْقِ لها، هيهات أن تخضرَّ أرض القلب حتى يتروّى الخدُّ من عَيْن العين، لا تيأس من جَذْب الجَدْب، فليس بمستحيلٍ أن يستحيل.

«التبصرة» (٢/ ٢٢٨)

ما هذه الخصال المذمومة؟!

ما هذه الخصال المذمومة؟! أَيُؤْثِر الفَهُومُ لذةً مَسْمومة؟! إنّ هذه لعقول

(١) مفردها: المَهْمَهُ، وهي المفازة البعيدة.

(٢) لعله يريد مسيله وانصبابه. والله أعلم.

مرجومة[1]، متى تَـيَـقَّـظُ هذه النفوس الملومة؟! إنها لظالمة وكأنها مظلومة، تعاهد والعهود كلّ يوم مهدومة، لتَتَمَنَّيَنَّ أنْ تكون في غدٍ معدومة، لتَعْلَمَنَّ أن اختياراتها كانت مشؤومة، مَنْ لها إذا بدت لها خصال مكتومة؟! كيف تصنع إذا نُشِرَتْ صُحُفٌ مختومة؟! ما هذا الحرص الشديد والأرزاق مقسومة؟! تصبح حزينة وتمسي مهمومة، أتقدر على ردِّ ما يُقْدَر[2] والأمور محتومة؟! أسفاً لها الموتُ يطلبها وهي نؤومة، ما حاربت جندَ هوًى إلا وعادت مهزومة، يا لها موعظة بين المواعظ كالأيام المعلومة، أحسن من اللآلىء المنثورة والعقود المنظومة.

«التبصرة» (٢/ ٢٣٩)

عجباً لمن عرف الدنيا ثم اغترّ!

عجباً لمن عرف الدنيا ثم اغتر! أما يقيس ما بقي بما مَرَّ؟! أيؤثر لبيبٌ على الخير الشَّرَّ؟! أيختار الفَطن على النَفْع الضَّرَّ؟! كم نعمةٍ عليك قد سُلِّفْتَها وما قمت بفريضة كُلِّفْتَها! إذا دُعِيت إلى التوبة سَوَّفتها، وإن جاءت الصلاة ضَيَّعْتَها، وإذا قمت في العبادة خَفَّفْتَها، وإذا لاح لك وجه الدنيا ترشَّفْتَها، لقد آفتك[3] آفةُ الدنيا وما أفتّها[4]، إنها لدار قُلْعة[5] تَضَيَّفْتَهَا، أوَ ليس شِبْت وما

---

(١) يريد أنها عقول غير سليمة مستورة عن الحقائق، والمرجوم: ما وضع عليه الرِّجام؛ أي: الحجارة. وقد يعني بمرجومة: مرمية بالسوء موصوفة بالنقص، مِن تراجموا بالحجارة: تراموْا بها، وتراجموا بالكلام: تسابُّوا.

(٢) أو: يُقَدَّر، بمعنًى.

(٣) أي: جلبت لك الآفة.

(٤) أي: وما صرفتها عنك وتركتها. من: أَفَتَهُ عن كذا: صرفه. والله أعلم.

(٥) أي: ليست بمُسْتَوْطَنَة وصاحبها فيها ضيف لا يملكها.

عَرَفْتها؟! كم حيلة في مكاسبها تَلَطَّفْتها! ولو شغلتك عنها آيات تأفَّفْتها، كم بادية في أرباحها تَعَسَّفْتها[1]! كم قِفَار في طلبها طُفْتَها! كم كَذِبَات[2] مِن أجل الدنيا زَخْرَفْتها! لقد استشعرت[3] محبتها إي والله والتَحَفْتها، تحضر المسجد وقلبك مع التي أَلِفْتها، أوَ ما يكفيك أموالك وقد أَلَّفْتَها[4]؟! تالله لو علمت ما تجني عِفْتها.

«التبصرة» (٢/ ٢٥١)

﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾

عباد الله، إلى متى تجمعون ما لا تأكلون، وتَبْنون ما لا تسكنون، والجيِّد في بيوتكم تَدَّخرون، والرديء إلى الفقير تُخْرجون؟! ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

حَرِّكوا هِمَمكم إلى الخير وأزعجوا، وحُثُّوا عزائمكم إلى الجِدّ وأدْلجوا، والتفتوا عن الحرص على المال وعَرِّجوا، وآثروا الفقير بما تُؤْثرون.

ويحكم! السير حثيث، ولا مُنْجد لكم ولا مُغِيث، فبادروا بالصدقة المواريث، ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، كم قطعت الآمال بَتّاً! كم مُصِيف ما أربَع[5] ولا شَتَّى! كم عازم على إخراج المال ما تأتَّى! سبقته المنون، ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

---

(١) أي: ركبتها وقطعتها في غير هداية وصواب.

(٢) وأيضاً: كِذْبات.

(٣) أي: جعلت محبتها لاصقة بك وولعت بها، واستشعر الثوب: لبسه شِعاراً، والشِّعار: ما وَلِيَ جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب.

(٤) أي: صَيَّرْتَها أَلْفاً.

(٥) أَرْبَعَ: صار في الربيع.

يا حريصاً ما يستقر، يا طالباً للدنيا ما يقِرّ، إن كنت تُصدِّق بالثواب فتصدَّق في السِّر بالمحبوب المَصُون، ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

يا بخيلاً بالفتيل شحيحاً بالنقير[1]، يا صريعاً بالهوى إلى متى عَقِير؟! تختار لنفسك الأجْوَدَ ولربِّك الحقيرَ! ما لا يَصْلح لك من الشيء تعطيه الفقير، فما تختار [لله] كذا يكون.

اكتسابَك على أغراضك أنفَقْت، أمْرَجْتَ نفسك[2] في الشهوات وأطْلَقْت، ونَسِيت الحساب غداً وما أشفقت، فإذا رحمت الفقير وتصدّقت أعطيتَ الرَّدِيَّ الدُّون.

أمَا المسكين أخوك مِنَ الوالدَيْن؟! فكيف كفَفْتَ عن إعطائه اليَدَيْن؟! كيف تُحَثُّ على النَّفْل والزكاة عليك دَيْن؟! وأنتم فيها تتأوّلون.

يا وحيداً عن قليلٍ في رَمْسه[3]، يا مستوحشاً في قبره بعد طول أُنْسه، لو قَدَّم خيراً نفعه في حَبْسه، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩، والتغابن: ١٦].

تجمع الدينار على الدينار لغيرك، وينساك مَنْ أخذ كلَّ خَيْرك، ولا تَزَوَّدْتَ منه شيئاً لسَيْرك، هذا هو الجنون، ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

«التبصرة» (٢/ ٢٦٠)

* * *

(١) الفتيل: الخيط الذي في شَقّ النواة. والنقير: نُقْرَة في ظهر النواة منها تنبت النخلة.

(٢) أي: خَلَّيْتها تسرح وتركتها تسعى.

(٣) أي: تحت التراب في قبره.

أمْر الموت قد عَلَن

إخواني، أمْرُ الموت قد عَلَن، كم طَحْطَح[١] الردى وكم طحن! يا بائعاً لليقين مشترياً للظَّنَن، يا مؤثراً للرذائل في اختيار الفِتن، إنَّ السُّرور والشُّرور في قَرَن، أنت في المعاصي مُطْلَق الرَّسَن، وفي الطاعة كذي وَسَن[٢] ، يا رضيع الدنيا وقد آن فِطَامه، يا طالب الهوى وقد حان حِمَامه[٣].

«التبصرة» (٢/ ٢٦٨)

إلى كم يا ذا المشيب؟

إلى كم يا ذا المَشِيب؟! أمَا الأمر منك قريب؟! كم تعب في وعظك خطيب؟! كم عالجك طبيب؟! إنه لمرض عجيب، إنه لَدَاءٌ غريب، عَظْمٌ واهن وقلبٌ صَلِيب، يا هذا لا شيء أقل من الدنيا ولا أعَزَّ من نفسك، وها أنت تُنْفق أنفاس النفس النفيسة على تحصيل الدنيا الخسيسة، متى يقنعك الكَفَاف؟! متى يَرُدّك العفاف؟! متى يُقَوّمك الثِّقَاف[٤]؟! إنك لتأبى إلا الخِلاف، مقاليدك ثِقَال وركعاتك خِفَاف[٥] ، يا قبيح الخصال، يا سَيِّء الأوصاف، يا مُشْترياً بسِنِي الخِصْب السنين العِجَاف، قف متدبراً لحالك فالمؤمن وَقّاف، وتذكَّر وعيد العصاة ويحك! أما تخاف؟

---

(١) أي: بدد وأهلك.

(٢) أي: نعاس.

(٣) أي: موته.

(٤) الثِّقاف: أداة من خشب أو حديد تثقف بها الرماح لتسوى وتعتدل. وثَقَّف الشيءَ: أقام المُعْوَجَّ منه وسَوّاه.

(٥) لعله يريد أن أمور الدنيا التي يتقلدها ثقال، ثم هو يخفف الصلاة. ومن مفردات «مقاليد»: مِقْلَد، وهو المخلاة، والمكيال، والمِنْجَل، والمفتاح.

ما من الحَزْم أن تقارب أمراً   تطلب البُعْدَ عنه بعد قليلِ
وإذا ما هممتَ بالشيء فانظر   كيف منه الخروجُ قبل الدخولِ

«التبصرة» (٢/ ٢٦٨-٢٦٩)

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

يا كثير الكلام حسابك شديد، يا عظيم الإجرام عذابك جديد، يا مؤثراً ما يضرّه ما رأيك سديد، يا ناطقاً بما لا يجدي ولا يُفيد، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قٓ:١٨].

كلامك مكتوب وقولك محسوب، وأنت يا هذا مطلوب، ولك ذنوب وما تتوب، وشمسُ الحياة قد أخذت في الغروب، فما أقْسَى قلبك من بين القلوب! وقد أتاه ما يصدع الحديد، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

أتَظُنّ أنك متروك مهمل؟! أم تحسب أنه ينسى ما تَعْمل؟! أو تعتقد أن الكاتب يغفل! هذا صائح النصائح قد أقبل، يا قاتلاً نفسَه بكفِّه لا تفعل، يا مَنْ أجَلُه ينقص وأمله يزيد، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

أنا مِنْ خَوْف الوعيد   في قيامٍ وقعودِ
كيف لا أزداد خَوْفاً   وعلى النار وُرُودِي
كيف جَحْدي ما تَجرَّمْـ   ـتُ وأعضائي شُهودِي
كيف إنكاري ذنوبي   أم تُرَى كيف جُحودِي
وعليَّ القول يُحْصَى   برقيبٍ وعتيدِ

«التبصرة» (٢/ ٢٧٢-٢٧٣)

﴿لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هَذا﴾

كأنك بالعمر قد انقرض، وهجم عليك المرض، وفات كلُّ مرادٍ وغَرَض، وإذا بالتلف قد عَرَض أخّاذاً، ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: ٢٢].

شَخَص البصرُ وسكن الصَّوْت، ولم يمكن التداركُ للفوْت، ونزل بك مَلَك الموت، فسَامَتَ[١] الرّوحَ وحاذَى، ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

عالجت أشدَّ الشدائد، فيا عجبا مما تكابد! كأنك قد سُقيت سُمَّ الأساود[٢]، فقطَّع أفلاذاً، ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

بلغت الرُّوح إلى التراقي، ولم تعرف الراقي من الساقي، ولم تدر عند الرحيل ما تُلاقي، عياذاً بالله عياذاً، ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

ثم دَرَجُوك في الكَفَن، وحملوك إلى بيت العَفَن، على العيب القبيح والأفَن[٣]، وإذا الحبيب من التراب قد حَفَن، وصرت في القبر جُذاذاً[٤]، ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

وتَسَرَّبتْ عنك الأقارب تَسْري، تَقُدُّ في مالك وتَفْرِي، وغايةُ أمرهم أن تجري دموعهم رَذَاذاً، ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

قَفَلوا الأقفال وبَضَّعوا البضاعة، ونَسُوا ذِكرك يا حبيبهم بعد ساعة، وبَقِيتَ هناك إلى أن تقوم الساعة، لا تجد وَزَراً[٥] ولا معاذاً، ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

---

(١) أي: قابل وواجه.

(٢) مفردها: الأَسْوَد، وهو أخبث الحيات وأنكاها.

(٣) الأَفَن: ضعف الرأي ونقص العقل.

(٤) الجذاذ بالحركات الثلاث على الجيم: المُقطَّع المُكَسَّر.

(٥) الوَزَر: الملجأ والمعتصم.

ثم قمت من قبرك فقيراً، لا تملك من المال نقيراً [1] ، وأصبحت بالذنوب عَقيراً، فلو قَدَّمت من الخير حقيراً [2]، صار ملجأً وملاذاً، ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾.

ونُصِب الصراطُ والميزان، وتَغَيَّرتِ الوجوه والألوان، ونُودِي: شَقِي فلانُ بن فلان، وما ترى للعُذر نفاذاً، ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾.

كم بالغ عذولُك في الملام، وكم قعد في زجرك وقام، فإذا قلبك ما استقام، قُطِعَ الكلام على ذا، ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾.

«التبصرة» (٢/ ٢٧٥-٢٧٦)

يا بعيداً عن الصالحين

يا بعيداً عن الصالحين، يا مطروداً عن المفلحين، لقد نصب الشيطان الأشراك وجعل حَبَّ الفَخِّ هواك، وكم رأيت مأسوراً وَسَطَ ذاك! وليس المرادُ الآنَ إلاَّك، احذر فَخَّه فهو بعيدُ الفِكَاك، كم يومٍ غابت شمسُه وقلبك غائب! وكم ظلامٍ أسبل سِتْرَه وأنت في عجائب! كم ليلةٍ بالخطايا قطعتها! وكم من أعمالٍ قبيحة رفعتها! وكم من ذنوبٍ جمعتها والصحفَ أَوْدَعْتَها، كم نظرةٍ ما تحِلُّ ما خِفْتَ ولا مَنَعْتَها، كم من موعظةٍ تعيها وكأنك ما سَمِعْتَها، وكم من ذنوبٍ تَعِيبُ غيرَك بها أنت صَنَعْتَها، وكم أَمَرَتْك النفسُ بما يُؤذي فأطعتَها! يا موافقاً لنفسه آذَيْتَها، خَالِفْها وقد نَفَعْتَها.

---

(١) يعني: لا تملك شيئاً، والنقير: نُقْرَة في ظهر النواة منها تنبت النخلة.

(٢) أي: قليلاً يستهان به في نظرك.

طوى نَفْسَه عنك الشبابُ المزايلُ ... وأُسْلِمْتَ للشيب الذي لا يُزايلُ
نسير إلى الآجال في كلِّ ساعةٍ ... وأيامُنا تُطوى وهُنَّ مَراحلُ
ولم أرَ مثل الموتِ حقاً كأنه ... إذا ما تَخَطَّتْه الأمانيُّ باطلُ
وما أقبحَ التفريطَ في زمن الصِّبا ... فكيف به والشَّيْب في الرأس شاملُ
تَرَحَّلْ عن الدنيا بزادٍ من التُّقَى ... فعُمْرُك أيامٌ وهُنَّ قلائلُ

«التبصرة» (٢/ ٢٨٥)

يا من قد مال بالآمال إلى جمع المال

يا من قد مال بالآمال إلى جمع المال، كأنّك به إلى غيرك قد مال، وا عجبا! بالحرص تجمعونه، وبالأمل تحفظونه، وبالغفلة تأكلونه، وفي الهوى تَصْرِفونه، المال نعمة فمَنْ أنفق بعضه في الخير أقام للباقي حارساً، إذا سَمِعَتِ النعمة نغمةَ الشكر أَلَبَّتْ ولبَّتْ بالمزيد[1]، وإذا لم تُشْكر وقد وَفَرَتْ نَفَرَتْ، وما كلُّ شاردٍ بمردود، وا عجباه ممن فرح بلذة يعلم سرعة زوالها! وأعجب من ذلك الحساب عليها.

أَشَدُّ الغَمِّ عندي في سرور ... تَيَقَّن عنه صاحبُه زوالا

«التبصرة» (٢/ ٣١٦-٣١٧)

* * *

(١) أي: أثمرت وبدت ولزمت المزيد.

انهض بحركة عُطَارد

يا هذا، إذا أسْلمك الأتراب، تَسَلَّمَكَ التراب، كيف يفرح بالحياة مَنْ يعلم أنها مَطِيّة مماته؟! يا مَنْ هجم الشيطانُ عليه وهو في بادية المخالَفة[1]، فسَبَاه فباعه فاشتراه الهوى بثمن بَخْس، تالله لو كنت في حِصن التقى ما قَدِر عليك، إلى كم يستخدمك الهوى وأنت حُرّ؟! طال تَشَبُّهك في التشبط بزُحَل، فانهض بحركة عُطَارد في الهرب مما يؤذي، تَعَرَّضْ لجِياد المجاهدين لعل بعضهم يستصحبك.

«التبصرة» (٢/ ٣١٨)

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾

لو رأيتهم بين ساجدٍ وراكع، وذليلٍ مَخْمولٍ[2] متواضع، ومُنْكَسِرِ الطَّرْف من الخوف خاشع، فإذا جَنَّ الليلُ حَنَّ الجازع، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦].

نفوسهم بالمحبة عَلِقَتْ، وقلوبهم بالأشواق فَلَقَتْ[3]، وأبدانهم [للطاعة] خُلِقَتْ، يقومون إذا انطبقت أجفانُ الهاجع[4]، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

يبادرون بالعمل الأَجَل، ويجتهدون في سَدّ الخَلَل، ويعتذرون من ماضي

---

(١) ما أجمل هذا التشبيه وما بَعْده! وما أرق هذه الكلمات! وما أحلاها!

(٢) خَمَل الرجل: خَفِي فلم يُعْرف.

(٣) أي: تَشَقَّقَتْ عنها لامتلائها بها.

(٤) أي: النائم.

الزّلَل، والدمع لهم شافع، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

سبق والله القوم، بكثرة الصلاة والصوم، فإذا أقبل الليلُ حاربوا النومَ والعَزْمُ في الطوالع، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

ينادي منادي تائبهم: لا أعود، والمنعم ينعم بالقبول ويجود، هم والله من الكوْن المقصود، فما حيلة المطرود والمعطي مانع، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

كن يا هذا رفيقهم، ولُجَّ [1] وإن شَقَّ مَضيقُهم، واسلك ولو يوماً طريقَهم، فالطريق واسع، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

اهجر بالنهار طِيب الطعام، ودع في الدُّجى لذيذ المنام، وقُلْ لأغراض النَفْس: سلام، ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، فما يُقْعِدُ السامع؟! ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

يا مَنْ يرجو مَقام الصالحين، وهو مقيم مع الغافلين، ويأمل منازل المقربين، وهو ينزل مع المذنبين، دَعْ هذا الواقع، [﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾].

الصدقَ الصدقَ فيه تَسْلم، الجدَّ الجدَّ فيه تَغْنَم، البِدار البِدار قبل أن تندم، هذا هو الدواء النافع، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

«التبصرة» (٢/ ٣٢٥-٣٢٦)

* * *

(١) مِن لَجّ في الأمر: إذا لازمه ولم ينصرف عنه.

إنما فُضِّل العقل لنظره في العواقب

يا هذا، إنما فُضِّل العقل لنظره في العواقب، فأما مَنْ لا يرى إلا الحاضر فطِفْل، وا عجبا! تُفِيق في المجلس بلفظ توبة كما يُفِيق المجنون فيتكلم بكلمة حِكمة، فإذا عادت السوداء خَلَط، عِلَّتُك عِلَّةٌ ظريفة يتحير في مثلها المداوي. تسرع في طلب الدنيا إسراع جواد، وأنت في طلب الآخرة جبان. إن لاَحَ ذَنْبٌ وَثَبْتَ وثوب فهد، وإن عُرِضْتَ على طاعة أخذك فالج.

خذ الوقت أخذ اللص واسرقه واختلس فوائده قبل المنايا الرواتب

ولا تَتَعَلَّلْ بالأماني فإنها عطايا أحاديثِ النفوس الكواذب

ودُونك وِرْد العمر ما دام صافياً فخذ وتزود منه قبل الشوائب

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٦٧)

قد أُعِدَّتْ لك كأس لا تشبه الكؤوس

قد أُعِدَّتْ لك كأسٌ لا تشبه الكؤوس؛ موت يَسْلُب الأرواح ويختلس النفوس، ورحلة لا تدري بالسعود أو بالنُّحوس، إلى لَحْدٍ ضَيِّق وَعْرٍ ما مهدتْه الفؤوس، تُحَطّ فيه ذليلاً وأنت مسحوب منكوس، ولا يشبه المطامير[١] ولا يجانس الحبوس، المدر[٢] فيه فراش والتراب فيه لبوس[٣]، كم محنة يلقى ذلك الملقى المرموس[٤]! ثم يُنْفَخ في الصور فتطير إلى الأكف

---

(١) مفردها: مَطْمورة، وهي السِّجن.

(٢) المدر: الطين.

(٣) أي: ما يُلْبَس.

(٤) أي: المدفون.

الطروس[١]، وتجني ثمار الجزاء يومئذ من قديم الغروس، وتشتد الشدائد في يوم قمطرير[٢] عبوس[٣]، وتذل العتاة الجبابرة المتغطرسون الشوس[٤]، ويتساوى في الخضوع الأتباع والرؤوس، وتقسم بين الخلائق خلع السعود وملابس النحوس، وا عجبا لجمود ذهنك وأنت في الأعراض تنوس[٥]! يا مؤثراً شهوة لحظة تجني له حرب البسوس[٦]، يا من قد غلب الأطباء دواؤه أمريض أم ممسوس؟ تَعَنّى بعلاجك بُقْراط وتحير جَالِينُوس، سبحان من خلق قلبك من حجارة تعالى القدوس، وا عجبا لعقلك! العِرْض مبذول والعَرَض محروس، جُلّ هَمِّك الدنيا وحظ الأخرى منحوس.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٦٧-٦٨)

يا عجبا لك! تتسمى باسم تاجر

يا عجبا لك! تتسمى باسم تاجر، وتخاصم على الحبة وتشاجر، وتغضب على القيراط وتهاجر، وتركب الخنا[٧] وتسل الخناجر، وترضى باسم عاصٍ ولَقَب فاجر، أما لك من عقلك زاجر؟! أما تؤمن أولاً بالمَقَادِر، أما تعلم أن المانع المعطي قادر؟ يا من نومه كثير وانتباهه نادر، تشتغل عن القرآن المُنَزّل، وتسمع من مغن يتغزل، وتمشي إلى الطاعة مشي أقزل[٨]، ويحك! إن أمير

---

(١) الصحائف، مفردها: طِرْس.

(٢) أي: طويل.

(٣) أي: ضيق.

(٤) أي: المتكبرون، مفردها: أَشْوَس.

(٥) أي: تتحرك.

(٦) حرب وقعت بين تغلب ومرة هيجتها امرأة تدعى البسوس.

(٧) الخنا: الفحش في المنطق.

(٨) أي: الأعرج، والقَزَل: أسوأ العرج.

الحياة سيُعْزَل، كأنك بالسماء تمور وبالأرض تَزَلْزَل، وبالميزان ينصب ولا تدري أي الكفتين أثقل.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٧٩)

يا من إصراره على المعاصي أوثق من السد

يا من إصراره على المعاصي أوثق من السد، وإفساده في أرض قلبه أشد من يأجوج، لك على المعاصي جراءة الأسد، وفي الخيانة وثوب النمر، وفي العهود غدر الذئب، وفي الأمانة اختطاف الحِدْأَة[١]، تروغ عن الحق روغان الثعلب، وتشره في الأدناس شره الخنزير، وتنام عن الواجبات نوم الفهد، وتدب بالشر دبيب العقرب، ويحك! احذر أن تكون من قوم ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، مَنْ أصبح لا هم له إلا ما يأكل ثم لا يبالي من أين حصل له، فإن كَسَب لم يبال حراماً كان أو حلالاً، همه ما يَجْمع ولا يفهم ما يَسْمع، فكيف يخاطب؟!

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٩٠)

يا غافلاً عن النعم

يا غافلاً عن النِّعَم، زاحمت بالغفلة النَّعَم[٢]، ما تعرف من الطعام إلا الأكل، ولا من الماء إلا الشرب، وتتكاسل عن لفظ الحمد، ثم تنفق النِّعم على معاصي المُنْعِم. يا عديم العقل وليس بمجنون، يا راقداً في غفلته وليس

---

(١) طائر من الجوارح ينقض على الجرذان والدواجن والأطعمة وغيرها.

(٢) مفرد أنعام، وأكثر ما يقع على الإبل.

بنائم، يا ميتاً في حياته وليس بمقبور، افتح بصر البصيرة ترى العجائب، وإن ترقيت بفهمك علمت أن ما بين يديك[1] أعجب، وإنما هذه الدار كالمكتب، يخرج منه الصبيان من حاذق ومن غافل لم يتعلم.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٩٥)

مَـثِّـلْ صرعة الموت قبل نزولها

أيها الشيخ، مَـثِّـلْ صرعة الموت قبل نزولها، وتخايل ساعات الفِراق قبل حلولها، فبادر لها بما يصلح قبل أن تلقاك بما يقبح، ما لمياه العيون قد جَمَدَت! ما لرياح العزائم قد ركَدَت! ما لنيران الهمم قد خَمَدت! يا مَنْ بقيتْ فيه بقية أَدْرِكْها، يا مَنْ قد ملكتْه نفسُه أملكها، يا من أهلكته خطاياه اتركها، فَرَّقَ هَمَّك جَمْعُ الأموال فلا تَجْمَعْها، تركتك شهواتُ الدنيا مع المقصرين فدَعْها، ناطقتك العِبَر بسلب الغير فاستمعها.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ١١٥)

تيقظ لنفسك واذكر زوالك

يا هذا، تيقظ لنفسك واذكر زوالك، ودَعِ الأمل وإن طوى الدنيا وزوى لك، فكأنك بالموت حَيّرك وأبدى كَلالك، ونسيك الحبيب لأنه أرادك لا لك، وخلوتَ أسير ندمك تبكي خِلالَك[2]، وأسفت على ضياع زمن خَلا لَكَ، وشاهدت أمراً أفظعك وهالك، تود أن تفديه بالدنيا لو أنها لك، فتيقظ

---

(١) أي: أمامك، يعني: أمر الآخرة.

(٢) خلال الرجل: أهل مودته، وخلاله: زوجاته.

لنفسك وجانب آمالك، واحذر أن تكون أعمالك أعمى لك، وأن تصير أفعالك في القيامة أفعى لك، واقنع بحلالك وإن قل وقد حلا لك، واجعل الندم شعارك والتدارك سربالك، واطرق في الدجى باب الرجاء وقد أصلح المُرْتَجَى بالَك.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ١١٦)

أين النفوس التي كانت في طلب المعاصي هائمة؟

أين النفوس التي كانت في طلب المعاصي هائمة؟ أقعدتها مِحَنُ البلايا بعد أن كانت قائمة، أين عادٌ وثمودُ أين الأمم السالفة المتقادمة؟! بينا هم في خطاياهم إذا بلاياهم قادمة، هجموا على المخالفات فإذا الآفات هاجمة، أُخِذوا على ذنوبهم وأُسِروا بعيوبهم المتراكمة، ذهب الفرح وجاء التَّرَح فإذا النفوس واجمة، أصبحت دموعهم إذ تفرقت جموعهم ساجمة، ضاع تدبير آرائهم ولقد كانت حازمة، ما أجودَ فِكَرَهم لو كانت على الرشد عازمة، رُمُوا في اللحود فإذا القبائح والضرائح متلازمة، يا لأحزانهم ما أشدها ولغمومهم المتزاحمة، ما تلمحوا قط عاقبة ولا خافوا من خاتمة، انتبهت وقد فات الوقت قلوبٌ نائمة، طلبت زاداً للطريق فأصبحت عادمة، سَلَّمَهم المالكُ إلى مالكٍ فإذا الوجوه ساهمة[1]، ثم احترقت أجسادهم وقد كانت ناعمة.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٢٨)

* * *

(١) أي: تغير لونها من الأهوال. سَهَم: تغير لونه عن حاله لعارضٍ من هَمٍّ أو هُزَال.

بين أيديكم الموت وليس بمردود

إخواني، بين أيديكم الموت وليس بمردود، والرحيل إلى القبور واللحود، ثم تخرجون وحوض الندم مورود، وينصب ميزان العدل ويُرَدّ بَهْرج[1] النقود، فحينئذ يتمنى الموجود عدم الوجود، ويبكي العاصي على فوات المقصود، وتصبح وجوه المذنبين كالليالي السود، ويُقَرَّر الخاطىءُ ولا وجه للجحود، فإن جحد فالجلود عليه شهود، يتمنى العَود وهيهات يَبِس العُود، ويقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] وباب الرجوع مسدود، وما ينتفع العاصي بقوله: ما أعود، أسمعتم يا ناقضي العهود؟ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، يُجْمَع الخلائق كلهم في صعيد، وينادَوْن فيَسْمع القريبُ والبعيد، ويَلِين لذلك الهول الصلد[2] الشديد، وينطق الكتاب بما جرى لا ينقص ولا يزيد، وترى الأبدان من الهول ترتعد وتميد، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]، تُحمل العصاة إلى نارٍ مقامعها حديد، ولهم فيها كل يوم عذاب جديد، كل محبوس وحده فريد، ممنوع مما يشتهي ويريد، يرجون العفو والعفو منهم بعيد، قد خَرِس لسان العاصي لا يبدىء ولا يعيد، هذا وأقوام في راحة وفي عيد، حُكْمٌ نفذ في الخلق حَكَمَ به المبدىء المعيد، ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٢٩)

---

(١) أي: زيف وباطل.

(٢) أي: الصلب.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾

زلزلة تَوْجل لها القلوب، زلزلة تظهر عندها العيوب، زلزلة تشتد فيها الكروب، زلزلة فيها أفئدة العصاة تذوب، فالعذاب شديد والعقاب أليم، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

زلزلة يشيب فيها المولود، زلزلة تشهد فيها الجلود، زلزلة تَخُدّ[١] فيها الدموع الخدود، زلزلة يظهر فيها التقاطع والصدود، يفر الولد من الوالد والحميم من الحميم، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

انظر لنفسك قبل أن لا يمكن النظر، وتفكر في أمرك قبل أن لا تنفع الفِكَر، ومثل يوم الحشر إذا بدا الهول وظهر، وتزود للرحيل وتأهب للسَّفَر، وخذ عُدّتك لنقلتك فلست بمقيم، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ١٣٢)

أين الأولون ومن مضى من الآخرين؟!

أين الأولون ومن مضى من الآخرين؟ أين آدم صفوة رب العالمين؟ أين نوح أول المرسلين؟ أين إدريس رفيع[٢] رب العالمين؟ أين إبراهيم خليل الرحمن في النبيين؟ أين موسى الكليم من أولي العزم من المرسلين؟ أين عيسى روح الله وكلمته حجة الله على الزاهدين؟ أين محمد حبيب الله[٣] من

---

(١) أي: تحفر.

(٢) يشير إلى قول الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

(٣) قلت: ثبت من قول النبي ﷺ: «إِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ»، أخرجه مسلم وغيره، والخلة أعلى من المحبة، فنبينا ﷺ خليل الله كما أن أباه إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليل الله.

بين سائر المسلمين، صلى الله عليه وعليهم أجمعين. أين أصحابه الأبرار، والتابعون الأخيار؟ أين الأُمم الماضية؟ أين القرون الخالية؟ أين الذين نُصِبَتْ على مَفارقهم التيجان؟ أين الذين قهروا الأبطال والشجعان؟ أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب؟ أين الذين تمتعوا باللذات من المطاعم والمشارب؟ أين الذين اعتزوا بالأجناد والسلطان؟ أين أصحاب السطوة والأعوان؟ أين أصحاب الأسرة والولايات؟ أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات؟ أين الذين قادوا الجيوش والعساكر؟ أين الذين عَمَروا القصور والدساكر[1]؟ أين الذين ملؤوا ما بين الخافقين[2] فخراً وعزاً؟ أين الذين فرشوا القصور خَزّاً وقَزّاً[3]؟ أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبة وهَزّاً؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨]. أفناهم والله مُفني الأمم، وأبادهم مبيد الرِّمَم، وأخرجهم من سعة المساكن والقصور، وأسكنهم في ضيق اللحود والقبور، تحت الجنادل والصخور، قد خلت من كثرتهم أماكنهم، ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥]. لم ينفعْهم ما جمعوا من الحطام، ولا أغنى عنهم ما كسبوا من حلال وحرام، أسلمهم الأحبة والأولياء، وهجرهم الإخوان والأصفياء، ونسيهم الأقرباء والبعداء، ولم يعلموا أهم أشقياء أم سعداء؟ فنُسُوا وأُبْعِدوا، ولو نَطَقُوا لأنشدوا:

مقيم بالحَجُون[4] رهين رَمْس[5] وأهــلـي نـازلــون بكــلِّ وادِ

---

(١) مفردها: دَسْكَرَة، وهي بناء كالقصر يكون للملوك. والدسكرة: القرية العظيمة.

(٢) الخافِق: الأُفُق، والخافقان: أُفُق المشرق وأُفُق المغرب.

(٣) الخز من الثياب: ما ينسج من صوف وإبْرَيْسَم، أو من إبْرَيْسَم خالص. والقز: الحرير.

(٤) جبل بمكة تردد ذكره في الشعر. «وسيط». ولعله يتضمن معنى البعد، فإنه يقال: سِرْنا شوطاً حَجُوناً: بعيداً طويلاً.

(٥) الرمس: القبر.

كأنـي لـم أكـن فيهم حبيبـاً ولا كانوا الأحبة في السَّوادِ[1]

فعـرجـوا بـالسـلام فـإن أبيتـم فأوموا بالسلام على البِعـادِ

فلـو أنـا بمَـوْقِفكـم وقفنـا لـزدنـا فـي المحبـة والـودادِ

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ١٤٦-١٤٧)

بينكم وبين القوم كما بين اليقظة والنوم

إخواني، بينكم وبين القوم كما بين اليقظة والنوم، رحل أهل الورع، وبقي أهل الطَّمَع، سبحان من أعطاهم، ومَنَّ عليهم وأولاهم، أعرضوا عن دنياهم ورفضوا هواهم، فبلغوا من سيدهم مناهم، إذا توانى المُفَرِّط حَقَّقُوا، وإذا أَمِن المُضَيِّع أَشْفَقُوا.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ١٥١)

يا مشغولاً عن طريقهم بالمال الذي جمع

يا مشغولاً عن طريقهم بالمال الذي جَمَع، يا مَنْ لاحت له مَحَجَّةُ الهدى فلما رأى رَجَع، يا مَنْ ناطقته العِبَر وحادثته الفِكَر وما انتفع، يا زارع التفريط سيحصد الزارعُ ما زَرَع، يا طويل الأمل تأمّل رفيقك ماذا صنع؟! اغتنم حياتك فإنما الحياة كبَرْقٍ لَمَع.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ١٥١)

* * *

---

(١) يعني: في السواد من القلب؛ أي: حَبَّته، أو السواد من العين؛ أي: حدقتها.

يا من قد حل التلف بفنائه

يا من قد حَلّ التَّلَف بفِنائه، وناصبه الحتف بإزائه، وأحاط به الهلاك بين يديه ومن ورائه، وجَدَّ به الرحيل عن الدنيا وحبها في سويدائه، يا أسير مرضه وقد رضي بدائه، يا جائراً حائراً بعد رشده واهتدائه، يا من نفسه على الحقيقة من أكبر أعدائه، يا طامعاً في البقاء قد رأى مصير آبائه، يا مبارزاً بالذنوب مهلاً أيها التائه، أين الذين قبلك في دارك مكثوا؟! وأوغلوا في طلب الدنيا وبحثوا، ومالوا إلى الهدى فلعبوا وعبثوا، نُقِضُوا والله بعد قُوَاهم ونُكِثُوا[(١)]، وأقاموا في القبور بعد العصور ولبثوا، وعن قليلٍ فكأَنْ قد بُعِثُوا، لقد أسكت الردى ألسنتهم الفصيحة، وهَشم البلاء أجسادهم الصحيحة، وشان البِلى وجوههم الصبيحة، وأَحَلّ العصيانُ بهم كل فضيحة.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ١٥٥)

كم قتلت الدنيا أحبابها!

كم قتلت الدنيا أحبابها! كم ختلت بالمنى[(٢)] خطابها! غادرت مُحِبَّها لَقًى[(٣)] صريعاً، وضربته بسوط الفراق ضرباً وجيعاً، وأعدمته ما ملكه جميعاً، بينا هو نحو لذاتها يميل، أصبح مُلْقىً بين أهله كالذليل، يندم على التفريط والدمع يسيل، ويبكي زمناً مضى بالتسويف والتعليل، فاعتبر بالراحلين قبل

(١) أي: نُقِضُوا وطُمِسُوا، كما يُنْقَض الغزلُ من بعد قوة.

(٢) في الأصل المطبوع: «بالمرء»، وهو خطأ ظاهر؛ فلا وجه له، والصواب -إن شاء الله- ما أثبته، فإن رسم «بالمنى» فيه قرب من «بالمرء»، فأظن الخطأ حصل من هذا. والمعنى: أن الدنيا خَدعت خطابَها بالأماني الكاذبة.

(٣) اللَّقى: ما تُرِك وطُرِح لهوانه.

الرحيل، واغتنم أيامك فقد بقي القليل.

يا خاطب الدنيا إلى نفسها	إن لها في كل يوم خليلْ
تستنكح البعل وقد وطّنتْ	في موضع آخر منه بديلْ
ما أقتل الدنيا لخطابها	تقتلهم قِدْماً قتيلاً قتيلْ
تزودوا للموت زاداً فقد	نادى مناديه الرحيل الرحيلْ

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٣٧)

تدبروا عيوب الدنيا

عباد الله، تَدَبَّروا عيوبَ الدنيا وعُوها، وأيقِنوا بقرب فِراقها فَوَدِّعُوها، وأجمِعوا على تركها فلا تَجْمَعوها، وبالِغُوا في نقضها فضَعْضِعُوها[(١)]، وضَعُوها[(٢)] فإنها لمُكْرِمِها مُهينة مَهينة، ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

كم وَعَظَتْ فأفصحت، وكم عَرَّضَتْ وصَرَّحَتْ[(٣)]، كم أحزنتْ بعد أن أفرحتْ، وأضحكتْ سِنّاً ثم أبكتْ عَيْناً فأقرحت[(٤)]، والعجب لاغترار نفسٍ مِسْكينة! ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾.

زخرُفها مَصْقُول، مُقِيمها مَنْقُول، مُحِبُّها مَقْتُول، ليس للهائم بها معقول[(٥)]، إنها لتُقِرُّ بالمَكر وتَقُول، ولكن أين العقول الرزينة؟! ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾.

---

(١) أي: فاهدموها. ضعضع البناء: هَدَمَه حتى الأرض.

(٢) أي: أهينوها.

(٣) أي: تارة تظهر عيوبها بالتعريض والإشارة، وتارة بالتصريح والعبارة.

(٤) أي: فجعلت في العين قَرْحاً؛ أي: جرحاً. أو المعنى: أبكت عينه حتى قَرِحَ قلبُه من حُزْنه.

(٥) أي: عقل، قال في «اللسان»: «يقال: ما له معقول؛ أي: عقل، وهو أحد المصادر التي جاءت على مفعول كالميسور والمعسور».

تأمّل فِعلها بمَنْ شَادَها، انظر آخرها عند مَنْ استفادها، تفكر كيف أفْلَتَتْ وقَتَلَتْ صيادَها! ألا مَنْ أحبها وأرادها؛ فليبع أولاً دينه، ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾.

متى سَلِمَتْ لطالب، متى نجتْ براكب، متى خَلَتْ من معائب؟! مُرُّها صادق، حُلْوُها كاذب، جُبِلَتْ على الفساد في أصل الطِّينة، ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٣٧)

﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ﴾

لقد وَعَظَتْك الدهور، بمرور الأيام والشهور، ورأيت الحزن عُقَيْبَ السرور، وعلمت أن الزمان بأهله عَثُور، وتيقنت أن آخر الأمر القبور، وستخرج من القصور على القُصُور[1]، فإلامَ هذا التكاسل والفتور؟! كم خَفَتْ في الأرض بُدُور! وكم خَلَتْ من أهاليها دُور! أَعَمِيَتْ العيون أم هي عُور؟! ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

احذر من الدنيا فإن حُسْنَ الدنيا زُور، إنها لتُوَدِّعُ مِنْ أول ما تَزُور، إنما هي قَنْطَرة للعبور، ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥، والحديد: ٢٠].

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٣٩)

* * *

(١) الأولى: جمع مفرده قصر، وهو معروف. والثانية: مفرد معناه: العَجْز والفشل وعدم الإصابة.

ما هذا السكون إلى دار الدوائر؟!

ما هذا السكون إلى دار الدوائر؟! ما هذا الانحراف إلى حَرْفِ جُرُفٍ هائر[1]؟! أما تَلَمَّحَتْ أبصارُ البصائر ما إليه الأمرُ صائر؟! كيف آثرتم الرذائل على المفاخر؟! إن عَيْن اللبيب تَرى الآخر. أَمَا أنت راحلٌ عن قريب، وساكن بيتاً أنت فيه غريب؟! فَخلِّ مُخَالَّة[2] الدنيا وانطِقْ في طلاقها، واخْلَعْ خِلَعَ[3] باطلها واعمل في فِراقها؟ وحَصِّل للفَناء كَفَناً من العمل، وأمْلِك سَمْعَ ذكرِ الموت على سَمْعِ الأمل[4]، واتخذ راحلة تَشُدّ عليها رَحْل الرحيل، وكن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل[5]، وتذكر أخِلاّءَها كيف تَخَلَّتْ عنهم، وتلمَّح مُوَاصِليها كيف انْفَصَلَتْ عنهم، وأعلم جوارحَك بقُرْب التَّفَرُّق، وحَدِّث أعضاءَكَ خَبَرَ التمزّق، وابك عليك قبل أن يَبْكي الغَيْر، وليكن جُلّ أسَفك على حِرمان الخير.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٤٣)

---

(١) أي: بالٍ ضعيف قد تداعى للانهدام. والجرف: شق الوادي إذا حَفَر الماءُ في أسفله. وفي التنزيل: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩].

(٢) يعني: اترك مُخَالَّة الدنيا؛ أي: صداقتها. خالّه مُخَالَّة وخِلالاً: صادقه. ويقال أيضاً: خَالَلَهُ - بفَكِّ الإدغام -.

(٣) جمع خِلْعة، وهي ما تنزعه من الثياب ونحوها.

(٤) يعني: اجعل ذكر الموت الملك وأطع ما يمليه عليك؛ لا الأمل، فإنه مخادع يلقي بك في المهاوي.

(٥) هذا نص حديث صحيح عن النبي ﷺ أنه قال لابن عمر: «كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». أخرجه البخاري وغيره.

قَصِّر بدنياك الأمل

مَنْ تفكر في العِبَر، ونظر في الغِيَر[1]؛ علم أن الآدمي يَفْنى ببقائه، ويَسْقم بسلامته، ويُؤْتى من مأمنه، وما اجتمع لأحدٍ أمَلُه إلا أسرع في تفريقه أجَلُه، ومَنْ تصور رحيلَه، اختار غير اختياره اليوم، ومَنْ بَعُدَتْ هِمَّتُه لم يرض بدون[2]، ومَنِ استشعر الحساب تنغصت لَذَّتُه، ومَنْ أصغى إلى هاتف الإنذار سَمِع صوتَ المؤَذِّن بالرحيل، ومَنْ زار القبور بفكره، علم ما ندموا على فِعله، وتأسفوا على فَوْته، وتَيَقَّنَ أنه غداً عندهم.

قَصِّــر بــدنيــاك الأمــل ... مــن قبــل إدراك الأجــل

فَلَتَــرْحَلَــنَّ كمِثْــل مَــنْ ... قــد كــان قبلــك وارتحــل

واحــذر وقــوفــك فــي غــدٍ ... عنــد الحساب مِن الخجـل

وقــد اعتــرفــت بمــا اقتــرفْـ ... ـتَ مــن الخطــايــا والــزلــل

فــإلــى متــى هــذا الفتــو ... ر وذا التــوانــي والكســل

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٤٦)

يا ذاهباً في شططه

يا ذاهباً في شَطَطِه[3]، يا واقفاً مع غَلَطه، يا متعرضاً لعقوبة الإله وسخطه، يا مَنْ لا يفرق بين صحيح النُّصح وسَقَطه[4]، أمَا لَهُ عِبرة

---

(١) غِيَر الدهر: أحواله وأحداثه المتغيرة.

(٢) الدُّون: الخسيس الحقير.

(٣) الشَّطَط: تجاوز القَدْر والتباعد عن الحق.

(٤) أي: خطئه.

بِفَرَطه[1]، هلاّ بادر عمره في جمع لَقَطه! هلاّ عَبّأ متاع الرحيل في سَفَطه[2]! ألا حَذِر مِن سيفٍ في يَدِ مُخْتَرِطه[3]! كلا لو صَحَا لاتّعَظ، وأثّر فيه اللوم وامتعظ[4]، لكنّ قلبَه في غاية الغِلَظ، لا يلتفت إلى من لام ولا من وَعَظ.

إلامَ تُمَنّي النفس ما لا تنالُه وتذكر عيشاً لم يَعُدْ مُذٌّ تَصَرَّما

وقد قالت السَّبعون للهو والهوى دعا لي أسيري واذهبا حيث شئتما

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٥١)

يا مبارزاً بالقبائح مَهِّدْ عذرك

يا مبارزاً بالقبائح مَهِّدْ عُذْرَك، يا مُواصلاً نقض العهود جَانِب غَدْرَك، يا مديماً للزلل تدبّر أمرك، إنْ آثرت صحبةَ المتقين فاشرح صَدْرَك، وإن أحببت حَلاوة العواقب فاستعمل صَبْرَك.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٥١)

انتبهوا من رقدات الأغمار

إخواني، انتبهوا من رَقَدَات الأغمار[5]، وانتهبوا لحظات الأعمار، وقاطعوا الكَسَل فقد قطع الأعذار.

---

(١) أي: سابقيه ومتقدميه.

(٢) السَّفَط: نوع من الأوعية.

(٣) أي: مُسْتَلّه من غِمْده.

(٤) لعلها لغة في «امتَعَضَ»، وامتعض من الأمر: شَقّ عليه وأوجعه. وهو المقصود هنا.

(٥) مفرد غَمْر وغَمَر، وهو الرجل الذي لم يجرب الأمور.

العمر يسير وهو يسير، فأقصروا عن التقصير في العمر القصير.

حذارِ حذارِ قبل عَدَمِ الفِرار، أيها الشيوخ آن الحصاد، أيها الكهول قرب الجِذَاذ[1]، أيها الشباب كم جَرّد الزرعَ جَرَادٌ.

وحدثتك الليالي أن شِيمتَها ... تفريقُ ما جمعتَه فاسمع الخَبَرا

وكن على حَذَرٍ منها فقد نَصَحَتْ ... وانظر إليها ترى في صَرْفها[2] العِبَرا

فهل رأيت جديداً لم يَعُدْ خَلَقاً[3] ... وهل سمعتَ بصَفْوٍ لم يَصِرْ كَدَرا

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٥٣)

الدنيا كنبات توجه فيه الصلاح

الدنيا كَنَباتٍ توجه فيه الصلاح، فسأل زُرّاعه له الغيث في المساء والصباح، وهبت نسيم الجَنوب، وأقبل الرعد له اضطراب وصياح، فجاده فأجاده ونفع ذلك السّماح[4]، فتبسم الروض تبسم المحبين عند المزاح، فلما تمّ أمره وانتظر به الأرباح، هبت عليه صَرْصَر الهلاك، ودامت باللحاح، ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

يا مَنْ ضَيّع في المعاصي عمره، يا مَنْ غلبت على قلبه السكرة، يا مَنْ لا تصفو في الآخرة عنده فِكرة، ويحك تزود للسَّفْرة، فقد بقي القليل فتأهب لنزول الحُفرة، ثم تقوم مبنياً بالقُدْرة، وتحضر للحساب في الحَضْرة، وتُسْأل

(١) جَذّ النخل جَذّاً وجذاذاً: قطع ثمره وجناه. والمعنى: أيها الشيوخ قد دنا حصادكم وقرب رحيلكم وأوشك إلى الأجداث انتقالكم.

(٢) أي: في نوائبها.

(٣) أي: بالياً.

(٤) أي: الجود.

عن الخطرة والنظرة، وحيداً لا جمع ولا كثرة، فقيراً لا تملك ذَرّة، والعَين كالعَين في سرعة العَبْرة، والمعاتبة يوم المعاينة مُرّة، والفقر شديد ولا ساعة العُسْرة، ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨].

قام الناس ينفضون التراب، فزال الشك والارتياب، وذلت للأهوال الرقاب، وحارت العقول والألباب، وحضر الميزان والحساب، وتميَّز الخطأ من الصواب، وقوي على العاصين العتاب، فالحاضر منهم بالحزن قد غاب، وكيف لا والنار المآب؟ والسؤال دقيق ولا جواب، والحاكم رب الأرباب، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الكهف: ٤٩].

كتاب ينطق بما جرى شفاهاً، كتاب عَرف بصفات الأعمال وحواها، تُعْرَضُ خائنةُ الأعين على مَنْ قد رآها، وخافية الصدور صاحبها أخفاها، فيجازي بالذرة من الخير ولا ينساها، سبحان مَنْ قَدَّر الأمور وأمضاها، وأسخط النفوس تقديره وأرضاها، وأحْضَر زُمَرَ المتقين ثم نجاها، زرعوا جنات اليقين فالتقطوا جَنَاها، فأما زُمَرُ الجَحْد فالنار مأواها، تستغيث عطشى ولو رحمها سقاها، الغسلين شرابها، والزقوم مرعاها، عُرِضَتْ عليها ذنوبٌ قد وصفها الكتاب وسَمّاها، فاستغاثت فما أُجيبت كما لم تُجبْ مَنْ ناداها، ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٥٤-٢٥٥)

يا غافلًا عن مُلِمّ عن قليل حادث

يا غافلاً عن مُلِمّ عن قليل حادث، يا راحلاً وهو يظنّ أنه مقيم لابث، يا نائماً قد أزعجته المقلقات البواعث، يا لاعباً والليالي في سيره حثائث،

يا معجباً بزخارفٍ في ضمنها الحوادث، يا مخموراً بالمنى، الخمر أُمُّ الخبائث، يا مطلوباً بالجد وفعله فعل عابث، يا حريصاً على المال مالُه حَظُّ وارثٍ، إياك والدنيا إنّ حلفها حلف حانث، لا تسمعَن قولها فالعزم عزم ناكث.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٥٩)

يا من يظن أنه بالمنى ظافر

يا مَنْ يظنّ أنه بالمُنَى ظافر، وقد عَلِقَتْ به من المنون أظافر، يا مَنْ نقصه على الدوام وافر، يا مَنْ هو عن مصالحه ناءٍ نافر، أين زادك؟ قل لي يا مسافر؟ كأنك بوجه الردى في وجهك سافر[1]، ويحك! أَبْعِدْ عن ديار الغفلة وسَافِرْ، ويحك! اذكر الغاسل ولا تنس الحافر، وا عجبا لك! أمؤمن أنت أم كافر؟

يا ساكنَ الدنيا أتَعْمرُ منزلاً	لم يَبْقَ فيه مع المنية ساكن
الموت شيء أنت تعلم أنه	حَقٌّ وأنت بذكره متهاون
إن المنية لا تُؤَامِر مَنْ أَتَتْ	في نفسه يوماً ولا تستأذن

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٥٩-٢٦٠)

إلى متى هذه الغفلة وقد علمتم المصير؟!

إخواني، إلى متى هذه الغفلة وقد علمتم المصير؟! إلى متى هذه الآمال والعمر قصير؟! إلى متى هذا الحجاب والأمر خطير؟! إلى متى هذا التسويف

(١) أي: كأنك بالردى قد جاءك كاشفاً عن وجهه حاسراً.

فقد خذلكم التقصير؟! إلى متى هذا العمى عن التحقيق والناقد بصير؟! إلى متى هذا التواني وقد قرب الرحيل إلى الحفير؟! إلى متى هذه القسوة ولا معين ولا نصير؟

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٦١)

كأنك بالموت قد أزعجك وهالك

كأنك بالموت قد أزعجك وهالك، فنَازَلك وأنزلك عن عِزِّك وأزالك، وألحقك بأمك وأبيك لا أَبا لك، وقد بقي القليل فاعقل حالك، واصْحُ من سكرتك وأَطع عُذّالك، واعتذر إلى مولاك وقد أقالك، واسمع نصح شَفِيقٍ يَرْثي لك.

خُـذِ الوقتَ واعلم بأن اللبيـ ـــب يـأخـذ مـن يـومـه للغـدِ
فمـا ينفـع المـرءَ بعـد المنو ن قـــولُ النـــوادب لا تُبْعِــدِ

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٦١-٢٦٢)

أهل القبور قد أُسِروا

إخواني، أهل القبور قد أُسِروا، وأكثر القوم في تجارتهم قد خَسِروا، مُرّوا على القوم واعتبروا، وتفكروا في أحوالهم وانتظروا، يتمنون العود وهيهات! ويسألون البِدار وقد فات.

فيا مُطْلَقاً اذكر قيودهم، ويا متحركاً قد عرفت هُمُودَهم، خَلِّص نفسك من أسر الذنوب، وتأهّب فإنّك مطلوب، وتذكر بقلبك يومَ تُقَلَّب القلوب، قبل أن يُمْسِك اللسان، ويتحيرَ الإنسان، ويزولَ العرفان، وتُنْشَرَ الأكفان،

وتُزَارَ الحُفْرة، وتَطُولَ السَّفْرة، ويأتيَ مُنْكَرٌ ونَكير، ويَقْوى الشهيقُ والزفير، ويَبْقى العبدُ هناك أسيراً، إلى أن يقوم عُرْيَاناً حسيراً.

فحينئذٍ تنتثر الكواكب، وتنتشر المصائب، وتنسد المذاهب، وتتبيّن العجائب، وتسودّ الوجوه، ويفوت العاصي ما يرجوه، وتُثْقَل على الظهور الأوزار، ويؤخذ الكتاب باليمين أو باليسار، وليس لأحد هناك قرار، إلا الجنة أو النار.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٦٢)

اعتبروا بالسابقين وتفكروا في الراحلين

إخواني، اعتبروا بالسابقين، وتفكروا في الراحلين، لعل القلب القاسي يلين، عجباً لمن رأى فعل الموت بصحبه، وأيقن بتلفه ونحبه، وسكن الإيمان بالآخرة في قلبه، ثم نام غافلاً على جنبه، ونسي جزاءه على جُرمه وذنبه، وأفرده الموت عن أهله وسِربه، ونقله إلى قبرٍ ذَلَّ فيه بعد عُجْبه، فيا ذا اللب جُزْ على قبره وعُجّ به، يا منذَراً في زمنه يكفي تقليله، يا مفرطاً في أمره وقد دنا رحيله، يا ضالاً طريق الهدى وقد وضح سبيله، أما يكفي في موعظته أخوه وخليله؟! أما حدثه بالنقلة إلى القبور جِيلُه؟!

لتتركَنّ قَصْرَكَ المَبْنِيّا ... وكَرْمَكَ المُغَرّسَ المَسْقِيّا
والحوضَ والبستانَ والرَّكِيّا[1] ... والمجلسَ المُنَجَّدَ البَهِيّا
والبابَ والوَصِيدَ والنَّدِيّا ... والتِّبْرَ والأوراق والحُلِيّا
لوارثٍ عَهِدْتَه عَصِيّا ... ثم تزورُ جَدَثاً قَصِيّا

---

(١) أي: البئر.

فـي مُلْحَدٍ[1] تُلْقـى به مَنْسِيّا قَضَاءُ رَبٍّ لم يــزل عَلِيّـا

وكـان وعـد ربنـا مَأْتِيّـا

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٦٢-٢٦٣)

أيها الغافل عما بين يديه

أيها الغافل عما بين يديه، لا يَذكر الموتَ ولا يلتفت إليه، شغله عن العواقب ما لديه، وألهاه ما له عما عليه، بادر أيام شبابك، قبل فِراق أحبابك، واغتنم أحْيَانَ حياتك، قبل مُوافاة وَفَاتك، فالعمر بالسنين يذهب، والأجل بمرور الأوقات يُنْهب، فالبِدار البِدار قبل الفَوَات، والحِذار الحِذار من هجوم الممات، اخْلُ بنفسك في دار المعاتبة، وأحضرها دُسْتور المحاسبة، وارفع عليها سَوْط المعاقبة[2]، إن لم تفعل خَسِرْت العاقبة.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٦٣)

* * *

---

(١) المُلْحَد: اللَّحد، وهو الشَّق يكون في جانب القبر.

(٢) ما كان من عقوبات وردت في النصوص فنعم؛ كمن يسلم نفسه للحاكم المسلم ليقيم عليه حداً مثلاً، أما غير ذلك مما كان يصنعه بعض الرهبان من بني إسرائيل فيما يروى عنهم، كمن فقأ عينه لما نظرت إلى الحرام! أو كمن قطع رجله لما خرجت إلى الفاحشة! فلا.

وقد نبه إلى مثل هذا ابن الجوزي نفسه، فقال: «اعلم أن التائب كلما اشتد ندمه؛ زاد مقته لنفسه على قبح زلته، فمنهم من قَوِيَ مقته لها، ورأى تعريضها للقتل مباحاً في بعض الأحوال، فعَرَّضها له، كما فعل ماعز والغامدية».

قلت: قصتهما في «صحيح مسلم» (١٦٩٥) وغيره.

﴿قُلْ إِنَّ المَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾

إخواني، لا دافع عنكم من الموت يَقِيكم، وإنه في هُوَّة[1] الهلاك يلقيكم، وإنما تندمون إذا غُصَّت تراقيكم[2]، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

يا لها من صَرْعة عجيبة، ومصيبة فوق كل مصيبة، مرَّت سهام الموت لكم مصيبة، فهل يَرُدُّها تَوَقِّيكم؟! ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾.

أقْبَل التَّلَفُ وَجَدّ، فَرَدَمَ بابَ السلامة وسَدّ، وجاوز الألم الحَدّ، وما رَدّ راقيكم، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾.

بَلَغ الرُّوحُ التراقي، وبادر بالجدِّ التراقي، ووقع اليأس من التلاقي، فتَحَيَّر الساقي الذي يَسْقِيكم، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾.

سبحان مَنْ حكم وقضى، بسُكْنَى الثَّرى بعد الفَضَا[3]، فليس لنا إلا الرضى، كما ذهب مَنْ مضى يذهب باقيكم، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٦٣-٢٦٤)

---

(١) الهُوَّة: الحفرة البعيدة القَعْر.

(٢) التراقي: مفردها تَرْقُوَة، وهي عظمة مشرفة بين ثُغرة النحر والعاتق. وغُصّت تراقيكم؛ أي: بلغت الروح التراقي حتى غَصَّتْ التراقي بها كما تَغَصّ بالطعام.

(٣) أي: الفضاء. ولعلها الغضا، وهو الغضى: نوع من الشجر معروف.

أنت محاسب على ما ضيعت

ويحك! أنت محاسب على ما ضَيّعْت، مسؤول عن كل ما جَمَعْت، مناقَشٌ على كل ما فعلت، ألا تتصور بقلبك عتابك على ذنبك؟! ألا تَتَمَثّل بلُبِّك شهادةَ أعضائك وكُتُبِك؟! مَنْ لك إذا جُوزِيتَ على كَسْبك؟! فقل لي: ماذا تقول لربك؟! يا نازلين منازل الهالكين، يا مقيمين في مقام الراحلين، أين مَنْ كان قبلكم؟ أين مَنْ فعل فعلكم؟ قِيدوا إلى البِلَى فانقادوا، وبادوا في الثَّرَى وما عادوا، ما رَدَّ عنهم ما بَنَوْا وما شادوا، ولقد فاتهم يوم الرحيل ما أرادوا.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٦٩)

أما يحق البكاء لمن قد مضى زمانه؟!

لو تفكرتِ النفوسُ فيما بين يديها، وتذكرت حسابها فيما لها وعليها، لبعَثَ حزنُها بَرِيدَ دَمْعها كلَّ وقت إليها، أَمَا يحق البكاء لمن قد مضى زمانه؟! أما يحق البكاء لمن قد ذهب أوانه؟! أما يحق البكاء لمن طال عصيانه؟! نهاره في المعاصي فقد زاد خسرانه، وليله في الخطايا فقد خَفّ ميزانه، وبين يديه الموت الشديد لقاؤه وعِيَانه، والقبر المظلم المنهدمة أركانه، والحشر العنيف فيه ذله وهوانه، والحساب اليسير يُنْشر فيه ديوانه، والموقف الطويل فيه غمومه وأحزانه، والجحيم الشديد فيه مِنَ العذاب ألوانه.

أنوح على نفسي وأبكي خطيئةً ... تقود خطاياً أثقلت مِنِّيَ الظَّهرا

فيا لَـذَةً كانت قليلاً بقاؤها ... ويا حسرة دامت ولم تُبْق لي عُذْرا

ذِكْر العَرْض أجرى دموعَ الخائفين، وهولُ الحساب قَلْقَلَ أَفئدة التائبين.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٧٧)

يا غافلاً عن أسباب المصالح

يا غافلاً عن أسباب المصالح، أترضى بالشَّين والقبائح؟! كأنك بك قد قامت النوائح، ونُقِلْت إلى بُطون الصفائح[١]، ثم قمت ولا عمل صالح، فاستشهدت عليه الجوارح.

نبه هذه النفس النائمة، أعلمْها ما هي عليه قادمة، قل لها: إلى متى يا ظالمة؟! مَنْ لها إذا شَقِيَتْ بجهلها، وعلمت منازل المتقين وليست من أهلها، وغُلَّتْ إذ غَلَّت فاغْتِيلَتْ بغِلِّها[٢]، وأُكْرِم المتقون وأهينتْ بذُلِّها؟!

إلامَ هذه الآمال، والناس كلهم على ارتحال؟! وا عجبا ممن يَنسى المآل، وقد شُدّتِ الرحال! إلى كم تطمع في المُحَال؟! إلى متى تُوغِل في الضلال؟! أترضى بهذا الحال؟! أمَا المواعظ قد صدقت؟! أمَا الزواجر قد نَطقت؟! أما تعتبر بأُمَمٍ قد سَبقت؟! أمَا رأيت خسارَ أَكُفٍّ بالهوى عَلِقَتْ؟!

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٩٠)

كيف بكم إذا فاز الأبرار وخبتم؟!

عباد الله، كيف بكم إذا فاز الأبرار وخبتم، وحضر المتقون وغبتم؟! كم ضيعتم الأوقات النفيسة ولعبتم! ولو سمعتم وصفكم من غيركم تَعِبْتُمْ، أمَا الموت عن قليلٍ يأتيكم؟! أمَا اللّحود بعد أيام مثاويكم؟! أمَا داعي الرحيل قد أسمعكم؟! أمَا القيامة غداً تجمعكم؟! كم بارزتم بذنب وما استحييتم! كم

---

(١) يعني: القبور. والصفائح: مفردها صفيحة، وهي هنا الحجارة العريضة.

(٢) هذه العبارة تحتمل عدة معانٍ وقد ضبطنا أحدها، وهو أن النفس قد غُلَّت (قيدت بالأغلال) إذ غَلَّت (خانت) فاغتيلت (أُخذت فأهلكت) بغِلِّها (بما فيها من عداوة وحقد كامن). والله أعلم.

خُوِّفْتم من العقاب وما ارْعَوَيتم! أعرفتم قَدْر ما على النفوس قد جَنيتم؟! أنَسِيتم أنّ الله يعلم ما أخفيتم؟! لقد نهض المتقون نهضةَ عازم، ولقد شَدّ الصابرون لطلب الجنة الحيازم.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٩٨)

أين مضى رفقاؤنا؟!

إخواني، أين مضى رفقاؤنا؟! أين ذهب معارفنا وأصدقاؤنا؟! رحل أقرانُنا، وقلّ والله بقاؤنا، هذه دورهم فيها سواهم، هذا مُحِبُّهم قد نَسِيهم وجَفَاهم.

أين أصحاب القصور الحصينة؟! والأنساب العالية الرصينة، والحُلُوم[1] الوافية الرزينة، والمفتخرون بفاخر الزينة؟! قَبَضَتْ عليهم أيدي المنايا فظَفِرَتْ، ونُقِلُوا إلى أجداثٍ ما مُهِّدَتْ إذ حُفِرَتْ، ورَحلوا بذنوبٍ لا يُدْرى هل غُفِرت؟!

فالصحيح منهم بالحزن قد سَقُم، والمدعو إلى دار البِلى أسرع ولم يَقُم، والكتاب قد سُطرَ بالذنوب فَرُقِم، ولذيذ عيشهم بالتنغيص قد خُتِم، وفِراقهم لأموالهم وأحبابهم قد حُتِم، والولد قد ذلّ بعد أبيه ويَتِم.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٣٠٤)

تفكر في القوم كيف رحلوا

تفكَّر في القوم كيف رحلوا، وتذكَّر ديارهم أين نزلوا! واسأل منازلهم عنهم ماذا فعلوا؟! فانتبه من رقادك قبل أن تصل إلى ما وصلوا.

---

(١) أي: العقول. مفردها: حِلْم.

أما يكفي في الهدى والإرشاد رحيل الآباء والأولاد؟! أما يشفي في الإيقاظ ونفي الرقاد عكس المشتهى وردُّ المراد؟! كيف يَتِمّ غَرَضٌ في دار المكر والفساد؟! أمَا أنتم غَرَضٌ لسهام النائبات الشِّداد؟! فابكوا عليكم لا عليهم فهم فَرَطٌ [(١)] وأنتم وُرَّاد[(٢)].

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٣٠٤)

أيها الباكي على أقاربه الأموات

أيها الباكي على أقاربه الأموات، ابك على نفسك فالماضي قد فات، وتأهّب لنزول البلايا وحلول الآفات، وتذكّر قول مَنْ إذا ذَكَرَك قال: مات، ابك على نفسك لا على موتاك، فكأنك بما أتاهم قد أتاك، ولقد صاح بك نذيرهم: أنت في غدٍ كذاك، ولَـيَـنْقُـلَـنَّـك الذي نَقَلَ مِنْ قَبْلُ أباك، وليُخْرِسَنّ بسطوته إذا وافاك فاك[(٣)]، وإنما اليوم لهذا وغداً لذاك.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٣٠٥)

فرس الرحيل مسرج

إخواني، فرس الرحيل مُسْرَج، وإلى وادي القبور المَخْرج، والنعش المركوب بعد الهَودج، كم قتيلٍ للموت مُضَرَّج[(٤)]، ما هتف بمقيم إلا

---

(١) أي: سابقون متقدِّمون.

(٢) مفردها: وارد، وهو الذي يشرف على الماء، والمعنى: فهم سبقوكم وأنتم ستردون على ما سبقوكم إليه من الموت وما بعده.

(٣) أي: فمك.

(٤) أي: مُلَطّخ بالدم.

وأدلج[١]، ولا استدعى نُطْقَ فصيح إلا تلجلج[٢]، سلوا عن الجيران المنازل، وقولوا لها: أين النازل؟ تالله ما تُجيب السائل.

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٣٠٥-٣٠٦)

الدنيا ظل زائل

إخواني، الدنيا ظِلٌّ زائل، وحالٌ حائل، ورُكْن مائل، وسُمّ قاتل، ورفيق خاذل، ومسؤول باخل، كم تَعِدُ الدنيا وكم تماطل! كل وعدها غرور وباطل، تالله ما فَرِحَ بالدنيا عاقل، على نية النَّقْض بُنِيَ البنيان، وعلى شرط الرحيل الأرواح في الأبدان، وإنما الدنيا مَعْبَر إلى دار الحَيَوان، وليست للإقامة فالعجب لنسيان الإنسان!

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٣٠٦)

من الذي طلبه الموت فأعجزه؟

من الذي طلبه الموت فأعجزه؟! من الذي تَحَصّن في قصره وما أبرزه؟! من الذي سعى في مناه فما أعوزه[٣] ؟! من الذي أمّل طول الأجل فما حجزه؟! أيّ عيش صفا ما كَدَّره؟! أيّ قدم سعى وما عَثَّره؟! أيّ غُصْن علا على ساقه ما كَسّره؟! أما أخَذَ الآباء والأجداد؟! أما ملأ القبور والألحاد[٤]؟!

---

(١) أي: سار وارتحل. وأدلج: سار من أول الليل، أو سار الليل كله. والمقصود هنا: إذا هتف الموت بأحد أسرع الرحيل واستجاب لندائه.

(٢) أي: تردد في كلامه ولم يُبِنْ.

(٣) أي: أفقره ومنعه مناه.

(٤) مفردها: لَحْد، وهو الشّق يكون في عُرْض القبر.

أما حال بين المريد والمراد؟! أما سَلَب الحبيب وقطع الوِداد؟! أما أَرْمَلَ النِّسوان وأيتم الأولاد؟! أما تَتَبَّعَ قوم تُبَّعٍ وعَادَ على عَادٍ؟!

«قرة العيون المبصرة» (٢/ ٣١٠)

يا عبد شهوته

يا عبدَ شهوته، يا قتيل غفلته، يا أسير بطالته، ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

لقد حدثتُ مَنْ لا يَعْرِف، وعذلتُ من لا يسمع، وزجرتُ مَنْ لا يَقْبَل، ومتى اتُّهِمَ الترجمان فالأولى له السكوت.

اجلس ساعة في بيت الفكر، وصِحْ على نفسك بصوت اللوم، فإذا جَنّ الليل فعَلِّقْ على قطار[1] المتهجدين، وزاحِم زمرة المستغفرين.

«المنثور» (ص٤٨-٤٩)

يا من ذهب عمره في البطالة

يا مَنْ ذهب عمره في البَطالة، ورضيَ من الدنيا بأقبح حالة، معمورُ الظاهر والباطن مهدوم.

يا معاشر العصاة، لا تحتقروا ذنباً وإن صَغُر، فإن الحشيش يُفْتل منه الحَبْل فيَخْنُق الفيلَ المُغْتَلِم[2].

---

(١) أي: جماعتهم وزمرتهم. يقال: تقاطر القوم؛ أي: جاؤوا أرسالاً.

(٢) أي: الهائج.

يا مَنْ يذنب ولا يتوب، يا مَنْ أعمتْ قلبَه الذنوب، يَعِد بالتوبة ولا وَعْد عُرْقُوب[1].

إلى متى تتعثر في ظلمة البِعاد، عِدْ نفسَك بتوبة، واعْزِم وقد حَصَّلْتَها.

وَعَـــدْتَ نَفْسَـــك تـــوبـــةً اعـــزم وقـــد حَصَّـلْتَهـــا

قد صاح بوق رحيلك، وحُطَّتْ أطناب الخِيَم[2]، وما يُرى[3] لك مركب، وما يُرى لك زاد.

«المنثور» (ص٨٧-٨٨)

تفكر في عمر مضى كثيره

أيها العبد، تفكر في عمر مضى كثيرة، وفي قَدَم ما يزال تعثيره، وفي هَوًى قد هَوَى أسيرُه، وفي قلب مُشَتَّتٍ قد قَلّ نظيره، وتفكّر في صحيفة قد اسودَّتْ، وفي نَفْس كلما نُصِحَتْ صَدّت، وفي ذنوب ما تحصى لو أنها عُدَّتْ.

«اليواقيت الجوزية» (ص٣٠)

يا نفس بادري بالأوقات قبل انصرامها

يا نفس، بادري بالأوقات قبل انصرامها، واجتهدي في حراسة ليالي الحياة وأيامها، فكأنكِ بالقبور وقد تشققت، وبالأمور وقد تحققت، وبوجوه

(١) رجل من العمالقة يُضرب به المثل في خلف الوعد، يقال: مواعيده مواعيد عُرْقُوبٍ.

(٢) أي: حبالها التي تُشَدّ بها، مفردها: طُنُب وطُنْب.

(٣) في المطبوع (دار الغرب الإسلامي): «نرى» وكذلك التي بعدها، مع بقاء «مركب» مرفوعة، وكذلك «زاد»!!

المتقين وقد أشرقت، وبرؤوس العصاة وقد أطرقت، يا نفس، أمّا الورِعون فقد جَدُّوا، وأمّا الخائفون فقد استعدوا، وأمّا الصالحون فقد راحوا، وأما الواعظون فقد صاحوا ونصحوا.

العلم لا يحصل إلا بالنَّصَب، والمال لا يُجْمَع إلا بالتعب، واسم الجواد لا يدركه بخيل، ولا يُلَقَّب بالشجاع إلا بعد تعب طويل.

«اليواقيت الجوزية» (ص٣٣)

إن عزمت فبادر

أيها العبد، إن عزمتَ فبادر، وإن هممت فثابر، واعلم أنه لا يدرك المفاخر مَنْ كان في الصف الآخر.

لا تَحْسَبِ المَجْدَ تمراً أنت آكله ... لا تبلغُ المجدَ حتى تَلْعَق الصَّبِرا

فاصبر للبلايا فحينها يسير، واثبت للرزايا فأجرها كثير.

«اليواقيت الجوزية» (ص٣٣)

حاسب نفسك

أيها العبد، حاسب نفسك في خلوتك، وتفكر في انقراض مدتك، واعمل في زمان فراغك لوقت شدتك، وتدبر قبل الفعل ما يُمْلى في صحيفتك، وانظر هل نفسك معك أو عليك في مجاهدتك؟! لقد سعد من حاسبها، وفاز والله من حاربها، وقام باستيفاء الحقوق منها وطالبها، وكلما وَنَتْ[1] عاتبها، وكلما تَوَاقَفَتْ جَذَبَها، وكلما نظرتْ في آمال هواها غَلَبها.

«اليواقيت الجوزية» (ص٣٣-٣٤)

---

(١) وَنَى: فتَر وضَعُف.

حب الدنيا أقتل من السّمّ

يا هذا، حب الدنيا أَقْتَلُ من السُّم، وشرورها أكثر من النمل، وعين حرصك عليها أبصر من الهُدهد، وبطن أملك أعطش من الرَّمْل، وفَمُ شَرَهك أشربُ من الهِيم، وإنْ خُضتَ في حديثها فأنْطَقُ من سَحْبان، وإن انتقدتَ دنانيرها فأنسبُ[1] من دَغْفَل، حيلتك في تحصيلها أدقّ من الشَّعر، وأنت في تدبيرها أَصْنَعُ من النحل، تجمع فيها الدُّرّ جَمْعَ الذرّ.

يا رفيقاً [في] البَلَه لدود القز، وا عجبا ما انتفعت بموهبة العقل، فأنت كدود القز ينسج دائماً، ويهلك غماً وسط ما هو ناسجه، حِرصك بعد الشيب أحَرّ من الجمر، أبَقِيَ عمر؟ يا أبرد من الثلج! الدنيا في قلبك أعز من الرُّوح، وستصير بعد الموت أهون من الأرض.

أنت في الشر أجرى من جواد، وفي الخير أبطأ من أعرج، معاصيك أشهر من الشمس، وتوبتك أخفى من السُّها[2]، الزكاة أثقل عندك من أُحُد، والصلاة عليك كنقل صخر على ظهر، طريق المسجد في حسبان كَسَلِك كَفَرْسَخَيْ دير كعب، صدرك عند حديث الدنيا أوسع من البحر، ووقت العبادة أضيق من عقد التسعين[3].

يا من هو عن نجاته أنوَمُ من فهد، ضيعتَ وقتاً أنفس من الدُّر.

إن عَرَضَتْ خطيئة وثبتَ وثوب النمر، فإذا لاحت طاعة رُغْتَ رَوَغان الثعلب، فإذا عاملت الناس استعملت غَدْر الذئب.

---

(١) في الأصل المطبوع (مؤسسة الكتب الثقافية): «أنشب» بالمعجمة، وهو خطأ. و«دَغْفَل» هو: دَغْفَل بن حنظلة النسّابة أحد بني شيبان. كما في «اللسان».

(٢) السُّها: كوكب صغير خَفِيّ الضوء في «بنات نعش»، وهي مجموعة كواكب جهة القطب الشمالي.

(٣) عقد التسعين: أن تجعل الأنملة من السبابة في أصل الإبهام.

تَقْدِمُ على الظلم إقدام الأسد، وتَختطف الأمانة اختطاف الحدأة، يا أظلم من الجُلَنْدى[1] ما تأمنك غزلان الحرم، يا عذريّ الهوى في حب الدنيا! يا كوفيّ الفقه في تحصيلها! يا بصريّ الزُّهد في طلب الآخرة.

وا عجبا! القلب أضعف من البعوض، كيف صار أقوى من الجَنْدل[2]؟! ما يعجبه سَجْعُ قُسّ، ولا يؤثر فيه وعظ الحسن، ولا يَرِقُّ لغزل جرير، فليته فسَّر منام الأمل على ابن سيرين اليقظة. قِفْلُ قلبك رومي ما ينفع فيه فَشٌّ[3].

«التذكرة في الوعظ» (ص٢٤)

إليكِ عني يا سريعة الزوال

ينبغي للعبد المؤمن بربه إذا نظر إلى زهرة الدنيا، فدعته إلى نفسها برونقها البهيج، أن يقول لها بلسان الحال: إليكِ عني يا سريعة الزوال! إنما تصلحين للتشويق إلى دار ليس لساكنها عنها انتقال، أنتِ خزف فانٍ وتلك جوهر باق، فَلْتُفَرِّقْ بين الدارين عقولُ الرجال.

«التذكرة في الوعظ» (ص٢٤)

مجالس الذكر

كم لله في مجالس الذكر من عين محرمة على النار! كم قد وضع فيها عن الظهور من ثقل الأوزار! وتنفجر فيها ينابيع الرحمة، ويتوفر فيها على

(١) الجُلَنْدى: عن الجوهري: اسم مَلِك عُمان. «اللسان».
(٢) الجندل: الحجارة.
(٣) الفش: فتح القفل بغير مفتاح.

الحاضرين من النعمة، ويُعْطَى كلُّ سائل ما سأله، ويَبلغ كل آملٍ ما أمله من كرم ذي الجلال والإكرام، ومواهب من له الفضل والإنعام، الذي لا [يتعاظمه] ذنب غفره لجانيه، ولا فضل وهبه لسائليه، فأَحْضِروا في هذه الساعة قلوبكم، واغسلوا بمياه التوبة ذنوبكم، واستغفروا ربكم فإنه يغفر ذنوب المستغفرين، واعتذروا إليه من تقصيركم، فإنه يقبل عذر المعتذرين، واستنصروه على من بغى عليكم، فما أسرع نصرته إلى المنتصرين!

«التذكرة في الوعظ» (ص٢٧)

صاحب أهل الدين وصافهم

يا هذا، صاحِبْ أهلَ الدين وصافهم، واستفد من أخلاقهم وأوصافهم، واسكن معهم بالتأدب في دارَهم، وإن عاتبوك فاصبر ودارهم، إن لم يكن لك مُكْنَة[1] البذر ولم تُطق مراعاة الزرع فقف على رفقة: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٨]، أنت وقت الغنائم نائم، وقلبك في شهوات البهائم هائم، إن صدقتَ فانهض وبادر، ولا تستصعب طريقهم فالمعين قادر، تعرض لمن أعطاهم، وسل فمولاك مولاهم، رُبَّ كنز وقع به فقير، ورُبَّ فضل فاز به صغير، علم الخضر ما خفي عن موسى، وكُشِف لسليمان ما غُطِّي عن داود، لا تحقر نفسك فالتائب حبيب الله، والمنكسر مستقيم، إقرارك بالإفلاس غِنَى، واعترافك بالخطأ إصابة، وتنكيس رأسك بالندم رِفْعة.

«المواعظ والمجالس» (ص١٤-١٥)

* * *

---

(١) المكنة: القدرة والاستطاعة.

أنجح الوسائل لطلب الحوائج

أنجح الوسائل لطلب الحوائج الذل، وأبلغ الأسباب في العفو البكاء، والعِيُّ عن ترتيب العذر بلاغة المنكسر، وليس في المياه ماء يقلع آثار الذنوب من ثوب القلب إلا الدموع، فإنْ صُبّ الماءُ ولم يَزَل الأثرُ فعليك بالاغتراف من بحر الاعتراف، احضُر نادي المجتهدين، ونادهم: طوبى لكم! قد وجدتم قلوبكم فارحموا مَنْ لم يَجِدْ.

«المواعظ والمجالس» (ص٣٢)

حصن الزهد

لَمّا رأى المستيقظون سَطْوَةَ الدنيا بأهلها وخِداعَ الأمل لأربابه لجؤوا إلى حصن الزهد كما يأوي الصيد المذعور إلى الحَرَم.

لاح لهم حَبُّ المشتهى فلما مَدُّوا إليه أيدي التناول بان لهم خيطُ الفَخّ، فطاروا بأجنحة الحذر، وجمعوا الرَّحْلَ قبل الرحيل، وشَمّروا إلى سواء السبيل، فالناس في الغفلات، وهم في قطع الفلاة.

باتت قلوبُهم يقلقها الوَجْد، فأصبحت دموعهم يسترها الجفن، فإذا سمعوا ناطقاً باسم الحبيب أخذ جَزْرُ الدموع في المَدّ، مَنْ قلقه الخوف كيف يسكت؟! مَنْ أزعجه الحُبّ كيف يسكن؟! مَنْ آلمه البعد كيف يصبر؟!

«المواعظ والمجالس» (ص٥٣)

* * *

يا مختار العاجلة

يا مختار العاجلة، بئس ما اخترت، يا مقبلاً على المعاصي أَدْبَرْت، كم تَعِدُ بالتوبة ولا تَفِي، ويحك! إن اللذة بالعقوبة لا تفي، لله در أقوام باعوا الدنيا وحاذروا آثامهم، جعلوا الصوم طعامهم والصمت كلامهم، فالأبدان بين أهل الدنيا تسعى، والقلوب في رياض الملكوت ترعى، قاموا لخوف القيامة بالأوامر، ووقفوا أنفسهم على الخير وباتوا كالمؤامر، هجروا بالصيام لذيذ الهوى في الهواجر، وصَمَتَ اللسان حتى كأنه مقطوع عن الخنا[١] بالخناجر، وجرى الدمع واصباً [٢] حتى لقد محى المحاجر.

«المواعظ والمجالس» (ص٧٦-٧٧)

سكران الهوى بعيد الإفاقة

إخواني، سكران الهوى بعيد الإفاقة، فلو تذكر إقامة الحَدّ زال السُّكْر، ويحك! اغسل العثرة بعَبْرة، وادفع الحَوْبة بتوبة، ما دام في الوقت مهلة، وفي زمن السلامة فسحة، قبل أن ترى السمع والبصر قد كلاّ، وتقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾، فيقال: كلاّ. قبل أن يكون دَمْعُ الأسى مِنْ جفن مَنْ أسى مُنْهلاًّ، ويقال هَلاّ كان هذا قبل هذا هَلاّ.

«المواعظ والمجالس» (ص٢٥١)

* * *

---

(١) الفحش في الكلام.

(٢) أي: دائماً مستمراً.

ما أعظم المصيبة على من فقد قلباً واعياً

يا هذا، ما أعظم المصيبة على مَنْ فَقَد قلباً واعياً، وما أسرع العقوبة إلى مَنْ عُدِم طَرْفاً باكياً، وما أكثر حسرة مَنْ كان عمره ساهياً، وما أَدْوَمَ ندامة مَنْ أمسى وأصبح لاهياً، لقد غلب على قلوبنا الهوى فتملَّكها، واستحوذ على نفوسنا الطمع فأهلكها، ونحن عما يراد بنا غافلون، وبخلاف ما قد علمناه عاملون، فلا الواعظ يشفي منا عليلاً، ولا الإنذار يجد إلى قلوبنا سبيلاً، وقد علمنا أن وراءنا يوماً ثقيلاً، فيا عجبا من غفلةِ مطلوبٍ لا بد من إدراكه، وتمادي مُغْتَرٍ بالسلامة لا ريب في هلاكه! ألا أُذُنٌ تسمعٌ؟ ألا عين تدمع؟ ألا ذاهب إلى الله يَفْزَع؟

«المواعظ والمجالس» (ص٢٧١)

يا مقهوراً بغلبة النفس

يا مقهوراً بغلبة النَفْس، صُلْ عليها بسوط العزيمة، فإنها إن عرفت جِدَّك استأسرَتْ لك، وامنعها ملذوذ مباحها(١) ليقع الاصطلاح على ترك الحرام، فإذا صبرتْ على ترك المباح ﴿فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾.

الدنيا والشيطان خارجان عنك، والنفس عدو مباطن، ومن أدب الجهاد: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم﴾، إن مالت إلى الشهوات فألجمها بلجام التقوى، وإن أعرضت عن الطاعات فسُقْها بسوط المجاهدة، وإن استحلَتْ شراب التواني واستحسنت ثوب البطالة فصِحْ عليها بصوت العزم، فإن رَمَقَتْ نفسَها بعين العُجْب فذَكِّرْها خَساسة الأَصْل، فإنك والله ما لم تجد مرارة الدواء في

---

(١) يعني: الفضول والإسراف وما لا يعني، أما أن يُحَرِّمَ الحلال فلا.

حلقك، لم تقدر على ذرة من العافية في بدنك.

قد اجتمعت عندك جنود الهوى في بيت النَفْس، فأحكمت حِصْن البطالة، فيا حزب التقى تسلحوا بسلاح العزائم، وادخلوا عليها الباب، النفس مثل كلب السوء؛ متى شبع نام، وإن جاع بصبص. الحر يُلْحى [1] والعصا للعبد.

«اللطف في الوعظ» (ص١٧)

أنت في حديث الدنيا أفصح من سَحبان

أنت في حديث الدنيا أفصح من سَحبان[2] وائل، وفي ذكر الآخرة أعيا من باقِل[3]، تَقْدَم على الفاني ولا إقدام ابن معدي كرب، وتجبن عن الباقي ولا جبن حَسّان، ويحك! إنما تُعْجِب الدنيا من لا فهم له، كما أن أضغاث الأحلام تَسُرّ النائم.

«اللطف في الوعظ» (ص١٨)

الدنيا وراءك والآخرة أمامك

يا هذا، الدنيا وراءك والآخرة أمامك، والطلب لما وراءك هزيمة، وإنما العزيمة في الإقدام، جاء طوفان الموت فاركب [سفينة] التقى، ولا ترافق كنعان[4] الأمل، ويحك! انتبه لاغتنام عمرك، فكم يعيش الحيوان حيران!

«اللطف في الوعظ» (ص٢٠-٢١)

---

(١) لحا فلاناً: لامه وعاتبه، والمعنى: أن الحر يُقَوَّمُ باللوم والعتاب لا بالعصا.
(٢) رجل مشهور بفصاحته وبلاغته.
(٣) باقِل: اسم رجل يُضرب به المثل في العِيّ.
(٤) هو كنعان بن نوح على ما قاله بعضهم، وقد أشار قبل إلى الطوفان والسفينة.

الأسقام تزعج الأبدان

الأسقام تزعج الأبدان، فلا بد من التحول ضرورة، كأنك بك في لحدك على فراش الندم، وإنه والله لأخشن من الجندل، فازرع في ربيع حياتك قبل جدوبة أرض شخصك، وادّخر من قوت قدرتك قبل زمان عجزك، واعتبر حِيَلَك مخافةَ الفَقْر في القَفْر.

«اللطف في الوعظ» (ص٢١)

الحذار الحذار

الحِذار الحِذار ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا﴾. الحازم يتزود لما به، قبل أن يصير لمآبه. شجرة الحزم أصلها إحكام النظر، وفروعها المشاورة في المُشْكل، وثمرها انتهاز الفرص، وكفى بذهاب الفرص ندماً، وكم فرصة فاتت فأصبح ربها يَعَضّ عليها الكف أو يقرع السِّنّ. وا عجبا لمضيع العمر في التواني، فإذا جاء متقاضي الروح قال: ﴿إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾، ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

«اللطف في الوعظ» (ص٢١)

يا رابطاً مناه بخيط الأمل

يا رابطاً مُنَاهُ بخيط الأمل، إنه ضعيفُ الفَتْل، لو فتحت عين التيقظ لرأيت حِيطان العمر قد تهدمت، فبكيت على خراب دار الأمل. جسمك عندنا وقلبك على فراسخ، لا بالتشويق ترعوي، ولا بالتخويف تستوي، ضاعت مفاتيحي معك!

«اللطف في الوعظ» (ص٢١)

العلم والعمل توأمان

العلم والعمل توأمان، أمهما علوّ الهمة. أيها الشاب، جَوْهِر نفسَك بدراسة العلم، وحَلِّها بحِلْية العمل، فإن قَبِلْتَ نصحي لم تَصْلُح إلا لصدر سرير أو لذروة مِنْبر. من لم يعمل بعلمه لم يدر ما معه. حامل المسك إذا كان مزكوماً فلا حَظّ له فيما حَمَل. بَحْر قلب العالم يقذف إلى ساحل اللفظ جواهرَ النُّطْق، فتلتقطها أَكُفّ الفَهْم، تالله إن العالم لخاتَم خِنْصَرِ الدَّهْر.

«اللطف في الوعظ» (ص٤٣)

يا طاهر الفطرة لا تتدنس بأنجاس الزلل

يا طاهر الفطرة لا تتدنس بأنجاس الزلل، شَمِّرْ أذيال التقى عن مزبلة الهوى، واحذر رَشَاش الخطايا أن يَنْتَضِح على أثواب النظافة، فإن قميص التكليف يحتاج إلى قوة التحرز، فانظر بين يديك ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ البيِّنَاتُ﴾ فعيون العيون[١] تغسل أدران الذنوب. كان أول أمرك سليماً يوم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، فأصْلِحْ آخرَ أمْرك تُسامَحْ في الوَسَط. يا طويل الغَيْبة عن وطن ﴿أَلَسْتُ﴾[٢]، أين حنين شوقك؟!

نَقِّلْ فؤادَك حيثُ شئتَ مِن الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأَولِ
كم منزلٍ في الأرض يَألَفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول مَنزِلِ

«اللطف في الوعظ» (ص٤٩)

---

(١) يعني: الدموع.

(٢) يشير إلى العهد القديم الذي أخذه الله عز وجل على بني آدم في عالم الذّرّ، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]، على قولٍ في تفسيرها.

وا عجبا! قوسك مكسورة بالزلل

وا عجبا! قوسك مكسورة بالزلل، ووَتَرك مقطوعٌ بالكسل، فكيف تنال صدر الغَرَض[1] ؟ إذا أردت العُلُوّ فارتق درجة التقوى، وإن شئت العِزّ فضع جبهة التواضع، وإن آثرتَ الرياسة فارفع قواعد الإخلاص، فوالله ما تحصل المناصب بالمنى، فدينار التبهرج وإن نَفَق مَردود، وقد يتَزَيّا بالهوى غيرُ أهله، إذا نزلتَ عن مَطِيّة الإخلاص مَشَيْتَ في حَسَك التعثير، فتقطعتْ قدمُ القَصْد ولم ينقطع المَنْزِل.

«اللطف في الوعظ» (ص٥٦)

الرياء أصل النفاق

الرياء أصل النفاق، نفاق المنافقين صَيّر المسجد مزبلة، فقال المُنَزَّه: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ﴾، وإخلاص المخلصين رفع قَدْر الوَسَخ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ»[2]. إذا هبت زعازع المُنَافَقَة لم تضر شجرة الإخلاص، لأن أصلها ثابت، فأما شجرة الرياء فعند ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ﴾. لا تنظر إلى دولة الباطل، وارتقب دولة الحق. إذا رأيت منافقاً قد اتُّبع فتذكر الدجال غداً، والسامِرِيَّ بالأمس، وانتظر للسامري لا مِسَاس، وللألَدِّ بَابَ لُدّ[3].

شجرة الصَّنَوْبَر تثمر في ثلاثين سنة، وشجرة الدبا تصعد في أسبوعين فتدرك الصَّنَوْبَر، فتقول شجرة الدبا: إن الطريق التي قطعت في ثلاثين سنة قد

---

(١) الغَرَض: الهدف الذي يُرْمَى إليه.

(٢) حديث صحيح، تمامه: «لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ».

(٣) يشير إلى مقتل الدجّال عند باب لُدّ. والألد: الخَصِم الجَدِل.

قطعتُها في أسبوعين، فيقال لك شجرة ولي شجرة. فتجيبها: مهلاً إلى أن تَهُبّ ريحُ الخريف[1]. وكم متشبه بالصالحين في تخشعه ولباسه، وأفواه القلوب تَنْفِر من طعم مذاقه، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾. في ظلمة الليل يتشبه الشجر بالرجال، فإذا طلع الفجر بان الفرق. في وقت الضحى يتمثل السراب بالماء، فمن قرب منه لم يجده شيئاً. وا أسفا ما أكثر الزور! أمّا الخيام فإنها كخيامهم، تراهم كالنَّخل، وما تدري ما الدخل. أيها المرائي قَلْبُ مَنْ تُرَائيه بيد مَنْ تَعْصِيه، لا تنقش على الدرهم الزائف اسم المَلِك، فما كل سَوْداء تمرة، ولا يتبهرج الشحم بالورم.

«اللطف في الوعظ» (ص٥٦-٥٧)

يا مفتحاً أبواب المعاش بغير مفتاح التقى!

يا مُفَتِّحاً أبواب المعاش بِغير مِفتاح التُّقَى، كيف تُوَسِّع طريقَ الخطايا وتشكو ضِيق الرِّزْق؟! لو اتقيتَ مَا عَسِرَ عليك مطلوب، مِفتاح التقوى يقع على كل باب، ما دام المتقي على صفاء التُّقَى لا يَلْقَى إِذَنْ أَذَى، فإن انحرف عن التُّقَى التَقَى بالكَدَر، لا تزال بحار النِّعم على الخلق في الزيادة ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

«اللطف في الوعظ» (ص٦٨)

* * *

(١) يعني: ستثبت شجرة الصنوبر وتهوي الأخرى، فالمرائي وإن تشبه بالمخلص في حاله وعمله فإنه سينكشف أمره ويزول قدره، وما كان لله فإنه يبقى.

السنون مراحل والشهور فراسخ...

إخواني، السنون مراحل، والشهور فراسخ، والأيام أميال، والأنفاس خُطُوات، والطاعات رؤوس أموال، والمعاصي قطاع الطريق، والربح الجنة، والخسران النار، ولهذا الخطب شَمَّر الصالحون عن سوق الجِدِّ في سُوق المعاملة، وَدّعوا بالكلية مَلاذّ النفس، كلما رأوا مركب الحياة يُخطف في بحر العمر شغلهم ما هم فيه عن عجائب البحر، فما كان إلا قليل حتى قَدِموا من السفر، فاعتنقتهم الرَّاحةُ في طريق التَّـلَـقِّي، فدخلوا بلد الوَصْل وقد حازوا رِبح الدَّهْر، يا جبان العزم لو فتحت عين البصيرة فرأيت بإنسان الفكر ما نالوا لصاح لسان التلهف: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾، وأين الأرض من صَهْوة السَّماء، لا أنت والله منهم، ولا تدري مَنْ هُمْ!

«اللطف في الوعظ» (ص٦٩-٧٠)

عليكم بطلب الجنة فإن النار وسط الكف

إخواني، عليكم بطلب الجنة، فإن النار وَسَط الكَفّ، شهوات الدنيا مصائد تَقْطَع عن الوصول، فإذا بطلت الشهوات بحلول الموت أحسّ الهالكُ بما لم يكن يدري، كما أن خوف المبارز يُشْغِلُه عن ألم الجِراح، فإذا عاد إلى المأمن زاد الألم؛ فإذا ماتوا انتبهوا[١]، إذا شيعتم الجنازة فقد سمعتم نذيراً بلا صوت، كم شيعتم قريباً، ورميتموه سليباً، وتركتموه غريباً، وأسْمَعَكم من الوعظ عجيباً، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

«اللطف في الوعظ» (ص٧٨)

---

(١) يشير إلى مقولة: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

يا عبد شهوته

يا عبد شهوته، يا مملوك لَذّته، يا أسير بطالته، يا قتيل غفلته، ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ﴾، ويحك! اسْتَنْفِرْ جنودَ عَزْمك فقد كَبَسَ الأعداءُ حَرِيم قَلْبك، قم في الدجى على قدم الاعتذار لعل نَفَسَ أَسَفٍ يَنْسِفُ ما قد سلف.

«صبا نجد» (ص٣٢)

يا من كان له شرب في المحبة فتكدر

يا مَنْ كان له شِرب في المحبة فتكَدَّر، يا مَنْ كانت له جَادّة مستقيمة فتعَثَّر، انْتَدِبْ للنَّدْب على ما أصابك، واقرع نابَك[1] أسفاً لما نابَك[2].

«صبا نجد» (ص١٢٩)

يا من باع كل شيء بلا شيء

يا مَنْ كانت له مناجاةٌ بالليل فهَجَرَها، وعِبَاداتٌ بالنهار فتركها، يا مَنْ باع كل شيء بلا شيء، واشترى لا شيء بكلِّ شيء.

بأَيِّ حُكمِ زَمانٍ صِرْتَ مُتَّخِذاً ... رِيمَ الفَلاَ بدلاً من رِيمِ أَهْلِيكا

«صبا نجد» (ص١٣١)

* * *

---

(١) أي: سِنّك.

(٢) أي: أصابك.

الفِرار ... الفِرار

يا أخي، أقبِلْ على قِبْلَةِ التوجُّه إلى مولاك، وأعرِض عَنْ مواصلة غِيِّك وهواك، وواصل بقيّة العمر بوظائف الطّاعات، واصبر على ترك عاجلِ الشّهوات، فالفرار أيها المكلَّفُ كلَّ الفرار، من مواصلة الجرائم والأوزار، فالصَّبرُ على الطّاعة في الدنيا أيسرُ مِنَ الصَّبرِ على النّار.

وأنشدوا:

أمــولاي إنِّــي عبــدٌ ضعيــف ... أتيتُـكَ أرغــبُ فيمــا لـديــكَ

أتيتُك أشكو مصابَ الذُّنُوب ... وهل يُشتكـى الضُّرُّ إلاَّ إليـكَ

فَمُــــنَّ بعفــوكَ يـــا سَيِّــدي ... فليــس اعتمــاديَ إلاَّ عليــكَ

«بحر الدموع» (ص٢٠)

يا أسير دنياه

يا أسيرَ دنياه، يا عبدَ هواه، يا موطنَ الخطايا، ويا مستودَعَ الرَّزايا، اذكر ما قدَّمَتْ يداك، وكُن خائفاً مِنْ سيِّدك ومولاك أن يطَّلِعَ على باطن زَلَلِكَ وجفاك، فيصدَّك عن بابه، ويبعدك عن جنابه، ويمنعك من مُرافقة أحبابه، فتقع في حضرة الخِذلان، وتتقيَّد بشَرَكِ الخسران.

«بحر الدموع» (ص٢٣)

يا من باع الباقي بالفاني

يا من باع الباقي بالفاني، أما ظهر لك الخُسران؟! ما أطيبَ أيام الوصال!

وما أمرَّ أيام الهجران! ما طاب عيشُ القوم حتَّى هجروا الأوطان، وسهروا الليالي بتلاوة القرآن، فيبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً.

«بحر الدموع» (ص٢٣)

ما هذه السنة وأنتم منتبهون؟

إخواني، ما هذه السِّنَةُ وأنتم مُنتبهون؟! وما هذه الحيرةُ وأنتم تَنْظُرون؟! وما هذه الغفلةُ وأنتم حاضرون؟! وما هذه السَّكرة وأنتم صاحُون؟! وما هذا السُّكون وأنتم مُطالَبون؟! وما هذه الإقامةُ وأنتم راحلون؟! أمَا آن لأهل الرَّقدةِ أن يستيقظوا؟! أما حانَ لأبناء الغفلة أن يتَّعظوا؟!

واعلم أن الناس كلَّهم في هذه الدنيا على سفر، فاعمل لنفسك ما يخلِّصُها يوم البعث من سَقَر.

آنَ الرَّحيـلُ فكـن على حـذرٍ ... ما قد ترى يغني عَنِ الحذرِ
لا تغتـرِرْ بـاليـومِ أو بغـدٍ ... فلـرُبَّ مغـرورٍ علـى خطـرِ

«بحر الدموع» (ص٢٨)

إلى كم تماطلون بالعمل؟!

إخواني، إلى كم تماطلون بالعمل، وتطمعون في بُلوغ الأمل، وتَغْتَرُّونَ بفُسحة المَهَل، ولا تذكرون هجوم الأجل؟! ما وَلَدْتُمْ فللتُّراب، وما بَنيتم فللخراب، وما جمعتم فللذَّهاب، وما عملتم ففي كتاب مدَّخرٌ ليوم الحساب.

وأنشدوا:

ولـو أنـا إذا مِتْنـا تُـركنـا ... لكان الموتُ راحـةَ كـلِّ حَـي

ولكنَّـــا إذا مِتنـــا بُعِثْنـــا ونُسْألُ بعدها عن كل شي

«بحر الدموع» (ص٣١)

أيها المقيم على الخطايا

أيها المقيمُ على الخطايا والعصيان، التَّاركُ لما أمر به الرحمن، المطيع للغويِّ الفتّان، إلى متى أنت على جُرْمِكَ مُصِرٌّ، ومما يقرِّبُكَ إلى مولاك تَفِر؟! تطلب مِنَ الدُّنيا ما لا تدركه، وتتقي مِنَ الآخرة بما لا تملكه، لا أنت بما قَسَمَ اللهُ لك من الرِّزق واثقٌ، ولا أنت بما أمرك به لاحِق.

يا أخي، الموعظة - والله - لا تنفعُك، والحوادثُ لا تردعُك، لا الدَّهر يَدُعُّك، ولا داعي الموت يُسمِعُك، كأنك يا مسكين لم تزل حياً موجوداً، وكأنك لا تعود نسياً مفقوداً.

فاز - والله - المُخِفُّون من الأوزار، وسَلِم المتقون من عذاب النَّار، وأنت مقيمٌ على كسب الجرائم والأوزار.

وأنشدوا:

عيلَ صبري وحُقَّ أن أنوحا لم تدع ليَ الذُّنوبُ قلباً صحيحا

أَخْلَقَتْ مهجتي أكفُّ المعاصي ونعاني المشيبُ نعياً صريحا

كلَّما قلتُ قد بَرِىء جرحُ قلبي عاد قلبي من الذُّنوب جريحا

إنَّما الفوزُ والنعيمُ لعبدٍ جاء في الحشر آمناً مستريحا

إخواني، ارفُضوا هذه الدُّنيا كما رفضها الصَّالحون، وأعدُّوا الزَّاد لنقلةٍ لا بدَّ لها أن تكون، واعتبروا بما تدور به عليكم الأيامُ والسنون.

يـا مـن غـدا فـي الغـيِّ والتِّيـه　　وغـرَّه طـول تمـاديـه
أملـى لـك الله فبـارزتَـه　　ولـم تَخَـفْ غِـبَّ معـاصيـه

«بحر الدموع» (ص٣٦)

بادروا بالتوبة

إخواني، بادروا بالتوبة من الذنوب، واقتفوا آثار التوابين، واسلكوا مسالك الأوّابين، الذين نالوا التوبة والغفران، وأتعبوا أنفسهم في رضا الرحمن، فلو رأيتهم في ظُلَم الليالي قائمين، ولكتاب ربهم تالين، بنفوسٍ خائفة، وقلوبٍ واجفة، قد وضعوا جباههم على الثَّرى، ورفعوا حوائجهم لمن يَرى ولا يُرى.

«بحر الدموع» (ص٣٨)

يا إخوان الغفلة تيقظوا

يا إخوان الغفلة تيقَّظُوا، يا مقيمين على الذُّنوب انتهوا واتَّعظُوا. فبالله أخبروني: مَنْ أسوأ حالاً مِمَّن استعبده هواه؟! أم من أخسرُ صفقةً ممن باع آخرته بدنياه؟! فما للغفلة قد شملت قلوبَكم؟ وما للجهالة قد سترت عنكم عيوبَكم؟

أما ترونَ صوارمَ الموتِ بينكم لامعة، وقوارعَه بكم واقعة، وطلائعَه عليكم طالعة، وفجائعَه لعذركم قاطعة، وسهامَه فيكم نافذة، وأحكامه بنواصيكم آخذة؟ فحتَّى مَ؟ وإلى مَ؟ وعلامَ التخلُّفُ والمقام؟ أتطمعون في بقاءِ الأبد؟ كلاَّ والواحدِ الصَّمد، إنَّ الموتَ لبالرَّصَد، ولا يُبْقي على والدٍ ولا ولد، فجِدُّوا - رحمكم الله- في [طاعة] مولاكم، وأقلِعُوا عَنِ الذُّنوب، فلعلَّه يتولاكم.

«بحر الدموع» (ص٤٠)

ما للغافل إلى كم ينام!

إخواني، ما للغافل إلى كم ينام! أما تُوقظه الليالي والأيام؟ أين سُكَّان القصور والخيام؟ دارَ - والله - عليهم كأسُ الحِمام، فالتقطهم الموتُ كما يلتقط الحبَّ الحَمام، ما لمخلوقٍ فيها دوام، طُوِيَتِ الصُّحفُ وجَفَّتِ الأقلام.

«بحر الدموع» (ص٤١)

قيدوا النفوس بزمام

إخواني، قيِّدوا هذه النفوس بزمام، وازجُروا هذه القلوب عن الآثام، واقرؤوا صُحف العِبَر بألسنة الأفهام.

يا مَنْ أجلُه خلفه وأملُه قُدَّام، يا مقتحماً على الجرائم أيَّ اقتحام، انتبهوا يا نُوّام، كم ضيعتم مِنْ أعوام! الدُّنيا كلُّها منام، وأحلى ما فيها أضغاث أحلام، غيرَ أنَّ عقل الشيخ فيها كعقل الغلام، فكلُّ من قهر نفسه فيها فهو الهُمام.

هذه الغفلةُ قد تناهت، والمصائب قد تدانت، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، والسلام.

«بحر الدموع» (ص٤٤)

يا من جَلَّت غفلته

يا مَنْ جَلَّت غفلته، وطالت سكرتُه، تأمَّل عطْفَ المولى عليك، وإحسانَه إليك. فبالله عليكم، حُطُّوا بالتَّوبة عَنْ ظهوركم أحمالَ الخطايا والذُّنوب،

وأقبلوا بقلوبكم إلى علاَّم الغيوب، واغسِلُوا وجوهكم بقطرات الدُّموع، واشتمِلُوا بأردية التذلُّل والخضوع.

«بحر الدموع» (ص٤٦)

الدنيا سموم قاتلة

إخواني، الدُّنيا سمومٌ قاتلة، والنفوس عن مكائدها غافلة، كم من نظرة تحلو في العاجلة، ومرارتها لا تُطاق في العاقبة الآجلة! يا بنَ آدم، قلبُك قلبٌ ضعيف، ورأيك في إطلاق الطَّرف رأيٌ سخيف، عينُك مطلوقة ولسانك يجني الآثام، وجسدُك يتعب في كسب الحُطام، كم من نظرةٍ محتَقَرةٍ زلَّت بها الأقدام.

عـــاتبـــتُ قلبـــيَ لمَّـــا رأيـــتُ جسمـــي نحيـــلا

فـــلام قلبـــيَ طـــرفـــي وقـــال: كنـــتَ الـــرَّسُـــولا

فقـــالَ طـــرفـــي لقلبـــي: بـــل كنـــتَ أنـــت الـــدَّليـــلا

فقلـــتُ: كُفَّـــا جميعـــاً تـــركتُمـــانـــي قتيـــلا

«بحر الدموع» (ص٥٢)

إلى كم هذه الغفلة؟!

إخواني، إلى كم هذه الغفلة وأنتم مُطالبون بغير مُهلة؟ فبالله عليكم، تعاهدوا أيامكم بتحصيل العُدَد، وأصلحوا مِنْ أعمالكم ما فسد، وكونوا مِنْ آجالكم على رَصَد، فقد آذَنَتكُمُ الدُّنيا بالذَّهاب، وأنتم تلعبون بالأجل وبين أيديكم يومُ الحساب. آهِ مِنْ ثِقَلِ الحِمْلِ وسوء الرَّفيق! آهِ مِنْ قلّة الزَّاد

وبُعد الطَّريق!

فيا أيها المغرورُ بإقباله، المفتونُ بكواذب آماله، الذي غابَ عَنِ الصَّواب، وهو في فِعله كذَّاب.

يا بطَّال، إلى كم تُؤخِّرُ التوبة وما أنت في التَّأخير بمعذور؟ إلى متى يُقال عنك: مفتونٌ ومغرور؟ يا مسكين، قدِ انقضت أشهرُ الخير وأنت تعُدُّ الشُّهور؟ أتُرى مقبولٌ أنت أم مطرود؟ أتُرى مواصَل أنت أم مهجور؟ أتُرى تركب النُّجُبَ [1] غداً أم أنت على وجهك مجرور؟ أتُرى من أهل الجحيم أنتَ أم من أرباب النعيم والقصور؟ فازَ - والله - المُخِفُّون، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ المُبْطِلُونَ﴾، ﴿أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾.

«بحر الدموع» (ص٥٧)

السَّفَر مكتوب علينا

إخواني، السَّفرُ مكتوبٌ علينا، فما لنا نطلُبُ الإقامة في دار ليست لنا دار مُقامة؟ السُّنون منازل، والشُّهور مراحل، والأيام أميال، والأنفاس خُطوات، والمعاصي قُطَّاع، والرِّبح الجنَّة، والخُسرانُ النَّار.

خُلقنا نتقلَّبُ في ستَّةِ أسفار إلى أن يستقرَّ بنا القرار: فالسَّفر الأول: سفر السُّلالة من الطِّين، والثَّاني: من الصُّلبِ إلى الرَّحم، والثالث: من الرَّحم إلى ظهر الأرض، والرَّابع: من ظهر الأرض إلى القبر، والخامس: من القبر إلى موقف العَرْض، والسَّادس: من موقفِ العَرْض إلى دار الإقامة: إمّا إلى الجنَّة أو النَّار، وقد قطعنا نصفَ الطَّريق، وبقيَ الأصعبُ.

---

(١) مفردها: نجيب، وهي هنا البعير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين.

يا مَنْ يضجُّ في الكُرَبِ ويصيح، خلِّ التَّدبير لغيرك فتستريح، تُكثر النَّحيبَ والعويل، وتنسى ما سلَفَ مِنَ الفِعل الوبيل! لو رجعت إلى [الله] بقلبك، لعجَّل عليك بتفريج همِّك وكَرْبِكَ.

يا أخي، إيَّاك والدُّنيا، فإنَّ حبلَ الدُّنيا مبتوت، واقنع منها بالقوت، واعلم أنَّك تموت.

«بحر الدموع» (ص٦١)

يا ميت القلب

يا هذا، كم تتزيَّا بزيِّ العُبَّادِ والزُّهَّادِ، وحالُ قلبك في الغفلةِ ما حال، الظّاهرُ منكَ نقيٌّ والباطن منك مُتَّسِخٌ بطولِ الآمال، لا تصلح المحبة لمن يُمِيلُه حبُّ المال، ولولا مكابَدَةُ المجاهدة لم يُسمَّ القومُ رجال[1]، يا ميتَ القلب، وعدُك في الدُّنيا صحيح وفي الآخرة مُحال، إنْ لم تُبادر في الشَّباب فبادر في الاكتهال، ما بعدَ شيبِ الرَّأس لهوٌ وما أبعد عثرة الشَّيخ أن تُقال، ضيَّعتَ زمانَ الشَّبابِ في الغفلة وفي الكِبَر تبكي على التَّفريط في الأعمال، لو علمتَ ما أُحْصِيَ عليك لكنتَ من الباكين طول اللَّيال.

«بحر الدموع» (ص٦٥)

إلى متى تسمع أخبارهم ولا تقفو آثارهم؟!

يا هذا، إلى متى تسمعُ أخبارَهم ولا تقفو آثارهم، اطلب رفقَةَ التَّائبين عساك لطريقهم تُرْشَد، اندُب على بِعادِك يا مطرودُ فمثلُك مَنْ بكى وعدد، اعتذِرْ يا مهجورُ عساك بالذُّل تَسْعَدْ، وقل بلسان التذلّلِ والأسف والكمد:

---

(١) صوابها نحوياً: «رجالاً»، وقد يُستخرج لها وجه.

كـم ذا التَّلَوُّمِ لا إقلاعَ يصحبُه ولا عزيمةَ هذا العجــزُ والكسـلُ

وكـم أُرَدِّدُ أقــــوالاً ملفَّقــــةً ما ينفعُ القولُ إنْ لم يصدُقِ العملُ

وا عجبا! كم لي أعاتب المهجورَ والعَتْبُ ما ينفع! كم لي أُنادي أُطروش[1] الغفلة لو كان النِّداء يُسْمَع! كم لي أُحدِّثُ قلبك وفي سماعك أطمع! واهاً عليكَ يا جامد العين قطُّ ما تَدْمَع! مِنْ علامة الخِذلان قلبٌ لا يخشع، قلبُك ذَهَبَ في حُبِّ الفاني وأنت للحرام تَجْمع، عليك يا غافلُ في جمعه الحسابُ وتُخَلِّفُه لمن لا ينفع، بينما أنت في بستان اللَّهو إذ قيل: فلانٌ سافر وليس في رجوعه مَطمع.

«بحر الدموع» (ص٦٧)

يا من رواحله في طلب الدنيا لها إسراع

يا مَنْ رواحلُه في طلب الدُّنيا لها إسراع، متى تحُلُّ عنها نِطاقَ[2] الأمل فيكون الانقطاع؟ إذا طلبتَ الآخرة تمشي رويداً! متى يكونُ الانتفاع؟ عجباً! كيف تشدُّ الرِّحال في طلب الفاني وفي طريقه قُطَّاع؟ العمرُ أمانة، أتلفتَ شبابَه في الخيانة، وكهولته في البطالة، وفي الشيخوخة تبكي وتقول: عُمري قد ضاع! متى أفلح الخائن فيما اشترى أو باع؟! أنت في طلب الدُّنيا صحيحُ الجسمِ وفي طلب الآخرة بِكَ أوجاع، كم تُعَرِّجُ عَنْ سُبل التَّقوى يا أعرج الهِمَّةِ، يا مَنْ يَبقى في القاع، يا مَنْ على عمره ليلُ الغفلة، طَلَعَ فجرُ المَشيب بين الأضلاع، رافِقْ رفاقَ التَّائبين قبل أن تنقطع مَعَ المنقطعين، ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

«بحر الدموع» (ص٦٩)

---

(١) الأطروش: الأطرش الذي لا يَسمع.

(٢) النطاق: حزام يُشدّ به الوسط.

يا من عَمِيَ عن طريق القوم

يا من عَمِيَ عَنْ طريق القوم، عليك بإصلاح نُور البصر، القلبُ المظلمُ يمشي في شوك الشَّكِّ وما عنده خبر، وقتُ التَّائب كلُّه عمل: نهارُه صومٌ وليله سهر، ووقتُ البطَّال كلُّه غفلة وبصيرتُه عمِيَت عَنِ النَّظر، مَنْ ذاق حلاوةَ الزُّهد استحلى التهجُّدَ والسَّهَر، إنْ لم تُدركِ المتهجِّدين في أوَّل اللَّيل ففي أعقاب السَّحر، تيقَّظ مِنْ نوم الغفلة فهذا فجر المشيب انفجر، وأَدلة التخلف إذا تخلَّف عن الباب وما حضر!

«بحر الدموع» (ص٧٣)

كم لك على المعاصي مُصِرّ؟!

يا هذا، كم لك على المعاصي مُصِرٌّ؟! متى يكونُ منكَ المتاب؟ جسمُك باللَّهو عامر، وقلبك مِنْ التَّقوى خراب، ضيَّعتَ الشَّباب في الغفلة، وعندَ الكِبَر تبكي على زمان الشَّباب، في المجلس تبكي على الفائت، وإذا خرجت عُدْتَ للانتهاب، لا حيلةَ لوَعظِي فيك وقد غلق في وجهك الباب، كم لي أحدِّثُ قلبَك! وأرى قلبَك غائباً مع الغُيّاب، يا مَنْ قلبُه مشغول، كيف تفهم الخطاب؟!

«بحر الدموع» (ص٧٦)

لله در أقوام قلوبهم معمورة بذكر الحبيب

لله دَرُّ أقوام قلوبُهم معمورةٌ بذكر الحبيب، ليس فيها لغيره حَظٌّ ولا نصيب، إنْ نَطقُوا فبذكره، وإن تحرَّكُوا فبأمره، وإن فرِحُوا فبقُرْبه، وإن

تَرِحُوا[1] فبعَتْبِه، أقواتُهم ذكرُ الحبيب، وأوقاتُهم بالمناجاة تطيب، لا يصبرون عنه لحظة، ولا يتكلَّمُون في غير رضاه بلفظة.

«بحر الدموع» (ص٨٢)

تعالوا نبكي على الذنوب

معاشر التائبين، تعالَوا نبكي على الذنوب فهذا مأتم الأحزان، تعالَوا نسكب المدامع ونشتكي الهجران، لعلَّ زمانَ الوصلِ يعودُ كما كان.

هذا بياضُ الشَّيب يُنْذِرُ بخراب الأوطان، يا مَنْ تخلَّف حتَّى شاب، قد رحلتِ الأظعان، يا تائهاً في تيهِ التخلُّف، يا حائراً في بريَّةِ الحرمان، نهارُكَ في الأسباب، وليلُك في الرُّقاد، هذه الخسارة عِيان، إذا ولَّى الشَّباب ولم يربح، ففي المشِيبِ يكونُ الخُسران، أمَلُكَ طويلٌ بعيدٌ، وربما هُيِّئَتْ لكَ الأكفان، قف على ساحل التوبة، فَبِحَارُ المعاصي طوفان.

«بحر الدموع» (ص٨٨)

يا تائهاً في الضلال

يا تائهاً في الضَّلال بلا دليلٍ ولا زاد، متى يوقِظُك منادي الرَّحيل فترحل عنِ الأموال والأولاد[2]؟ قل لي: متى تتيقَّظُ وماضي الشَّباب لا يُعاد، ويحك! كيف تُقدِمُ على سفر الآخرة بلا راحلة ولا زاد؟! ستندم إذا حان الرَّحيل وأمسيت مريضاً تُقاد، ومُنِعْتَ التصرُّفَ فيما جمعت وقَطَّعَتِ الحسراتُ

---

(١) أي: حزنوا.

(٢) إن كان يُذَكِّر بالموت والرحيل عن الأموال والأولاد فنَعم، وإن كان يدعو إلى ترك الأموال والأولاد زهداً في الدنيا وطلباً للآخرة فلا، لأن هذا خلاف الزهد النَّبوي.

منك الأكباد، فجاءتك السَّكرات ومُنِعَ عنك العُوَّاد، وكُفِّنْتَ في أخصر الثِّياب، وحُمِلْتَ على الأعواد، وأُودعت في ضِيقِ لحدٍ وغُربةٍ ما لها مِنْ نفاد، تغدو عليك الحسراتُ وتروحُ إلى يوم التَّناد، ثم بعده أهوال كثيرة، فيا ليتك لمعايَنَتها لا تُعاد!

فاغتنموا بضائع الطاعات، فبضائع المعاصي خاسرة، ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠و٢١].

«بحر الدموع» (ص٩٤)

يا غافلاً عن مصيره

يا غافلاً عن مصيره، يا واقفاً معَ تقصيره، سبقك أهلُ العزائم، وأنت في بحر الغفلة عائِم، قِفْ على الباب وُقُوفَ نادِم، ونَكِّسْ رأسَ الذُّلِّ وقلْ: أنا ظالم، ونادِ في الأسحار: مذنبٌ وراحم، وتشبَّه بالقوم وإن لم تكُن منهم وزاحم، وابعث بريح الزَّفَرات سحابَ دمعٍ ساجم، وقم في الدُّجى نادباً، وقف على الباب تائباً، واستدرك مِنَ العمرِ ذاهباً، ودع اللَّهو جانباً، وطلِّقِ الدُّنيا إن كنت للآخرة طالباً، يا نائماً طُولَ اللَّيلِ، سارت الرِّفْقَةُ، ورحل القوم كلُّهم، وما انتبهت مِنَ الرَّقدة.

«بحر الدموع» (ص١٠١)

يا أسيراً في قبضة الغفلة

يا أسيراً في قبضة الغفلة، يا صريعاً في سَكْرَة المُهْلة، يا ناقض العهد، انظر لمن عاهدت في الزمن الأول، أكثر العمر قد مضى وأنت تَتَعَلَّل، يا

مَدْعُواً إلى نجاته وهو يتوانى، ما هذا الفتور والعمر قد تدانى؟! كأنك بالدمع يجري عند الموت هَتّاناً [1].

يا أخي، ما أحسن ما كنتَ فتغيرت! ما أقوم جادّتك! فكيف تعثرت؟ يا معاشر المطرودين عن رفاق التائبين، ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

«بحر الدموع» (ص١١١)

يا من صحيفته سوداء

يا مَنْ صحيفته سوداء، اغسلها بالدُّموع، وتعرَّض لمجال المتهجِّدين، وقل: ضالٌّ ضلَّ عَنِ الطَّريق مقطوعٌ، هذا مأتم الأحزان، إلى أيِّ وقتٍ تدَّخِرُ الدُّموع؟! هذا مجلس الشَّكوى، هذا وقت الرجوع.

فبادروا إخواني، وافهموا أسرار المراد، ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

«بحر الدموع» (ص١١٢)

أحضر قلبك ساعة

يا أخي، لا تُغْسَل أدناس الذُّنوب إلا بماء المدامع، لا ينجو مِنْ قتَار[2] المعصية إلا مَنْ يُسارع، أحضِرْ قلبَك ساعةً عساه بنائحة الموعظة يُراجع، كم لي أتلُو عليك صُحُفَ الموعظة وما أظُنُّك سامع.

---

(١) أي: مُنْصَباً. وانظر: صفحة (٢٦٥): الحاشية (١).

(٢) القتار: الدخان.

يوم المعصية ما أنحسَه مِنْ طالِع، ويوم الطَّاعة مختارٌ وكُلّ سعدٍ فيه طالع، اطلُب - ويحك - رِفاقَ التّائبين، وجدِّد رسائلَك للحبيب وطالِعْ، مِصباحُ التّقوى يدُلّ على الجادَّة، وكم في ظُلمةِ الغَفلة مِنْ قاطِع، ابكِ - ويحك - على مَوْتِ قلبك وعَمَى بصيرتِك وكثرة الموانع، إذا لم يَعِظْكَ الدَّهرُ والشَّيبُ والضَّعفُ فما أنت صانع؟! فبالله يا إخواني بادرُوا بالمتاب، وراجعوا أنفسكم قبل يوم الحساب.

ما اعتذاري وأمرُ ربّي عصيتُ ... حينَ تُبدي صحائِفي ما أتيتُ

ما اعتذاري إذا وقفتُ ذليلاً ... قد نهاني ما أراني انتهيتُ

يا غنيّاً عَنِ العبادِ جميعاً ... وعَليماً بكلِّ ما قد سعيتُ

ليس لي حجَّةٌ ولا ليَ عذْرٌ ... فاعفُ عن زلَّتي وما قد جنيتُ

«بحر الدموع» (ص١٢٠)

يا من مات قلبه

يا مَنْ مات قلبه، أيُّ شيءٍ تنفع حياة البدن إذا لم تُفَرِّق بينَ القبيح والحسن؟! سَلَبَكَ المشيبُ من الشَّباب، فأين البكاءُ وأين الحَزَن؟! إذا كان القلب خراباً من التقوى فما ينفع البكاءُ في الدِّمَن [1]؟! يا قتيل الهجران، هذا أوانُ الصُّلْحِ بادِرْ عسى يزُول الحَزَن.

«بحر الدموع» (ص١٢٢)

* * *

(١) يعني: فما ينفع البكاء في القلب الخرب الذي خلا من التقوى ولم يبق فيه إلا آثار الذنوب، فعاد كالمزبلة. والدِّمْنة: المزبلة. والجمع: دِمَن ودِمْن.

يا من سَوّف بالمتاب

يا مَنْ سوّفَ بالمتاب حتَّى شاب، يا مَنْ ضيَّعَ في الغفلة أيَّام الشّباب، يا مطروداً بذنوبه عنِ الباب، إذا كنتَ في الشَّباب غافلاً، وفي المشيب مُسَوّفاً، متى تقف بالباب؟ كم عوملتَ[1] على الوفاء؟ ما هكذا فِعْلُ الأحباب، الظَّاهرُ منكَ عامر، والباطن - ويحك - خراب، كم عِصيان، كم مخالفة، كم رياء، كم حجاب؟! ولَّى طِيبُ العمر في الخطايا، يا ترى متى تعودُ إلى الصواب؟!

«بحر الدموع» (ص١٢٥)

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾

ما بعد الشَّيب لهوٌ، كيف يجمُل بالشَّيخ التَّصاب؟ أنت لو قدَّمت في متقادم عمرك الطَّاعة لخُفِّفَ عنكَ الحساب، كيف والعمر ولَّى في الغفلة وفي طلب الأسباب؟! إذا أنذرك المشيبُ بالرِّحلةِ ولم تقدِّمِ الزَّاد ماذا يكون الجواب؟!

ليت شعري أهل المعاصي كيف عيشهم يطيب؟! ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١].

يا أخي، أفنيتَ عمرك في اللَّعب وغيرُك فاز بالمقصود وأنت منه بعيد، غيرك على الجادَّة وأنت من الشَّهوات في أوجال وتنكيد، تُرى متى يُقال: فلان استقال ورجع؟! يا لَهُ من وقتٍ سعيد، متى تخرج من الهوى وترجع إلى مولاك العزيز الحميد؟! يا مسكين، لو عاينت قلق التائبين وتملْمُلَ الخائفين من هولِ الوعيد! جعلوا قُرَّةَ أعينهم في الصَّلاة والزَّكاة والتزهيد، وأهل الحِرمان ضيّعُوا الشَّباب في الغفلةِ والشَّيْبَ في الحرص والأمل المديد، لا

---

(١) كذا! ولعلها: «عاهدت».

بالشَّباب انتفعت، ولا عندَ المشيبِ ارتجعت، يا ضيعة الشَّباب والمشيب! ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

«بحر الدموع» (ص١٣٣)

يا راحلًا بلا زاد

يا راحلاً بلا زادٍ والسَّفرُ بعيد، العين جامدةٌ والقلبُ أقسى من الحديد، مَنْ أولى منك بالضَّرَّاءِ؟ وأنت تغرَقُ في بحر المعاصي في كلِّ يوم جديد، ما أيقظَكَ الشَّبابُ ولا أنذرك الاكتهال ولا نهاكَ المشيب، ما أرى صلاحَك إلا بعيد، فَدَيْتُ أهلَ العزائم، لقد نالُوا مِنَ الفضل المزيد.

«بحر الدموع» (ص١٢٩)

يا بن آدم ما أغفلك!

يا بن آدم، ما أغفلك! وعن الصواب ما أبعدك! كأنك بالموت قد فاجأك، ومَلَك الموت قد وافاك، فيئس منك الطبيب، وفارقك الحبيب، وتَفَجّع لفقدك كلُّ قريب، فوقعت في الحسرة، وجفتك العَبرة، وبطل منك اللسان، بعد الفصاحة والبيان، وأُدْرِجْتَ في الأكفان، وأُزعِجتَ عن الأوطان، وصار القبر مأواك، وإلى يوم القيامة مثواك، وفارقك الأهل والإخوان، ووقع بهم عنك السُّلُوّ والنسيان، فإن كان لك منزل سَكَنوه، أو كنت ذا مالٍ اقتسموه.

«بستان الواعظين» (ص١٥٥)

* * *

اذكر ما وصفتُه واحفظ ما حكيتُه

يا هذا، اذكر ما وصفتُه، واحفظ ما حكيته، وعليك بالصوم والاجتهاد، والطاعة لرب العباد، ومراقبته في الليل والنهار، والتضرع إليه في ظلمات الأسحار، يا هذا عمرك أنفاس معدودة، وعليك رقيب يحصيها، لا تنس الموت فإنه لا ينساك.

«بستان الواعظين» (ص١٥٥)

المبادرة المبادرة

المبادرةَ المبادرةَ، إنما هي أنفاس لو حُبِسَتْ عنك لانقطع عنك عملُك آخر الأبد، وخروجُ نفسك آخرُ الأمد، وفِراقُ أهلك آخر العَدد.

وأنشدوا:

إذا ما الموت جر على أناس	كَلاكِلَهُ أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا	سيلقى الشامتون كما لقِينا

فاذكر حالك أيها الغافل، يوم تُقَلِّبُك على المغتسل يَدُ الغاسل، قد زال عِزُّك عنك، وسُلِب مالُك منك، وأُخرِجْتَ من بين أحبابك، وجُهِّزْتَ لتُرابك، فأُسْلِمْتَ إلى الدود، وصرت رهناً بين اللُّحود، وبكى عليك الباكون قليلاً، ثم نَسُوك دهراً طويلاً، فتغيرتْ منك المحاسن والحِلى[1]، وتحكم في أعضائك البِلى، وقُطِّعَتِ الأكفان، وسعى إليك الديدان، فبَلِيَ منك

(١) في الأصل المطبوع (مكتبة الإيمان): «المحلى»، وهو خطأ. و«الحِلَى»: جمع حلية، وهي من الرجل: صفته وخلقته وصورته.

اللسان، وسالتِ الحَدَقُ[1]، كأنك لم تكن قَطّ مِمَّنْ رأى ولا نَطَق.

وأنشدوا:

فلـو أنّـا إذا مِتنـا تُـرِكْنـا لكـان المـوتُ راحـة كُـلِّ حـي

ولكنّـا إذا مِتنـا بُعِثْنـا ونُسـأل بعـدها عـن كـل شـي

«بستان الواعظين» (ص١٥٦)

كأنك بالموت قد حَلّ بساحتك

ابن آدم، كأنك بالموت قد حَلّ بساحتك، وحال بينك وبين ما تريد، وأنت في النَّزْع والكَرْب الشديد، لا والد يدفع عنك ولا وليد، ولا عدة تنجيك ولا عديد، ولا عَشيرة تَحميك ولا قصر مَشِيد.

أليس ذلك نازل بك على كل حال؟! إي وعزة الكبير المتعال، فابك الآن حين ينفعك البكاء والاستكانة، قبل حلول الحسرة والندامة.

وأنشدوا:

يـا مَـن يمـوت ويُسـأل عمـا يقـول ويَفْعَـل

إن المُـوكَّـل بـالنفـو س إذا أتـى لا يُهْمَـل

والنـار مَنْـزِلُ مَـنْ عصـى والنـارُ بئـس المَنْـزَل

«بستان الواعظين» (ص١٥٦)

* * *

(١) الحَدَق: مفردها حَدَقَة، وهي السواد المستدير وسط العين.

بادر إلى حسن العمل

يا بن آدم، بادر إلى حسن العمل، بينما أنت في فسحة ومَهَل، وتب إلى مولاك من قبيح الخطايا والزَّلَل، قبل أن يقال: فلان عليل، أو مُدْنف[١] ثقيل، فهل إلى دوائه سبيل، أو على طبيب دليل؟! فتُدْعى لك الأطباء، ويُجْمع لك الدواء، فلا يزيدك ذلك إلا بلاء، وقد اجتمع عندك الإخوان والأحباء، والأهل والأقرباء، وكثر حولك البكاء، ثم يقال: حشرج[٢]، ونفسه توشك أن تُخْرَج، وأنت تعاني الأمر العظيم، بعد اللّذة والنعيم، وعَدَلْتَ ببصرك عن القريب والحميم، وحَلّ بك القضاء، وخرجتِ الروحُ من الأعضاء، ثم عُرِج بها إلى السماء، فيا لها من سعادة أو شقاء.

وأنشدوا:

فلو يكن شيءٌ سوى الموت والبلى ... وتفريقُ أعضـــاء ولحـم مُبَـدَّد

لكنـت حقيقـاً يـا بن آدم بالبُكـا ... على نائبات الدهر مَعْ كل مُسْعَد

«بستان الواعظين» (ص١٥٦-١٥٧)

إذا جاءك الموت لا ينفعك ما جمعته

يا أخي، إذا جاءك الموتُ لا ينفعُك ما جمعتَه، ولا يُنجيك ما اكتسبتَه، فامهَدْ لنفسك قبل مفارقة الأحباب، والجيران والأصحاب، والخروج من الديار إلى منازل الدود والتراب، وبيوت الوحشة والعذاب، إلا أن يعفوَ المَلِكُ الوهّاب، فتفكروا يا أولي الألباب، يا معشر الشِّيب والشباب.

---

(١) المُدْنَف والمُدْنِف: مَنْ براه المرض حتى أشفى على الموت.

(٢) حشرج: ترددت روحه في حلقومه وأوشكت على الخروج.

وأنشدوا:

مضى أمسك الماضي شهيداً معدلا ... وأعقبه يوم عليك شهيد
فإن تك بالأمس اجترحت إساءة ... فبادر بإحسان وأنت حميد
ولا تبق فعل الصالحات إلى غدٍ ... لعل غداً يأتي وأنت فقيد
إذا المنايا أخطأتك وصادفتْ ... حَميمَك فاعلم أنها ستعود

«بستان الواعظين» (ص١٦٤)

ابكوا على ساعة لا بد منها

ابكوا معاشر المذنبين على ساعة لا بد منها، أما تَرَوْن الموت قد أفنى الأمم الماضية، وقتل القرون الخالية، وهدم القصور العالية؟ عَطّل عِشارهم، وخرب ديارهم، وهدم منازلهم، وقطع آثارهم، وقطف أعمارهم، ولم ينفعْهم ما جمعوا، ولم يحصنْهم ما بَنَوْا وصنعوا، قد صاروا في القبور رميماً، ولقُوا من الموت والأهوال أمراً عظيماً.

«بستان الواعظين» (ص١٦٥)

لا بالقرآن عملتم ولا في الموت تفكرتم

مساكين! فلا بالقرآن عملتم، ولا في الموت تفكرتم، تُمسون وتُصبحون وقلوبكم معلقة بعلائق الدنيا، ما عندكم من الموت خَبَر، ولا أنتم منه على حَذَر، قلوبكم خالية من خوف الرحمن، عامرة بخدوع الشيطان، كأنكم قد أَمِنْتم الموتَ وطوارق الحَدَثان[1].

---

(١) الحَدَثَانِ: الليل والنهار، وحَدَثَانُ الدهر: نوائبه وحوادثه.

فالله الله عباد الله! عظوا أنفسكم بآبائكم وأحبابكم، وجيرانكم وإخوانكم، فإن في ذلك بلاغاً لمن تذكر، وعبرة لمن تفكر، إخوانكم كانوا بالأمس معكم يأكلون ما تأكلون، ويلبَسون مما تلبَسون، فأصبحوا اليوم وقد صارت القبور لهم بيوتاً، وصاروا بين أطباق الثرى خفوتاً، قد قسم الوارث أموالهم، ونكح العدو والصديق عيالهم، وأهان العدو أطفالهم، قد هُتِكَت منهم الأستار، واستوحشت منهم الديار، وتحدثت عنهم الأخبار.

«بستان الواعظين» (ص١٦٨)

الموت بحر طامح موجه

يا أخي، بالله عليك! لو أتاك الحِمام ولك ملك الدنيا أما كنت تختار عيش يوم بالجميع؟ فبادر ما دمت في فسحة من العمر، قبل أن يضيق عليك الأمر، لو صِيحَ بك الليلة أجب الداعي! أما كنت نادماً على ما قدمت؟ وباكياً على ما فَرّطْت؟

الموت بحر طامح موجه[1] تذهب فيه حيلة السابح

يا نفس إني قائل فاسمعي مقالةً مِنْ مشفقٍ ناصح

ما يُعْجِب الإنسانَ في قبره مثل التقى والعملِ الصالح

«بستان الواعظين» (ص١٧٦)

استيقظ من غفلتك

أيها الإنسان - وكلنا ذلك الإنسان - استيقظ من غفلتك، وهُبّ من رقدتك، قد آن أن يدعى إليك الطبيب بجميع الدواء، فلا يُرجى لك مما نزل بك

(١) أي: مرتفع. يقال: بحر طموح الموج، وبئر طموح الماء.

الشفاء، ثم يقال: فلان قد أوصى وجميع ما له قد أحصى، قد تبرأ من الدنيا وعلائقها، وأقبل إلى الآخرة وحقائقها، ثم ضَعُفَ جَنَانُك[1]، وثَقُل لسانُك، وانقطع عن كلامك فلا تكلم إخوانك، وكثرت خُطُوبك[2]، وعَظمت كُرُوبك، إذا عُرِضَتْ عليك عند كشف الغطاء ذنوبُك، واشتدت الأحزان، وعلا صراخ النسوان، وحزن الصديق الودود، وفرح العدو الحسود، ثم يقال لك: هذا ولدك الصغير وهذا الكبير، وهذه بنتك الكبرى، وهذه شقيقتها الصغرى، فلا تَرُدُّ عليهم جواباً، ولا يستطيع لسانك خطاباً، ثم اشتد بك النزع والسياق، إذا التفت الساق بالساق، وانتزع مَلَكُ الموت رُوحك الضعيف، وعَرج به إلى مولاك الرب اللطيف، يجازيك على ما قدمت في سالف الأيام، ويسألك عما اكتسبت من الحلال والحرام، وأُمِرَ بك إما إلى جنة عالية ذات نعيم وخلود، وإما إلى نار حامية ذات جحيم ووقود، وزُوِّدْتَ من مالك حَنُوطاً[3] وكَفَناً، ونزلت في رَمْسك[4] بعملك مُرْتَهَناً، وانصرف أهلك لقسمة ما خَلّفت من الأموال، وما سعيت فيه من الحرام والحلال.

وأنشدوا:

أبقيتَ مالك ميراثاً لوارثه   فليت شعري ما أبقى لك المالُ

القوم بعدك في حال يسرهم   فكيف بعدهم صارت بك الحالُ

مَلُّوا البكاء فما يَبْكِيك من أحدٍ   واستحكم القِيلُ في الميراث والقالُ

مالتْ بهم عنك دنيا أقبلتْ لهم   وأدبرتْ عنك والأيام أحوالُ

«بستان الواعظين» (ص١٨١-١٨٢)

---

(١) أي: قلبك.

(٢) مفردها: خَطْب، وهو الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب.

(٣) هو كل ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة من مسك وكافور وغيرهما.

(٤) أي: قبرك.

لا تغتروا بصحة الأجسام

الله الله يا إخواني! لا تغتروا بصحة الأجسام، ومداومة الأيام، فإن الموت يأتي في ألهى ما أنت عليه في الدنيا وألَذّ ما كنت فيه، فلا الصحيح يَدَعُه لصحته، ولا الصغير يرحمه لصِغره، ولا الكبير يهابه لكِبَره.

«بستان الواعظين» (ص١٨٤)

لا يغرنكم طول الأمل

الله الله عباد الله! لا يَغُرَّنَّكم طولُ الأمل، وجِدُّوا واجتهدوا وكونوا من الموت على وَجَل، فإن الموت غادٍ ورائحٌ، وماسٍ وصابحٌ، وأنت يا أخي منه على يقين وتحقيق، [فلا] تَحِدْ[1] عن منهاج الطريق.

«بستان الواعظين» (ص١٨٤)

بادروا قبل حلول الأجل

الله الله! بادروا قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل من صالح العمل، وفراغ الأنفاس، وورود الأرماس[2]، ولا ينفعك حبيب ولا حميم، ولا ولد ولا والد رحيم، قد أحاطت بك الخطوب[3]، وكثرت عليك الكروب، وأَخَذ الوارثُ مالَك، ونكح العدو أو الصديق عيالك.

«بستان الواعظين» (ص١٨٦)

---

(١) أي: تنحرف وتَمِلْ. وفي الأصل المطبوع: «فلِمَ تحد»! وصوابها ما أثْبَتّ، أو: فلِمَ تحيدُ.

(٢) أي: القبور، مفردها: رَمْس، وهو القبر مستوياً مع وجه الأرض، والرَمْس أيضاً: التراب يحثى على القبر.

(٣) مفردها: خَطْب، وهو الأمر الشديد. سُمِّي بذلك لأنه يكثر فيه التخاطب.

لقد خُلِقْت لأمر عظيم

يا بن آدم، لقد خلقت لأمر عظيم، لو كنت تعقل لظهر قُنُوعُك، ولبَانَ خُشوعك، وثارت دموعك، خوفاً من القبر ووحشته، ومن اللّحد وضغطته، ومن هول المُطَّلَع ورَوْعته، فمَهِّد لنفسك يا مسكين بينما أنت حَي، وبينما يقبل منك شي، قبل طَيّ الكتاب، وغَلق الباب، ونزول الحجاب، والرحيل إلى التراب.

«بستان الواعظين» (ص٢٠٢)

فكروا رحمكم الله في أحبابكم

فكروا رحمكم الله في أحبابكم وجيرانكم وأصحابكم وإخوانكم وآبائكم وأمهاتكم وأخواتكم والأباعد والأقارب، وذوي المودة والأجانب، قد استوحشتْ من أنفسهم الديار، وانقطعت بينهم الآثار، وبقوا رَهْناً في الأجداث[١] بالأوزار، قد هجرهم الحبيب وسلا عنهم القريب، وقد ضُيِّقَتْ عليهم اللُّحود، وسالت عيونهم على الخدود، وتمزقت عنهم الجلود، ودَبَّتْ في أجسادهم الهَوَام والدود، وبقيت أرواحهم في البرزخ إلى اليوم الهائل الموعود، لم ينفعْهم ما جمعوا، ولا حَصَّنهم ما بَنَوْا وشَيّدوا، ولا مَنَعَهم كلُّ ما صَنَعوا، صارت القبور لهم قراراً، وفَرَّتِ الأحباب عنهم فِراراً، فانتبهوا يا معشر الإخوان، واجتهدوا في طاعة الرحمن، من قبل مفارقة الأحباب والأوطان.

«بستان الواعظين» (ص٢٠٢-٢٠٣)

---

(١) أي: القبور، مفردها: جَدَث.

تذكر أيها المغرور آباءك وإخوانك

تذكر أيها المغرور آباءك وإخوانك، وتذكر أهلك وجيرانك، وتذكر أحبابك وأخدانك، أين الذين كانوا لك في الدنيا أحباباً، وفي أيام حياتك أصحاباً؟ صَحِبْتَهم وصَحِبُوك، وذهبوا عنك وتركوك، وأوحشوا الأهل والأحباب، وفارقوا القرابة والأصحاب، قد ضَمَّتْ أجسادَهم المقابر، وغَيَّرت أبشارهم[1] الحفائر، وبقيت أرواحهم تنتظر يوماً تُبْلَى فيه السرائر[2]، فمنهم مَنْ يُجَازى بنعيم وخلود، ومنهم مَنْ يَرِدُ النار وبئس الوِرْد المورود، أين لقمان بن عاد؟ أين ثمودُ وشَدّاد؟ أين فرعون ذو الأوتاد؟ وأين مَنْ طغى في البلاد وأظهر فيها الفساد؟ ذهبت والله تلك الأجناد، وصاروا إلى ظُلَم القبور على غير مِهاد ولا وِساد.

«بستان الواعظين» (ص٢١١)

أين الملوك والأكابر

تذكر أيها الغافل، أين الملوك والأكابر، وأين الطغاة الجبابر، وأين الذين جمعوا الأموال والذخائر، وقادوا الجيوش والعساكر، وكانت الخطباء تذكرهم على المنابر؟ حَوَّلَتْهم والله النوائبُ إلى الحفائر، وبقوا مُرْتَهَنين بأعمالهم في ظلمات المقابر، ونزلوا على ما قَدَّموا من ذخائر الأعمال، قد قَطَّعَتِ الديدانُ أوصالهم، وغَيّر البلاءُ أحوالَهم، قد سالت العيون منهم على الخدود، وصارت لحومهم قوتاً للهوام والدود، وقُسِّمَت مِنْ بعد دفنهم في التراب أموالُهم، ونُكِحَتْ مِنْ عدوهم عيالُهم.

«بستان الواعظين» (ص٢١١)

---

(١) أي: الجلود، مفردها بَشَرَة.

(٢) كما قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

اعملوا لظلمة القبر قبل فوت العمل

عباد الله، اعملوا لظُلْمة القبر قبل فوات العمل، وبادروا بالتوبة قبل انقضاء الأَجَل، وأَشعلوا في قلوبكم نيران الخوف والوَجَل، وتزودوا للقبر بينما أنتم في فُسْحة ومَهَل، فإن الموت آت، والعمر فات، والطريق طويل، والزاد قليل، وهول القبر هائل ثقيل.

«بستان الواعظين» (ص٢١٨)

لا تهتكوا أستاركم بشرب الخمور

عباد الله، مولاكم قد أمركم بأمره، ونهاكم بنهيه، ومَنّ عليكم برِفْقه، ووَسّع عليكم من سَعَة رزقه، وجعلكم من خير الأمم، وأسبل عليكم جزيل النِّعَم، فلا تستعينوا بنعمه على معاصيه، فإنه ذو انتقام وعذاب، ورحمة وثواب، فأطيعوا مولاكم في جميع الأمور، ولا تهتكوا أستاركم بشرب الخمور، ولا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغَرور.

شربتم الخمور، وعصيتم الرب الغفور، وهتكتم الستور، وركبتم الفواحش والفجور، وتهاونتم بصعاب الأمور، ولم تفكروا في العرض والنشور، والوقوف بين يَدَي مَنْ يعلم ما تُخْفي الصدور.

«بستان الواعظين» (ص٢٦٠)

يا من تعثر في ذيل هواه

يا من تَعَثّر في ذيل هواه، متى يبدو من التوبة الصباح؟! يا من غَرّه ليلُ الشباب، هذا فجر المَشِيب قد لاح، أبليت قُوّتَك في طلب القُوت وفي الكِبَر

ترجو الصلاح؟! أَمَلُك في الهند وربما نعشك عند الصباح! أين مَنْ حَصَّن الحصون وغدا في لهوه وراح؟! أبادهم الحَدَثان فكم لهم تحت اللُّحود لو سمعت من صِياح، يَوَدّ أحدُهم ساعةً من عمرك عساه بالإقالة يَرْتاح، يا معشر المذنبين، هذا مأتم الأحزان فأين البكاء وأين النُّواح؟! إنْ فاتك طِبُّ وَعْظي فستقوى عليك الجِراح، أَحْدِدْ نَصْل دِينك[1] بالتنصل[2] لعلك تلحق بالصحاح، سيندم المُفرِّطون يوم هتك الأستار، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

«روح الأرواح» (ص١٨)

كم لي أحدث قلبك وما عندك خبر!

وا عجباه! كم لي أُحَدِّث قلبك وما عندك خبر؟! ضَيَّعْتَ شبابَك في الغفلة وتبكي عند الكِبَر! كيف استلنتَ فُرُشَ المعاصي؟! ما الذي أعمى منك البصر؟ تعصي مَنْ خلقك من نطفة وقَدِر عليك وقَدَر! بيده خزائن السموات والأرض ويستقرض منك[3] ويتخذ والذي عندك مُحْتَقَر، له البحر المسجور ويطلب منك دمعة يُطْفَأ بها لهب مُسْتَعَر، جَفَّتْ عيونُك من ماء الخشية وما لك عِبْرة فيمَن اعْتَبَر، ما أرى الشقاء إلا من أصل الفطرة[4]، لا حيلة في الأطرش ولا طِبّ في الأعمى وقد عَدِمَ البَصَر، فبالله بادر بالتوبة قبل ظهور الأسرار، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

«روح الأرواح» (ص١٩)

---

(١) أي: اشحذه حتى يصير قاطعاً، والنَّصْل: حديدة الرمح والسهم والسكين.

(٢) أي: بالخروج من الذنب والتبرء منه.

(٣) يشير إلى مثل قوله عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥، والحديد: ١١].

(٤) أصل فطرة الناس أن الله عز وجل خلقهم حنفاء، ثم بعد ذلك تلوثت الفطرة وتغيرت، ولا يعارض هذا أن الإنسان يُكْتَبُ وهو في بطن أمه شقياً أو سعيداً، وبسط هذا ليس هنا موضعه.

يا نائماً في قفار التسويف

يا نائماً في قِفَار التسويف، أخطأت الطريق، صَبِيُّ غَفْلَتِك يقول: إذا شِبْتُ تُبْتُ ولسان القواطع يناديه: «**هيهات هيهات لما توعدون**»، علامة الهلاك للمريض التسويف، قواعد آمالك مبنية على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ، عزيمتك للتوبة عزيمة بازي[1]، وعند عقد العهد تفر فرار رَخَمة[2]، تنقض عزيمة العزم بالتسويف كالتي نقضت غزلها، كلما ابيضّ الشَّيْبُ اسْوَدَّتِ الصحائف، كلما ضَعُفَتِ القوةُ قَوِيَ المرض، كلما قَصُر الأجل طال الأمل.

«روح الأرواح» (ص ١٠٣)

أيها الشاب

أيها الشابّ، أنت في بادية ومعك جواهر نفيسة، تريد أن تقدم بها لأخذ الجزاء، فاحذر أن يلقاك غَرَّارٌ من الهوى، فيشتري ما معك بأدون الثمن، فتقدم البلدَ فترى الرابحين فتفقع أسفاً، وتبكي لَهَفاً، وتقول: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]! وهيهات أن يَرُدَّ الأسفُ ما سَلَف!

«تنبيه النائم الغمر» (ص١٧-١٨)

ما زالت الدنيا مُرّة

ما زالت الدنيا مُرّة في العَبرة، ولكن قد مرض ذوقُك، لسان قلبك في عُقلة غفلة، وسَمْعُ فهمك مسدود عن الفِطنة بقُطنة، وبصرُ بصيرتك محجوب

---

(١) البازي والباز: ضرب من الصقور يُستخدم في الصيد.

(٢) طائر موصوف بالغدر. والمعنى: أنه كلما عزم على عَقْد عَهْدِ التوبة انهزم وغَدَرَ.

بعشا عَمَى، ومزاجُ تقواك منحرف عن الصحة، وأما نبض الهوى فشديد الخفقان، سارت أخلاط الأمل في أعضاء الكسل فثبَّطَتْ عن البِدار، وقد صارت المفاصل في منافذ الفهوم سدداً، وما يسهل عليك شرب مُسْهِل، ويحك! اجتنب حلواء الشَّرَه فإنها سبب حُمّى الروح، خَلِّ خِلَّ البخل فإنه يؤذي عصب المروءة، إن عُوجِلَتْ أمراضك فعُولِجَتْ، وإلا مَلَكَتْ فأهلكتْ، لو احتميت عن أخلاط الخطايا لم تَحْتَج إلى طبيب، مَنْ ركب ظهر التفريط نزل به دار الندامة.

«المدهش» (ص١٥١-١٥٢)

محبة الدنيا محنة

محبة الدنيا مِحنة، عيونها بابلية، كم تفتح باب بلية؟ ولا حيلة كحيلةٍ من عينٍ كحِيلة، كم أفردت من أرفدت؟ كم أخمدت من أخدمت؟ كم أفَلَّتْ[1] مَنْ أَلِفَتْ؟ كم أفقرت من أرفقت؟ كم فارقت من رافقت؟ كم قطعت من أقطعت؟ فعلها في التكدير كله هكذا، فإن آثرتَ الصفا فما في الزهد أذى، وإن أردت القذى فالق ذا.

«المدهش» (ص١٥٥)

يا من إذا أصبح طلب بالمعاش الشهوات

يا من إذا أصبح طلب بالمعاش الشهوات، وإذا أمسى انقلب إلى فراش الغفلات، أين أنت من أقوام نَصبوا الآخرة نُصْبَ أعينهم فنَصَبوا؟! فوفر النصب نصيبهم: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [صٓ: ٤٦].

«المدهش» (ص١٥٦)

---

(١) أي: ثلمت، أو: خاصمت. وهي أيضاً: فَلَّتْ، وفَلَّلَتْ.

أين أهل الصيام والقيام؟!

يا سوق الأكل، أين أرباب الصيام؟ يا فُرُشَ النوم، أين حراس الظلام؟ دَرَسَتْ والله المعالمُ ووقعت الخيام، قف بنا على الأطلال نَخُصُّها بالسَّلام.

«المدهش» (ص١٥٦)

﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ﴾

ما حَظِيَ الدينارُ بِنَقْشِ اسم المَلِك حتى صَبَرَتْ سبيكتُهُ على التَّرَدُّدِ إلى النار، فَنَفَتْ عنها كلَّ كَدَر، ثم صبرت على تقطيعها دنانير، ثم صبرت على ضَربها على السّكة، فحينئذ ظهر عليها رَقْمُ النَّقْش: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

«المدهش» (ص١٥٧)

انتبهوا من رقدات الأغمار

إخواني، انتبهوا من رقَدات الأغمار[١]، وانتهبوا لحظات الأعمار، وقاطعوا الكسل فقد قطع الأعذار، واسمعوا زواجر الزمن فما داجى الدجى ولقد بهر النهار، وخذوا بالحزم فقد شقي وتَلِفَ[٢] من رضي بشفا جُرُفٍ هار[٣].

(للشريف الرضي):

تفوز بنا المنون وتستبدُّ ... ويأخذنا الزمان ولا يَرُدُّ

---

(١) جمع غُمْر، وهو الجاهل الغِرّ الذي لم يجرب الأمور.

(٢) أي: هلك.

(٣) شفا جرف هار: أي طرف مَهْواة مشرف على السقوط.

وانظر ماضياً في أثر ماضٍ — لقد أيقنتُ أن الأمر جِدُّ
رويداً بالفرار من المنايا — فليس يفوتها الساري المُجِدُّ
فأين ملوكنا الماضون قِدْماً — أعَدُّوا للنوائب واسْتَعَدُّوا
أعارهم الزمانُ نعيم عيشٍ — فيا سَرعان ما اسْتُلِبُوا ورُدُّوا
هم فَرَطٌ لنا في كل يومٍ — نَمُدُّهُمُ وإنْ لم يَسْتَمِدُّوا

«المدهش» (ص١٥٩)

وا عجبا!

وا عجبا! يتأمل الحيوانُ البهيمُ العواقبَ وأنتَ لا ترى إلا الحاضرَ، ما تكاد تهتم بمؤنة الشتاء حتى يقوى البرد، ولا بمؤنة الصيف حتى يشتد الحر، ومن هذه صفته في أمور الدنيا ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]. هذا الطائر إذا علم أن الأنثى قد حملت أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع، أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلى القبر؟ فهلاّ بعثت لك فراش التقوى؛ ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، هذا اليَربوع[1] لا يتخذ بيتاً إلا في موضع طيب مرتفع، ليسلم من سيل أو حافر، ثم لا يجعله إلا عند أكمة أو صخرة، لئلا يضل عنه إذا عاد إليه، ثم يجعل له أبواباً ويُرَقِّقُ بعضَها، فإذا أُتِيَ من باب دفع برأسه ما رَقّ وخرج.

«المدهش» (ص١٦٠)

* * *

(١) اليَربوع: دُوَيْبَةٌ فوق الجُرَذ. «الأزهري».

يا مقهوراً بغلبة النفس

اسمع يا من ضيق على نفسه الخناق في فعل المعاصي، فما أبقى لعذر موضعاً، يا مقهوراً بغلبة النفس، صُلْ عليها بسَوْط العزم، فإنها إن علمت جِدَّكَ استأسرتْ لك، امنعها ملذوذ مباحها ليقع الصلح على ترك الحرام[1]، فإذا ضجت لطلب المباح، ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، الدنيا والشيطان خارجيان؛ خارجان عليك خارجان عنك، فالنفس عدو مباطن، ومن آداب الجهاد: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ [التوبة: ١٢٣]، ليس من بارز بالمحاربة كَمَنْ كَمَنَ، ما دامت النفس حَيَّة تسعى، فهي حَيَّةٌ[2] تسعى، أقل فعل لها تمزيق العمر بكف التبذير، كالخرقاء وجدت صوفاً[3]. اخل بها في بيت الفكر ساعة، وانظر هل هي معك أو عليك؟ نادها بلسان التذكرة: يا نفس، ذهب عرش بلقيس، وبَلِيَ جمال شيرين، وتمزق فرش بوران، وبقي نسك رابعة، يا نفس، صابري عطش الهجير يحصل الصوم، وتحزمي تَحَزُّمَ الأجير فإنما هو يوم.

جِدَّ في الجِدِّ قد تولى العمر ... كم ذا التفريط قد تدانى الأمر

أقبل فعسى يُقبل منك العذر ... كم تبني وكم تنقض كم ذا الغدر

«المدهش» (ص١٦٠-١٦١)

---

(١) منع النفس ما أحل الله لها ليس من الشرع، وأما منعها من الإسراف والفضول وما لا يعني فهذا منع شرعي وهو النافع، وبسط هذا ليس هنا موضعه.

(٢) أي: أفعى، والأولى: من الحياة.

(٣) مثل يضرب للذي يفسد ماله. قال العسكري: «خرقاء وجدت صوفاً. قالوا: هي امرأة من قريش وجدت صوفاً؛ أي: ثلة ومالاً، فأفسدت فيه، وهي التي يقال لها: أخسر من الناقضة غزلها». «جمهرة الأمثال».

دبر دينك كما دبرت دنياك

يا هذا! دَبِّرْ دينك كما دبرت دنياك، لو علق بثوبك مسمار رجعت إلى وراء لتخلصه، هذا مسمار الإصرار قد تشبث بقلبك، فلو عدت إلى الندم خطوتين تخلصت، هيهات! صبي الغفلة كلما حُرِّك نام، يا مجنون الهوى، إما مارستان[١] العزلة، وقَيْد الحمية، ومعالجة سلاسل التقوى، وإلا فمارستان جهنم، في أنكال العقوبة، وصحبة إبليس.

مَنْ رَقّ لبكاء الطفل لم يقدر على فطامه.

كل يوم تحضر المجلس يقف لك الشيطان على الباب، فإذا خرجت كما دخلت قال: فَدَيْتُ مَنْ لا يُفْلِح.

«المدهش» (ص١٦١)

يا مَنْ صحيفته بالذنوب قد حُفَّت

يا مَنْ صحيفتُه بالذنوب قد حُفَّتْ، وموازينُه لكثرة العيوب قد خَفَّتْ، يا مستوطناً والمزعجاتُ قد ذَفَّتْ[٢]، لا تَغْتَرَّ بأغصان المُنى وإن أورقت ورَفَّتْ، فكأنك بها قد صَوَّحَتْ[٣] وجفت، أما رأيت أكفاً عن مطالبها قد كَفَّتْ؟ أما شاهدت عرايس الأجساد إلى الألحاد زُفَّتْ؟ أما عاينت سطور الأجسام في كتب الأرجام[٤] قد أُدرجت ولُفَّتْ؟ أما أبصرت قبور القوم في رقاع بقاع القاع قد صُفَّتْ؟ من عرف تصرف الأيام لم يُغْفِلِ الاستعداد، إنّ

---

(١) المارستان: دار المرضى.

(٢) أسرعت وأجهزت.

(٣) يبست.

(٤) جمع رَجَم، وهو القبر.

قرب المنية ليضحك من بعد الأُمْنِيّة، ما جرى عبد في عِنان أمله إلا عثر في الطريق بأجله.

«المدهش» (ص١٦٣)

خُلِقنا نتقلّب في ستة أسفار

إخواني، خُلِقْنا نتقلب في ستة أسفار، إلى أن يستقر بنا المنزل، السفر الأول: سفر السلالة من الطين، والثاني: سفر النطفة من الصُّلب، والثالث: من البطون إلى الدنيا، والرابع: من الدنيا إلى القبور، والخامس: من القبور إلى العَرْض، والسادس: إلى منزل الإقامة، فقد قطعنا نصف الطريق، وما بعدُ أصعب.

«المدهش» (ص١٦٣-١٦٤)

السنون مراحل

إخواني، السنون مراحل، والشهور فراسخ، والأيام أميال، والأنفاس خطوات، والطاعات رؤوس أموال، والمعاصي قطاع الطريق، والربح الجنة، والخسران النيران، لهذا الخطب شمَّر المتقون عن سوق الجد في سوق المعاملة، كلما رأوا مراكب الحياة تخطف في بحر العمر شغلهم هول ما هم فيه عن التنزه في عجائب البحر، فما كان إلا قليل حتى قدموا من السفر، فاعتنقتهم الراحة في طريق التلقي، فدخلوا بلد الوصل وقد حازوا ربح الدهر.

«المدهش» (ص١٦٤)

* * *

الشهوات تَغِرّ وتَعِرّ

الشهوات تَغِرُّ وتَعِرُّ[1]، وتُمِرّ عيش العواقب وتَمُرُّ[2]، وتُبكي عين الندم أضعاف ما تَسُرّ، ألا يقظ ؟ ألا حذر؟ ألا حر؟

هل الدهرُ إلا ما عَرَفنا وأدركنا ... فجايعُـه تبقى ولذاتـه تفنى
إذا أمكنـتْ فيـه مَسَـرَّةُ ساعـةٍ ... تولّت كَمَرِّ الطَّرْفِ واستخلفتْ حُزْنا
إلى تبعاتٍ في المعاد وموقفٍ ... نَـوَدُّ لديـه أننـا لـم نكـن كُنّـا
حصلنا على هَمٍّ وإثمٍ وحسرةٍ ... وفـات الـذي كنـا نَلَـذُّ بـه عَنّا
كـأنّ الـذي كنـا نُسَـرُّ بكونـه ... إذا حَقَّقَتْهُ النفسُ لفظٌ بلا مَعْنَى

«المدهش» (ص١٦٧)

لقد أنضى الحرص مطية عمرك

لقد أنضى[3] الحرص مطية عمرك، وما وصلتَ بلد الأمل، لو قنعت الذبابة بطرف ظَرْفِ العسل ما تَلِفَتْ، لو عرفت قيمة نفسها رَخُصَتْ أو غَلَتْ ما أوغلت، شقايق[4] اللذة تَرُوقُ بَصَرَ الحِسِّ، وسِنُّ العواقب تضحك من المغرور، يا دني الهمة أعجبتك خضرة على مزبلة، فكيف لو رأيت فردوس المَلِك؟ قَنِعْتَ بخسايس الحشايش والرياض معشبة بين يديك! تقدم بالرياضة خطوات وقد وَصَلْتَ. «المدهش» (ص١٦٨)

---

(١) (تغر): من الغرور، و(تعر) من العَرّ: وهو الشر والمكروه.

(٢) (تمر): من المرارة، والثانية: من المَرّ والمُرور.

(٣) أي: أهزلها وأبلاها.

(٤) نبت، واحدتها شقيقة، سميت بذلك لحمرتها على التشبيه بشقيقة البرق، وقيل: واحده وجمعه سواء. «لسان».

تفاوت الهمم

الهمم تتفاوت في جميع الحيوانات، العنكبوت من حين يولد ينسج لنفسه بيتاً ولا يقبل مِنَّةَ الأم، والحية تطلب ما حفره غيرها إذ طبعها الظلم، الغراب يتبع الجِيَف، والأسد لا يأكل البايت، الكلب يُنَضْنِضُ [1] لترمى له لقمة، والفيل يتملق حتى يأكل، للصيد كلاب، وللمدبغة كلاب، أين الأَنَفَةُ؟ النحل يغضب فيترضى من لجاج، والخُنْفساء تُطرد فتعود، الاختبارُ يُظْهِرُ جواهرَ الرجالِ.

«المدهش» (ص١٦٩)

الزمان أنصح المؤدبين

الزمان أنصح المؤدبين، وأفصح المؤذنين، فانتبهوا بإيقاظه، واعتبروا بألفاظه.

فكم هذا التصامم والتعامي	وكم هذا التغافل والتواني
لو أنا قد فهمنا عن خراب	الديار مقالها لم يَبْنِ بَانِ
ويجني العيشُ كلَّ أذى ويُهْوَى	فيا للعيش يُعْشَقُ وهو جَانِ
فللَّه الأُولى درجوا جميعاً	وزادُهم النجاءُ من الهوانِ
وما عَلِقوا من الدنيا بشيء	سوى بُلَغٍ بأطراف البنانِ

لله در العارفين بزمانهم إذ باعوا ما شَانَهم بإصلاح شَانِهم، ما أقل ما تعبوا وما أيسر ما نصبوا! وما زالوا حتى نالوا ما طلبوا، شمروا عن سوق الجد

---

(١) أي: يحرك لسانه.

في سوق العزائم، ورأوا مطلوبهم دون غيره ضربة لازم، وأصبحوا [في] منزل النجاة وأنت في اللهو نايم، متى تسلك طريقهم يا ذا المآثم؟ متى تندب الذنوب ندب المآتم؟ يا رجالاً ما بانت رجولتهم إلا بالعمايم، يا إخوان الأمل قد بقي القليل وتفنى المواسم، أين أنت من القوم؟ ما قاعد كقائم.

«المدهش» (ص١٧٠)

عزّ التقوى

أَنِفَ القوم من مزاحمة الخلق في سوق الهوى، وقوي كرب شوقهم فلم يحتملوا حَصَر الدنيا[١]، فخرجوا إلى فضاء العز في صحراء التقوى، وضربوا مخيم الجد في ساحة الهدى، وتخيروا شواطىء أنهار الصدق فشرعوا فيها مشارع البكا، وانفردوا بقلقهم فساعدهم ريم الفلا، وترنمت بلابل[٢] بَلْبَالهم [٣] في ظلام الدجى، فلو رأيت حزينهم لطلب الرضا على جمر الغضا[٤]! فيا محبوساً عنهم في سجن الحرص والمنى، إن خرجت يوماً من سجنك لترويح شَجَنك من غم البلوى عَرِّج بذاك الوادي.

للشريف الرضي:

عارِضا بي ركب الحجاز أسائله	متى عهدُهُ بأيام سَلْعِ[٥]
واستَمِلاَّ حديث مَن سكن الخَيْفَ[٦]	ولا تكتباهُ إلا بدمعي

(١) أي: ضِيقها.
(٢) مفردها بُلْبُل، وهو العندليب.
(٣) البلبال: حديث النفس وهَمّ الصدر.
(٤) نوع من الشجر، جمره يبقى زماناً طويلاً لا ينطفىء.
(٥) (سلع): موضع بقرب المدينة.
(٦) (الخَيْفُ): موضع عند منى.

فاتـنـي أن أرى الديـار بطَرْفـي فلعلـي أعـي الـديـار بسمعـي
كلمـا سُـلَّ مـن فـؤادي سهــمٌ عاد سهمٌ لهم مَضِيضَ الوَقْعِ
مَنْ معيـدٌ أيـامَ جَمْعٍ علـى مـا كـان منهـا وأيـن أيـامُ جمعِ[1]
طالبٌ بالعـراق ينشد هيهات زمـانــاً أضلــهُ بــالجــزعِ

يا معوَّقاً عنهم بكثرة الحوادث، خلص الماء من ضيق الأنابيب، وانظر كيف يسرع؟ إلى متى تألف عُشَّ الصبا؟ سافر مع الرجال، لو عبرت بطن النَّجَف لاستنشقت ريح الحجاز، حدث نفسك بأرض نجد يَهُنْ عليها عبور العقبة، ذكِّرها قرب مِنى وقد دَرَجَتِ المَدْرَجَ.

«المدهش» (ص١٧١)

يا صبيان التوبة

يا صبيان التوبة، هلالكم خفى، فدوموا على المعاملة يصر بدراً، لا بد من ضيف: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، الطبع يحن إلى المألوف، والولد يَطلب ما يشتهي، والزوجة تروم سَعَة النفقة، والورع يختم كيس التصرف، ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]، أيدي صبيان التوبة في أفواههم بعد طعم الرضاع، بينا ليل زللهم قد عسعس، إذ صبح يوم توبتهم قد تنفس، فكلما احترقت قلوبهم بالخوف، تعرضوا بنسمات الرجاء للعفو.

يا صبيان التوبة، طبيبكم متلطف، تارة بالتشويق، وتارة بالتخويف، هذه الطير إذا انشقّ بيضُها عن الفراخ عَلِمَ الأبُ والأمُّ أن حوصلة الفرخ لا تحتمل الغذاء، فينفخان الريح في حلقه لتسع الحوصلة، ثم يَعْلمان أن الحوصلة تفتقر

---

(١) (جمع): مزدلفة، سميت بذلك لاجتماع الناس فيها.

إلى دبغ وتقوية، فيأكلان من صاروج الحيطان «وهو شيء فيه ملوحة كالسبخ» ثم يَزُقَّانِهِ[1] إياه، فإذا اشتدت الحوصلة زقَّياه الحَبَّ، فإذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع، فإذا جاع لقط، فإذا رأياه قد استقل باللقط ضرباه بالأجنحة إذا سألهما الزَّقَّ.

فتأملوا تدبيري لكم في المواعظ، الطفل لا يصبر على الرضاع ساعة، فإذا صار رجلاً صبر عن الطعام يومين، إنما تقع الكُلْفَة بقدر الطاقة، لما كان الطائر يحتاج أن يَزُقّ فرخه لم يُحمل عليه إلا تدبير بيضتين، ولما كانت الدجاجة تحضن ولا تَزُقّ كان بيضها أكثر، ولما كانت الضَّبَّة[2] لا تحضن ولا تَزُقّ صارت تبيض ستين بيضة، وتحفر لهن وتترك التراب عليهن، وبعد أيام تنبشهن فيخرجن.

«المدهش» (ص١٧٢)

الدنيا غرارة غدارة

إخواني، الدنيا غَرّارة غَدّارة، خَدّاعة مَكّارة، تُظَنُّ مُقيمةً وهي سَيّارةٌ، مُصَالِحَةً وقد شَنَّتِ الغارة.

نَحِّ نفساً عن القبيح وصُنْها	وَتَوَقَّ الدنيا ولا تأمَنَنْها
لا تثق بالدَّنِيِّ فما أبقت الدنيا	لحي وديعة لم تخنها
إنما جئتها لتستقبل الموت	وأُسْكِنْتَها لتخرج عنها

---

(١) زَقّ الطائر الفرخ: أطعمه بفيه.

(٢) أنثى الضَّبّ، وهي دويبة من الحشرات معروف، وهو يشبه الوَرَل. «اللسان». وفي «الوسيط»: «حيوان من جنس الزواحف من رتبة العَظَاء، غليظ الجسم خشنه، وله ذنب طويل عريض حَرِشٌ أَعْقَدُ».

ستخلي الدنيا وما لك إلا ... ما تَبَلَّغْتَ أو تزودت منها
وسيبقى الحديث بعدك فانظر ... خير أحدوثة تكون فَكُنْها

«المدهش» (ص١٧٤)

كأنك بالموت وقد خطف

كأنك بالموت وقد خطف، ثم عاد إلى الباقي وعطف، تنبه لنفسك يا ابن النطف، فقد حاذى الرامي الهدف، إلى كم تسير في سَرَف؟ ليت هذا العزم وقف، تؤخر الصلاة ثم تسيئها كالبرق إذا خطف، أتجمع سوء كِيلَةٍ مع حشف[١]؟ الجسد أتى والقلب انصرف، يا من باع الدُّرَّ واشترى الخَزَف، ابسط بساط الحزن على رماد الأَسَف.

عليك حافظ وضابط، ليس بناسٍ ولا غالط، يكتب الألفاظ السواقط، وأنت في ليل الظلام خابط، يا من شاب إلى كم تغالط؟ ابك ما مضى ويكفي الفارط.

«المدهش» (ص١٧٤)

ما للعيون قد أخلفت أنواؤها

ما للعيون قد أخلفت أنواؤها[٢] ؟ وكثر نظرها إلى الحرام فقل بكاؤها،

---

(١) أي: أتجمع أن يكون المَكِيل حَشَفاً (وهو أردأ التمر) وأن يكون الكَيل مُطَفَّفاً (أي: خاسراً ناقصا).

(٢) الأنواء: مفردها: نَوْء، والنوء: النجم إذا مال للغروب، والنوء: المطر، والنوء: العطاء، والمعنى: أن نجوم العيون قد أخلفت فلم تمطر بسبب ذلك العيون بدمعها. هذا وتعليقهم مطر السماء بالنجوم بقولهم: مُطِرْنا بالأنواء، إذا اعتقد القائل فعل النجم فهو شرك، وإن اعتقد فعل الله فإنه تحرم نسبة ذلك إلى النجم. وتفصيله ليس هذا موضعه.

ما للقلوب المريضة قد عَزَّ شفاؤها؟ سأكتب ضمان الآمال وأين وفاؤها؟ آهِ لأمراضِ نفوسٍ قد يئس طبيبها، ولأصوات مواعظَ قد خَرِس مُجيبها!

هَبَّتْ والله دَبُور الذنوب[1]، فتركت الأجسام بلا قلوب.

أين الفَهْمُ والتأمل؟ إن لم يكن جميلٌ فليكن تَجَمُّلٌ.

إخواني، قد دنا التَّرَحُّل، لا بد وشيكاً من التَّحَوُّل.

«المدهش» (ص١٧٤-١٧٥)

الدنيا وراءك والأخرى أمامك

يا هذا، الدنيا وراءك والأخرى أمامك، والطلب لما وراءك هزيمة، إنما يعجب بالدنيا من لا فهم له، كما أن أضغاث الأحلام تسر النائم، لُعَبُ الخيال يحسبها الطفل حقيقة، فأما العقل فيعلم ما وراء الستر.

رأيت خيالَ الظِّلِّ أكبرَ عِبرةً لمن هو في علم الحقيقة راقِ
شُخُوصٌ وأَشْبَاحٌ تَمُرُّ وتنقضي جميعاً وتفنى والمُحَرِّكُ باق

كم أتلفت الدنيا بيَدِ حِبِّها في بِيدِ طلبها؟! كم ساعٍ سعى إليها سعي الرُّخِّ ردته معكوساً رد الفرازين[2] ؟! الدنيا نهر طالوت، والفضائل تنادي: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾ [البقرة:٢٤٩]، فإذا قامت الفاقة مقام ابن أم مكتوم[3] أُبيحَتْ لها رخصةُ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ﴾ [البقرة:٢٤٩]، فأمّا أهل الغفلة

---

(١) يعني: ريحها. والدَّبُور: ريح تهب من جهة المغرب.

(٢) الفرازين: جمع فِرزان، وهو من أحجار رقعة الشطرنج يقابل الملك، والرّخّ من أحجار الشطرنج أيضاً.

(٣) يعني مقام الأعمى، وابن أم مكتوم صحابي معروف.

فارتووا، فلما قامت حرب الهوى ثبطتْهم البطْنَة[1]، فنادَوا بألسنة العجز: ﴿لَا طَاقَـةَ لَنَـا﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وأقبل مُضَمّر[2] الجِدِّ فحاز قصب السَّبق.

«المدهش» (ص١٧٤-١٧٥)

أيتها النفس

أيتها النفس، أقلعي عن الجُناح[3] وتوبي، وارجعي إلى الصلاح وأُوبي، أيتها النفس، قد شان شاني[4] عيوبي، أيتها الجاهلة، تكفيني ذنوبي.

يا ويح نفسي من تتابع حَوْبتي	لو قد دعاني للحساب حسيبي
فاستيقظي يا نفس ويحك واحذري	حـــذراً يُهَيِّج عَبْرتـي ونحيبـي
واستدركي ما فات منك وسابقي	سطواتِ مَوتٍ للنُّفوسِ طَلُوبِ
وابكي بكاء المستغيث وأعْوِلي	إعوال عانٍ في الوِثاقِ غَريبِ
هذا الشباب قـد اعتللتِ بلهوه	أفليس ذا يا نفس حين مشيبي
هذا النهـار يكـر ويحـك دائبـاً	يجري بصرف حوادث وخطوبِ
هذا رقيـب ليـس عنـي غافـلاً	يُحصي عليَّ ولو غَفَلْتُ ذنوبي
أو ليس من جهل بأني نائم	نــوم السَّفيــه ومـا ينام رقيبي

---

(١) أي: امتلاء البطن من الطعام.

(٢) المُضَمَّر من الخيل: ما أُعِدّ منها للسباق أو للركض إلى العدو، وتضميرها أن تشد عليها سروجها وتُجَلَّل بالأجلة حتى تعرق تحتها، فيذهب رَهَلُها ويخف بطنها ويشتد لحمها.

(٣) الجُناح: الإثم.

(٤) الأولى من الشَّين، والثانية من الشأن.

آهٍ لنفس تركت يقينها وتبعت آمالها، ما لها؟ جهلت ما عليها وما لها، أما ضَرَبَتِ العبر بأخذ أمثالِها أمثالَها؟ من لها إذا نازلها الموت فغالها، وأخذ منها ما نالها وقد أنى[1] لها؟! ليتها تفقدت أمورها أو شهدت أحوالها، تحضر المجلس بنية فإذا قامت بدا لها، ويحها! لو ترى أجزاءً مِنْ مَا لَها لهالها[2].

«المدهش» (ص١٧٨)

عجباً لذاكر الموت كيف يلهو؟!

عجباً لذاكر الموت كيف يلهو؟! ولخائف الفوت وهو يسهو، ولمتيقن حلول البِلى ثم يزهو، وإذا ذُكِرَت له الآخرة مَرَّ يلغو.

(لأبي العتاهية):

إني أرِقْتُ وذكر الموت أرّقني ... فقلتُ للدمع أسعدْني فأسعدني

إن لم أبكِ لنفسي مشعراً حزناً ... قبل الممات ولم آسف لها فمنِ

يا من يموت ولم تُحْزِنْه مَوْتَتُه ... ومن يموتُ فما أولاه بالحَزَنِ

لمن أُثَمِّرُ أموالي وأُجَمِّعُهَا ... لمن أروح لمن أغدو لمن لمنِ

لمن سَيَرْفَعُ بي نعشي ويتركني ... في حفرتي تَرِبَ الخدين والذقَنِ

يا غافلاً عن الموت وقد لدغه، أخذ قرينه فقتله ودمغه، تأمل صنع الدهر بالرأس إذا صبغه، بأي حديث ترعوي أو بأي لغة؟ كم رأيتَ مغروراً قبلك؟ كم شاهدتَ منقولاً مثلك؟ مَنْ أباد أقرانك؟ ومن أهلَكَ أهلك؟ لقد نادى

(١) أي: حان وقرب.

(٢) أي: لأفظعها.

الموت وقال: ما أنا بالذي إذا سئل أقال، أنا الذي إذا مال على القوي أمال، أخذتم أماني يا أهل الأماني[1] والآمال، أين من كان في رَوْحٍ وسَعة؟ نقلتُه إلى مكان ما وَسِعَه، أين من كان على نسائه شديد الغَيْرة؟ أما رحل عنهن فاخترن غيره؟ أين من كان يسري آمناً في سِرْبه، أما قيل للتلف خذه وسِرْ بِه؟ أما عاقبة الأُلفة فُرْقة؟ أما آخر جرعة اللذة شَرْقة؟ أما خِتام الفرح قلق وحُرْقة؟ أما زادُ ذي المال إلى القبر خِرقة؟ أعِرْ سمعك الأصوات، فهل تسمع إلا فلاناً مات؟ أَجِلْ بَصَرَك في الفَلَوات، فهل ترى إلا القبور الدارسات؟

«المدهش» (ص١٨٣-١٨٤)

كأنك بحرب التلف قد قامت

كأنك بحرب التلف قد قامت على ساق، وانهزمت جيوش الأمل، وإذا بملَك الموت قد بارز الرُّوح، يجتذبها بخطاطيف الشدائد من تيار أوتار العروق، وقد أوثق كِتَاف الذبيح، وحار البصر لشدة الهول، وملائكة الرحمة عن اليمين، قد فتحوا أبواب الجنة، وملائكة العذاب عن الشمال، قد فتحوا أبواب النار، وجميع المخلوقات تستوكف الخبر، والكون كله قد قام على صيحة، إما أن يقال: سعد فلان، أو شقي فلان، فحينئذ تتجلى أبصار ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ [الكهف: ١٠١]، ويحك! تهيأ لتلك الساعة، حصل زاداً قبل العَوَز[2].

«المدهش» (ص١٨٥)

* * *

---

(١) الأولى من الأمان، والثانية من الأمنيّة.

(٢) أي: الحاجة.

مثل نفسك في زاوية من زوايا جهنم

يا هذا، مثل نفسك في زاوية من زوايا جهنم وأنت تبكي أبداً، وأبوابها مغلقة وسقوفها مُطْبِقة وهي سوداء مظلمة، لا رفيق تأنس به، ولا صديق تشكو إليه، ولا نوم يريح ولا نَفَس. قال كعب: إن أهل النار ليأكلون أيديهم إلى المناكب من الندامة على تفريطهم، وما يشعرون بذلك.

«المدهش» (ص١٨٥)

كم أخرج الموت نفساً من دارها!

كم أخرج الموتُ نفساً من دارها لم يُدارها! وكم أنزل أجساداً بجارها لم يجارها! وكم نقل ذاتاً ذات خطأ بأوزارها! وكم أجرى عيوناً كالعيون بَعْد بُعْد مزارها!

يا مُغْرَماً بوصال عيشٍ ناعمٍ	سَتُصَدُّ عنه طائعاً أو كارها
إن المنية تزعج الأحرار عن	أوطانهم والطير عن أوكارها

إخواني، قد حام الحِمام حول حِماكم، وصاح بكم إذا خلا النادي وناداكم، وأولاكم من النصح حَقَّكم، فما أَحَقَّكم بالتدبر وأولاكم، وهو عازم على اقتناصكم، وما المقصود سواكم، كم أخلى الموت داراً فدارا؟ أما استلب كسرى بن دارا؟ أداري لما أخذ داراً؟ أما ترك العامرَ قِفاراً؟ أما أذاق الغُصص المُرّ مراراً؟ لقد جال يميناً ويساراً، فما حابى فقراً ولا يساراً.

«المدهش» (ص١٨٧)

* * *

لقد خوفنا الموت بمن أخذ منا

لقد خوفنا الموت بمن أخذ منا، ونعلم هجومه علينا وقد أمِنّا، ما أذكرتنا المواعظ مآلنا فما لنا ما لنا؟!

لا تــرقــدن لعينــك السهــرُ ... وانظــر إلــى مــا تصنــع العبــرُ
انظــر إلــى عبــر مصــرفــة ... مــا دام يمكــن طــرفــك النظــرُ
فــإذا جهلــت ولــم تجــد أحــداً ... فســل الزمــان فعنــده الخبــرُ
فــإذا نظــرت تــريــد معتبــراً ... فــانظــر إليــك ففيــك مُعْتَبَرُ
أنــت الــذي تنعــاه خلقتــه ... ينعــاه منــه الشَّعــر والبشــرُ
يــا مــن يُــؤمِّــل أنــت مُنْتَظِــرٌ ... أمــلاً يطــول ولســت تُنتظرُ
ماذا تقول وأنت في غُصصٍ ... مــاذا تقــول وفوقَك المَــدَرُ
مــاذا تقــول وقــد لَحِقْــتَ بمــا ... يجري عليــه الريــح والمطــرُ
كــم قــد عَفَــتْ عيــنٌ لهــا أَثَــرٌ ... دَرَسَتْ ويُــدْرَسُ بعدهــا الأثــرُ

«المدهش» (ص١٩٠)

يا من يُشَيِّع ببدنه الميت

يا من يُشَيِّع ببدنه المَيْت، فأما قلبه ففي البيت، أَتُخَلِّى بين المودود والدود؟ وتعود إلى المعاصي حين تعود، هَلاّ أَجَلْتَ بالبال ذِكر البالي؟ وقلت للنفس الجاهلة: هذا لي، من زار القبور والقلب غافل، وسعى بين الأجداث والفكر ذاهل، وشغله عن الاعتبار لهو شاغل، فهو قتيل قد أسكره القاتل.

وما أعطى الصبابةَ ما استحقتْ عليه ولا قضى حَقّ المنازل
مُلاحِظُها بعينٍ غيرِ عَبْرَى وزايرُها بجسمٍ غيرِ ناحل

«المدهش» (ص١٩٠)

يا مسدود الفهم

يا مسدود الفَهم بكثرة الشواغل، أحضر قلبك لحظة للعظة، يا جامداً على وضع طبعه، تحرك إلى قُطر التذكرة، يا عبد الطمع طالع ديار الأحرار، ما أطول غشية غفلتك! فلمن نحدث؟ قلبك في غلاف غفلة، وفطنتك في غشاوة غباوة، وحبل عزمك الجديد جديد[1]، لو خرج عقلك من سلطان هواك عادت الدولة عادلة، لو صح مزاج فطرتك حلا طعم النصح في فمك، المفروض عندك مرفوض، وكلام النصيح صوت الريح.

يا تلميذ الهوى، اخرج من وصف التبَعِيّة، يا مُقَيَّدَ الوجود في فناء الفناء، قامت قيامة الملامة وما تسمع، لقد ضحل[2] صوت النصيح، ولكنّ صَلَخَ[3] صِماخ السمع مانعٌ.

يا هذا، لو وقف مرضك رجونا لك البُرْء، ولكن المرض يزيد وقوة العزم تضعف.

«المدهش» (ص١٩١)

* * *

---

(١) أي: مقطوع.
(٢) أي: بَحّ.
(٣) الصَّلَخُ: الصَّمَمُ.

يا نائماً طول الليل

يا نائماً طول الليل ما تحس بَرْد السحر، لقد نَمَّ النسيمُ على الزَّهر، ودلت أغاريد الحَمام على دنو الفجر، صاح الديك فلم تنتبه، وأعاد فلم تُفِقْ، فقوي ضرب الجناحين لطماً على غفلتك.

صَفَّقَ إما ارتياحه لسنا الفجر ... وإما على الدجى أسفا

. . . .

يا مَطُولاً بالقيام ... مستلذاً بالمنام

قم فقد فاتك يا ... مغبون أرباح الكرام

وخَلَوْا دونك بالمو ... لى وفازوا بالمرام

وكذا يسبقك القو ... م إلى دار السلام

«المدهش» (ص١٩٣)

الدنيا دار الآفات

إخواني، الدنيا دار الآفات، الإثم بقي والالتذاذ فات، بينا نرى فيها الغصنَ خَضِراً متمايلاً أصبح ذابلاً ذا بِلى.

يا أيهذا الذي قد غَرّه الأمل ... ودون ما يأمل التنغيص والأجل

ألا ترى أنما الدنيا وزينتها ... كمنزلِ الركب حلوا ثُمَّتَ ارتحلوا

حتوفها رَصَدٌ وعيشها نكد ... وصفوها كدر وملكها دُوَلُ

تظل تُفْزِعُ بالرّوْعات ساكنَها ... فما يسوغُ لها عيشٌ ولا جَذَلُ

كـأنـه للمنـايـا والـردى غـرض		تظـل فيه سهام الدهر تُنْتَضَـلُ

والنفس هاربة والموت يتبعها		وكـل عثـرةِ رِجْـلٍ عندهـا جَلَـلُ

والمرء يسعى بما يسعى لوارثه		والقبـر وارثُ ما يسعى له الرجـلُ

إخواني، البسوا للدنيا جُنّة الهجر، واسمعوا فيها من مواعظ الزجر، واحسبوها يوماً صُمْتُمُوه للأجر، وصابروا ليل البِلى فما أسرع إتيانَ الفجر، فلا تبيعوا اليقين بالظن فحرام بيع المَجْر[١].

«المدهش» (ص١٩٤)

ولِّ الدنيا ظهرك

وَلِّ الدنيا ظهرك تَنُصّ[٢] الآخرة لك نقابها، تَعَرَّ عن الدنيا تَعِزّ، وخذ قدر البلغة وجُزْ تَفُزْ، إلى متى زنبيل حرصك على كاهل همتك وأنت تسعى في مزابل طمعك؟! تَحُشّ وقود الحطام لنار هواك وقد أقمت موقداً من الشَّرَه لا يفتر، أما علمت أنه كلما ترقّى دخان أتون الهوى في برابخ[٣] الحس سود وجه القلب، أنت في جمع الحطام نظير الزبال، وفي فعل الخير غلام الخبال[٤]، عالَم الهمم مختلف الأجناس، هذا الشِّفْنين[٥] لا يقرب غير زوجته أبداً، فإن ماتت لم يتزوج أبداً، وكذلك الأنثى، والدجاجة مع أي ديك كان.

كلامي يدور حول ستور سمعك، وموانع الهوى تحجبه أن لا يصل، فلو

---

(١) هو أن يشترى ما في بطن الناقة من حمل، أو أن يشترى البعير بما في بطن الناقة. «لسان».

(٢) ترفع.

(٣) مجاري.

(٤) أصل الخَبال: النقصان.

(٥) هو اليمام.

قد وصل إلى القلب أثّر، عضت رجلاً حية فلم يعلم أنها حية فلم يتغير، فلما أُخبر أنها حية مات؛ لأنه حين أُخبر انفتحت مسامّه، فوصل السمّ إلى القلب.

«المدهش» (ص١٩٥-١٩٦)

يا أُطروش الهوى صاحبْ مَنْ يَسمع

يا أُطروش[1] الهوى صاحبْ مَنْ يسمع، يا أعمى البصيرة، امش مع مَنْ يُبْصر، تشبه بالصالحين تُعَدّ في الجملة، هذا الطاووس يحب البساتين فهو يوافق الأشجار؛ إذا ألقت ورقها ألقى ريشه، فإذا اكتست اكتسى، لو سِرْتَ في حزب المتقين خطوات لعرفوا لك حق الصحبة، يا من كان لهم رفيقاً فأصبح لا يعرف لهم طريقاً، اطلب اليوم أخبارهم، واتّبع في السلوك آثارهم، فإن وقعت ببعضهم حَمَلَكَ إلى أرضهم.

«المدهش» (ص١٩٦)

جالس البكّائين

يا مَنْ قد كثر تردده إلى المجلس ولم تَزُلْ قسوة قلبه، لا تَضْجَرْ فللدوام أثر، جالس البكائين يَتَعَدّ إليك حزنهم، فتأثير الصحبة لا يخفى، أما ترى دون البقل[2] أخضر؟ يا من يشاهد ما يجري على الخائفين ولا ينزعج، أَقَلّ الأقسام أن يبكي رحمة لهم، إذا رأيت الثكلى تتقلقل فلا بد من رحمة الجنس.

«المدهش» (ص١٩٦)

---

(١) هو الأصمّ.

(٢) أي: قُرْبَه، فإن «دون» تأتي ظرفاً. ولا أستبعد أن تكون الكلمة «دود البقل»، والله أعلم.

يا مَنْ نسبه مُعْرَق في الموتى

يا من نسبه مُعْرَق في الموتى، وقد وعظوه وإن لم يسمع صوتاً، أدرِك أمرك فما تأمن فَوْتاً.

(لأبي نُوَاس):

ألا كلُّ حي هالك وابن هالك	وذو نسب في الهالكين عريق
فقل لغريب الدار إنك راحل	إلى منزل نائي المحل سحيق
وما تعدم الدنيا الدنية أهلها	شُوَاظ حريق أو دخان حريق
تُجَرِّعُ فيها هالكاً فَقْدَ هالكٍ	وتُشْجي فريقاً منهم بفريق
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها	قراراً فما دنياك غير طريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له	عن عدوٍّ في ثياب صديق
عليك بدار لا يزال ظلالها	ولا يتأذى أهلها بمضيق
فما يبلغ الراضي رضاه ببلغة	ولا ينفع الصادي صداه بريق

«المدهش» (ص١٩٨)

يا راقداً وقد أُوذن بالرحيل

يا راقداً وقد أُوذِن بالرحيل، يا مشيد البنيان في مدارج السيول، بادر بالعمل قبل انقضاء العمر، لا تنس مَنْ يَعُدّ الأنفاسَ للقائك.

وما هي إلا ليلة ثم يومها	ويوم إلى يوم وشهر إلى شهر
مطايا يقرِّبن الجديد إلى البِلى	ويدنين أشلاء الصحيح إلى القبر

ويتركــن أزواج الغيــور لغيـره ويقسمن ما يحوي الشحيح من الوفر

«المدهش» (ص١٩٨)

أما تعلم ما أمامك؟

يا عجبا! أما تعلم ما أمامك؟ فتهيأ للرحيل وأصلح خيامك، وتأهب للردى واقطع قطع المِدى مُدامك[١]، واجتهد أن ينشر الإخلاصُ في المحل الأعلى أعلامَك، وأحضر قلبك وسمعك وإن ملا من لامك، وإياك والفتور فإني أرى الدواء دوامك، اطلب ما شئت بالعزم وأنا زعيم لك بالظفر، من عزم على أمر هيأ آلاته، لما كان شغل الغراب الندب على الأحباب لبس السواد قبل النَّوح.

«المدهش» (ص١٩٨-١٩٩)

يا كثير الدرن والدنس

يا كثير الدّرَن والدَّنَس، يا من كلما قيل أقبل انتكس، يا من أُمِر بترك ما يفنى لما يبقى فعكس، جاء الأجل وحديث الأمل هَوَس، يا مؤثراً على الصواب عين الغلط، يا جارياً في أمره على أقبح نمط، يا مضيعاً وقته المُغتنَم الملتقط، أي شيء بقي بعد الشَّمَط[٢]؟ أتنسى ما سلف لك وفَرَط؟ وأبوك بزلة واحدة هبط، ما عندك من التوبة خبر ولا لها فيك أثر، تتوب من الذنب فإذا بدا لك بدا لك[٣].

«المدهش» (ص٢٠٣)

---

(١) المِدى: مفردها مُدْيَة، وهي السكين. والمَدام: الخمر.

(٢) بياض الرأس يخالطه سواد.

(٣) الأولى: بمعنى ظهر لك، والثانية: بمعنى غيرتَ رأيك.

عقاقير التوبة

يا هذا، تسمع بالكيمياء وما رأيتَه صَحّ قَطّ، اجمع عقاقير التوبة في بوتقة العزم، وأوقد تحتها نار الأسى على ما سلف، فإن تصعّد منها نَفَس أسف، صار نحاس نحوسك ذهب سعادة، أتُرى في بستاننا اليوم ثمراً قد توجه صلاحه؟ كأني أشم ريح كبد محترقة، أي قلب قد لفحته نار الوجد ففاح نسيمُه؟ أحسن منظوم في سلك الاعتذار خرز الذل.

«المدهش» (ص٢٠٤-٢٠٥)

أيها المشغول باللذات الفانيات

أيها المشغول باللذات الفانيات، متى تستعد لملمات الممات؟ متى تستدرك هفوات الفوات؟ أتطمع مع حب الوسادات في لحاق السادات؟ وأنّى [تُجْعَلُ] مثلهم؟ أنّى؟ وهيهات!

يا مدمن اللذات ناسٍ غدرها	اذكر تَهَجُّمَ هادم اللذات
احذر مكايده فهُنّ كوامنٌ	في كَرِّكَ الأنفاس واللحظات
تمضي حلاوة ما احتقبت وبعده	تبقى عليك مرارة التبعات
يا حسرة العاصين يوم معادهم	ولو أنهم سيقوا إلى الجنات
لو لم يكن إلا الحياء من الذي	ستر الذنوب لأكثروا الحسرات

«المدهش» (ص٢٠٦)

* * *

يا عظيم الجرأة

يا عظيم الجرأة، يا كثير الانبساط، ما تخاف عواقب هذا الإفراط؟ يا مؤثراً الفاني على الباقي، غلطة لا كالأغلاط، ألك صبر يقاوم ألم السياط؟ ألك قدم يصلح للمشي على الصراط؟ أيعجبك لباس الصحة؟ كلا، وثوب البلا يخاط، داء المنون داء أعيى على بقراط، كم رحل الموت على غارب اغتراب! كم ألحق تِرباً بالأتراب في سفر التراب! إنما الموت مُخْرَنْبِقٌ (١) ليقول، ومُجْرَمِّزٌ (٢) ليغول.

«المدهش» (ص٢٠٦)

يا شدة الوجل عند حضور الأجل

يا شدة الوجل عند حضور الأجل! يا حسرة الفوت عند حضور الموت! يا خجلة العاصين! يا أسف المقصرين!

(للحجاج):

إلى حتفي سعى قدمي … أرى قدمي أراق دمي

فما أنفك من ندمٍ … وهان دمي فها ندمي

استَلِب زمانك يا مسلوب، وغالب الهوى يا مغلوب، وحاسب نفسك فالعمر محسوب، وامح قبيحك فالقبيح مكتوب، وا عجبا لنائمٍ وهو مطلوب،

---

(١) المُخْرَنْبِق: المطرق الساكت الكافُّ. وفي المثل: «مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاع»؛ أي: ليثب أو ليسطو إذا أصاب فرصة، فمعناه: أنه سكت لداهية يريدها.

(٢) أي: منقبض ومجتمع، وأصله: مُجْرَنْمِز، فأدغمت النون في الميم. وجَرْمَزَ واجْرَمَّزَ: انقبض واجتمع بعضه إلى بعض.

ولضاحكٍ وعليه ذنوب!

ألا ذكّراني قبل أن يأتي الموتُ ... ويُبنى لجثماني بدار البِلى بيت
وعَرَّفني ربي طريق سلامتي ... وبَصَّرني لكنني قد تعاميت
وقالوا مشيب الرأس يحدو إلى البِلى ... فقلت أراني قد قربت فأدنيت

«المدهش» (ص٢٠٦-٢٠٧)

أين الدموع السواجم؟!

أين الدموع السواجم قبل المنايا الهواجم؟ أين القلق الدائم للذنوب القدايم؟ أترى أثرت الملاوم في هذه الأقاوم[١] ؟ أيها القاعد والموت قائم، أنائم أنت عن حديثنا أم متناوم؟ لا بد والله من ضربة لازم، تقرع لها سن نادم، لا بد من موجِ هولٍ متلاطم، ينادي فيه نُوحُ الأسى: ﴿لاَ عَاصِمَ﴾، لا بد من سقم السالم، ينسى فيه يا أم سالم[٢].

يا من سينأى عن بنيه ... كما نأى عنه أبُوه
مثِّل لنفسك قولَهم ... جاء اليقين فوجِّهوه
وتحلَّلوا من ظُلْمه ... قبل الممات وحَلِّلوه

«المدهش» (ص٢٠٧)

* * *

---

(١) جمع قَوْم.

(٢) لعله يريد أنه ينسى فيه هواه، ولعل «أم سالم» هنا «مية المنقرية» صاحبة ذي الرمة الشاعر، وقد أكثر من ذكرها بهذه الكنية في شعره، فالله أعلم.

يا مؤخراً توبته بمطل التسويف

يا مؤخراً توبته بمَطْلِ التسويف، ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ [المرسلات: ١٢]؟! كنتَ تقول إذا شئتُ تبتُ، فهذي شهور الصيف عناقد انقضت، قَدِّر أن الموت لا يأتي بغتة! أليس مرض الموت يبغت؟ ويحك! قد نفد السليط[١] فاستدرك ذُبالة[٢] المصباح، في كل يوم تضع قاعدة إنابة، ولكن على شفا جُرُف هار[٣]، كم تعزم على طاعة وتوبة! يا ليلى الهوى ما تبصر توبة[٤]، تبيت من العزم في شعار أُويس[٥]، فإذا أصبحت أخذت طريق قيس[٦]، تنقض عُرى العزايم عُروة عُروة، كل صريعٍ في الهوى رفيق عروة[٧]، كم تدفن كثيراً من الأعزة؟ وما يرجع كُثَيِّر عن حبِّ عَزَّة[٨].

«المدهش» (ص٢٠٧)

طال مرضك واليوم بحران

طال مرضك واليوم بحران، أتدري ما البحران؟ تجتمع القوة والمرض فيختصمان، فإن تحلبتْه جاءت العافية، وإن تحلبها فالهلاك، هذه ساعة بحرانك، والعقل يقاوم الهوى، فانظر من يغلب؟ وا عجبا! كيف يستأسر أسد

---

(١) السليط: الزيت.

(٢) الذُّبالة: الفتيلة التي تُسْرَج.

(٣) أي: طرف مَهواة مشرف على السقوط.

(٤) يشير إلى «ليلى الأخيلية» وصاحبها «توبة بن الحُمَيِّر».

(٥) هو سيد التابعين أويس القَرَني.

(٦) هو مجنون ليلى، عَلَمُ العشق المعروف.

(٧) هو عروة بن حزام بن مهاجر الضني. «الأعلام» (٤/ ٢٢٦).

(٨) هو كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن أبي جمعة، صاحب عَزَّة.

لثعلب؟ يا مُستهاناً في خدمة النفس، اخرج إلى ديار القلب تَعِزّ، الفِيَلَةُ في الهند عوامل تنقل رجال القوم وتخدمهم، فإذا خرجت إلى من يعرف قدرها أُكرمت، العُود في بلاده خشب، فإذا سُوفِرَ به إلى طالب الطيب أُعِزَّ، تفاح أصبهان في بلده فاكهة، فإذا جيء به إلى العراق دَلّ على الطباع اللطيفة بريحه، الفهد في الصحراء بهيمة، فإذا وقع بيد من يعرفه غضب فيُتَرَضَّى، البازي[1] في البرية طائر، فإذا صِيد فسريره كَفُّ المَلِك.

«المدهش» (ص٢٠٨)

يا من يمشي على ظهور الحفر

يا من يمشي على ظهور الحُفَر، ويرى السابقين إلى بيوت المَدَر، لو أصغى سمع التدبير سَمِعَ العِبَر، كفى بالموت واعظاً يا عُمَر.

لأبي العتاهية:

وعظتْــكَ أجــداثٌ صُمُــت	ونعتــــك أزمنـــة خُفُـــتْ
وتكلّمَـــتْ عـــن أعظـــمٍ	تبلـــى وعـــن صـــور شُتُـــتْ
وأرتـــك قبـــرك فـــي القبـــو	ر وأنـــت حـــيٌّ لـــم تمُـــتْ

«المدهش» (ص٢١٦)

يا سادراً في سكر غروره

يا سادراً في سكر غروره، يا سادلاً ثوب غروره، كأنك بك قد اقتعدت

(١) نوع من الصقور يستخدم في الصيد.

غارب[1] الغربة، واستبدلت بالأثواب التربة، سيقسم مالَك مَنْ لا يحمدك، وستقدم على من لا يعذرك، غداً يرجع الحبيبان عنك، حبيبك من أهلك يقسم حبيبك من مالك، وأنت في قفر الفقر إلى ما أسلفت، تبكي على ما خَلّفت، بين أناس كلهم أسير الفَرَق، وجميعهم على مهاد القلق.

مَحَلَّة سفرٍ كان آخر زادهم ... إليه متاع من حنوط ومن خِرَق
إلى منزلٍ سَوّى البِلى بين أهله ... فلم تستبنْ فيه الملوك من السُّوَق[2]

«المدهش» (ص٢١٦)

يا أهل الذنوب والخطايا

يا أهل الذنوب والخطايا، ألكم صبر على العقوبة؟ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ [المعارج: ١٥]، إذا شاهدت من اشترى لذة ساعة بعذاب سنين ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]، من أراد أن ينجو منها فليتب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣]، كيف أَمِنَ العصاة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]؟ كيف نَسُوا غِبَّ الزلل؟ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨].

إخواني، مَثّلوا أهل الجنة ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٨٥]، و﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، ومعهم توقيع: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يونس: ٦٢]، فلما وصلوا إلى الجنان ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، وبدأهم الخزنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وبشروهم بالبقاء الدائم: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقرأت الأملاك من سجل الأملاك

---

(١) يعني: مُتّ وارتحلت إلى الدار الآخرة، واقتعد الدابة ونحوها: اتخذها مركباً. و(الغارب) من البعير: ما بين السنام والعُنق.

(٢) مفردها: السُّوقَة: وهم الرعية. والسُّوقة: أوساط الناس.

مبلغ الثمن: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]، وجميع المرادات داخلة في إقطاع: ﴿مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١]، وقد استرجح في الميزان: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٥]، وأتم التمام: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وهـذا السـرور بتلـك الكُـرَب ... وهـذا النعيـم بـذاك التَّـعَـب

ويحك! ميز بعقلك وحسك بين الدارين، واحصر الذنب والعقاب والمح العاقبتين، هذا الحيوان البهيمي ينظر في العواقب، الإبل يأكل الحيات فيشتد عطشه فيحوم حول الماء ولا يشرب لعلمه أن الماء ينفذ السموم إلى أماكن لا يبلغها الطعام، ومَن عادته أن يسقط قرنه كل سنة وهو سلاحه فيختفي إلى أن ينبت، هذه الحية تختفي طول الشتاء بالأرض، فتخرج وقد عشا بصرها، فتحكه بأصول الرازيانج[1] لأنه يزيل الغشا، هذا الفهد إذا سمن علم أنه مطلوب وشحمه يمنعه من الهرب فهو يستر نفسه إلى أن ينحل الشحم، هذه النملة تدخر في الصيف للشتاء، فإذا خافت عفن الحب أخرجته إلى الهواء، فإذا حذرت أن ينبت حفرت موضع القِطْمِير[2].

أسمعت يا مقطوع الحيلة؟ متى تدخر من صيف قوتك إلى شتاء عجزك؟ هذه السمكة إذا حبستها الشبكة جمزت بكل قوتها لتقطع الحابس، لو نهضت بقوة العزم لانخرقت شبكة الهوى، إذا مَدّ النهر اغتنمت ذلك المَدّ الزنابير، فبنت منه بيوتاً لأنه لا يصلح لها غيره، مَدّ بَحْرُ الشباب وما بنيت بيت الجِدّ، فحدثني ما الذي تصنع في القَحْل؟ إن فاتك زمن المَدّ، فمَدّ اليد للسؤال حيلة المفلس.

يا مُحْصَراً عن الوصول لا يجزيه الهَدْي، يا منقطعاً في الطريق عن جملة

---

(١) نوع من النبات.

(٢) (القطمير): الشق في الحبة والنواة.

الوفد، تحامل إلى بعض خِيَمِ أهل الوصل، وأشهد على وصيتك ذَوَيْ عَدْلٍ، ونادِ في النادي بصوت الذل:

إذا مـا وصلتـم سـالميـن فبلّغـوا   تحيةَ مَنْ قد ظن أن لا يرى نجداً

وابسط في الدجى يد الطلب، فأطيب ما أكل الرجل من كسب يده[1].

«المدهش» (ص٢١٧-٢١٩)

يا ساعياً لنفسه في المهالك

يا ساعياً لنفسه في المهالك، دنا الرحيل ونضْو[2] النقلة بارك، متى تذكر وحشتك بعد إيناسك؟ متى تقتدي من ناسِكَ بناسكٍ؟ كأنك بك قد خرجت عن أهلك وولدك، وانفردت عن عَدَدك وعُدَدك، وقتلك سيف الندم ولم يَدِكْ[3]، ورحلت ولم يحصل بيدك إلا عَضُّ يدك.

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى   ولم تر في الباقين ما يصنع الدهر
فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم   محاها مجال الريح بعدك والقطر
على ذاك مَرّوا أجمعون وهكـذا   يمـــرون حتى يستردهـــم الحشـر
فحتامَ لا تصحو وقد قرب المدى   وحتامَ لا يَنْجَاب عن قلبك السكـر
بلى سوف تصحو حين ينكشف الغِطا   وتَذْكُـر قولـي حيـن لا ينفـع الذكـر

«المدهش» (ص٢٢٠)

---

(١) «إِنَّمِنْ أَطْيَبِ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَوَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ»، حديث ثابت عن النبي ﷺ، أخرجه أبو داود (٣٥٢٨) وغيره، وصححه شيخنا الألباني عليه رحمة الله تعالى.

(٢) (النضو): الهزيل من الإبل.

(٣) أي: لم يؤد دِيَتَك.

يا من يذنب ولا يتوب

يا من يذنب ولا يتوب، كم قد كُتِبَتْ عليك ذنوب؟ خَلِّ الأمل الكذوب، فرب شروق بلا غروب، وا أسفي! أين القلوب؟ تفرقت بالهوى في شعوب، ندعوك إلى صلاحك ولا تؤوب، وا عجبا! الناس ضروب، متى تنتهي لخلاصك أيها الناعس؟ متى تطلب الأخرى يا من على الدنيا ينافس؟ متى تذكر وحدتك إذا انفردت عن مؤانس؟ يا من قلبه قد قسا وجفنه ناعس، يا من تحدثه الأماني، دع هذه الوساوس.

«المدهش» (ص٢٢٠)

أين الجبابرة الأكاسرة؟

أين الجبابرة الأكاسرة الشجعان الفوارس؟ أين الأُسْد الضواري والظباء الكوانس؟ أين من اعتاد سَعة القصور؟ حُبِس من القبور في أضيق المحابس، أين الرَّافِلُ في أثوابه؟ عَرِي في ترابه عن الملابس، أين الغافل في أمله عن أجله؟ سَلَبَه كَفُّ المُخالس[1]، أين حارس المال؟ أُخِذ المحروس وقُتل الحارس.

«المدهش» (ص٢٢٠-٢٢١)

* * *

(١) (المخالس): المُسْتَلِب، من خَلَسَ خَلْساً.

يا مضمراً حب الدنيا

يا مضمراً حب الدنيا إضمار الجمل الحقود، نبعث منقاش اللوم وما يصل إلى شظايا المحبة، الدنيا جيفة قد أراحت[١] ومزكوم الغفلة ما يدري، سَوّق[٢] فيها ضجيج الهوى، فمن يسمع المواعظ؟

«المدهش» (ص٢٢١)

حصِّن حِصْن التقى بسور القناعة

حَصِّن حِصْن التقى بسور القناعة، فإن لص الحرص يطلب ثَلْمَة، غريم الطبع متقاضٍ مُلِحٌّ، والشَّرَهُ شَرَكٌ، وخمار المنى داء قاتل، بينا الحرص يَمُدّ وتَر الأمل انقطع، هل العيش إلا كأس مشوبة بالكدر، ثم رسوبها بالموت؟! ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

«المدهش» (ص٢٢١)

ربما أورد الطمع ولم يصدر

إخواني، ربما أورد الطمع ولم يُصْدِر، كم شارب شَرَقَ قبل الرِّيّ! من أخطأته سهام المنية قَيّده عِقال الهرم، ألا يتيقظ العاقل بأضرابه؟ ألا ينتبه الغافل بأوصابه[٣] ؟ أيسلم والرامي تحت ثيابه؟ يا مريضاً أتعب الأطباء ما به،

---

(١) أي: خرج ريحها.

(٢) أي: ساق وحدا.

(٣) (الأوصاب): الأسقام، واحدها: وَصَبٌ.

كأنك بالدنيا التي تقول مرحباً قد حَلَّتِ الحُبَى[١] وتفرقت تَفَرُّقَ أيدي سَبَا[٢].

ويحك! أخوك مَنْ عَذَلَك لا مَنْ عَذَرَك، صديقك من صَدَقك لا من صَدّقك، ويحك! من يُطْرِيك يُطْغِيك، وما لا يعنيك يُعنيك[٣]، تتوب صباحاً فإذا أمسيت تحول وتعول، وتقول غير أنك تنقض ما تقول، وتتلون دائماً كما تتلون الغول.

«المدهش» (ص٢٢٤-٢٢٥)

حصْن الزهد

لما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها، وخداع الأمل لأربابها، لجؤوا إلى حصن الزهد، كما يأوي الصيد المذعور إلى الحرم، لاح لهم حَبُّ المشتهى، فلما مدوا إليه أيدي التناول بان لأبصار البصائر خيط الفخ، فطاروا بأجنحة الحذر، وصَوتوا إلى الرعيل الثاني: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يسٓ:٢٦]، جمعوا الرحل قبل الرحيل، وشمروا في سواء السبيل، فالناس في الغفلات، وهم في قطع الفلاة.

«المدهش» (ص٢٢٥)

يا طويل الأمل

يا طويل الأمل في قصير الأجل، أما رأيت مُسْتَلَباً وما كَمَل؟ أتؤخر

---

(١) مفردها: الحبْوَة، وهي ما يُحْتَبَى به من ثوب وغيره.

(٢) أي: فرقتهم كما تفرق أهل سبأ الذين مزقهم الله تعالى في الأرض كل ممزق، هذا أحد الأقوال في معنى هذا المثل. والعرب لا تهمز سبأ في هذا الموضع لكثرة استعمالهم له.

(٣) أي: يتعبك ويشقّ عليك، من: «أعنى». والأولى من: «عَنِيَ».

الإنابة وتعجل الزلل.

يـا مـن يُعِـدّ غـداً لتـوبتـه	أعلـى يقيـن مـن بلـوغ غـد
المـرء فـي زلـل علـى أمـل	ومنيـة الإنسـان بـالـرصـد
أيـام عمـرك كلهـا عـدد	ولعـل يـومـك آخـر العـدد

«المدهش» (ص٢٣٢)

التوبة التوبة

يا أخي، التوبة التوبة قبل أن تصل إليك النوبة، الإنابة الإنابة قبل أن يغلق باب الإجابة، الإفاقة الإفاقة فيا قرب وقت الفاقة، إنما الدنيا سوق للتَّجْر، ومجلس وعظ للزَّجْر، وليل صيف قريب الفَجْر، المكنة مزنة صيف، الفرصة زورة طيف، الصحة رقدة ضيف، الغرة نقدة زيف، الدنيا معشوقة وكَيْفٌ، البِدار البِدار! فالوقت سيف.

«المدهش» (ص٢٣٢)

يا غافلاً عن مصيره

يا غافلاً عن مصيره، يا واقفاً في تقصيره، سبقك أهل العزائم، وأنت في اليقظة نائم، قف على الباب وقوف نادم، ونكِّس رأس الذل وقل: أنا ظالم، وناد في الأسحار: مذنب وواجم[1]، وتشبه بالقوم وإن لم تكن منهم وزاحم، وابعث بريح الزفرات سحاب دمع ساجم، قم في الدجى نادباً، وقف على

(١) (الواجم): الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام.

الباب تائباً، واستدرك من العمر ذاهباً، ودع اللهو والهوى جانباً.

«المدهش» (ص٢٣٢)

يا مدعواً إلى نجاته وهو يتوانى

يا مدعواً إلى نجاته وهو يتوانى، ما هذا الفتور والرحيل قد تدانى؟ يا مقبلاً على هفواته لا يألو بهتانا، كأنك بالدمع يجري عند الموت تهتانا[1]، وشغل التلف قد أوقد من شعل الأسف نيرانا، وأنت تبكي تفريطك حتى لقد أقرحت أجفانا، احذر زلل قدمك، وخف حلول ندمك، واغتنم وجودك قبل عدمك، واقبل نصحي ولا تخاطر بدمك.

إذا ما نهاك امرؤ ناصح ... عن الفاحشات انزجر وانته

وإما علوت إلى رتبة ... فكن حذراً بعدها أن تهي

وإما ترى مهجة في الثرى ... فلا تغترر بالمنى أنت هي

«المدهش» (ص٢٣٦)

يا مخدوعاً قد فتن

يا مخدوعاً قد فُتن، يا مغروراً قد غُبِن[2]، من لك إذا سُوّي عليك اللَّبِن؟ في بيت قط ما سُكِن، سَلْب الرفيق نذير والعاقل فَطِن.

أنت في دار شتات ... فتأهب لشتاتك

واجعل الدنيا كيومٍ ... صُمْتَه عن شهواتك

(١) هَتَن الدمع: قطر، فهو هاتن. والتَّهْتَان: مطر أو دمع -كما هنا- يَفْتُر ثم يعود.

(٢) غُبِن في البيع: غُلِب. وغَبِن رأيَه: نَقَص وضَعُف.

وليكـــن فطـــرك عنـــد الله فـــي يـــوم وفـــاتـــك

«المدهش» (ص٢٤٠)

كم مسؤول عن عذره في قبره مبهوت

كم مسؤول عن عذره في قبره مبهوت! لقد أنطق الوعظ الصخور الصموت، أما يكفي زجراً أنك تموت؟ بادر عمراً في كل يوم يفوت، قل أنا تائب، إلى كم سكوت؟ قد تَعَوَّدَتْ منك النفس في المجلس النطق بالتوبة، فهي تسخو بالكلام لعلمها أنه على غير أصل، ولو تيقنت صدق عزمك لتوقفت عن القول، هذا العصفور إذا كان على حائط فصحت به لم يبرح، فإذا أهويت إلى الأرض كأنك تناول حجراً يلمح يدك فارغة فلم ينفر، فإذا وضعت يدك على حجر رأى الجد فَفَرّ، يا هذا، قولك: أنا تائب من غير عزمٍ نفخ في غير ضَرَمٍ، بَيض التراب لا يخرج منه فرخ.

«المدهش» (ص٢٤٠-٢٤١)

العمر أنفاس تسير

إخواني، العمر أنفاس تسير بل تطير، الأمل منام لا ترى فيه إلا الأحلام، هذا سيف الموت قَدْ دَنا، فإن ضرب قَدَّنا، هذا الرحيل ولا زادَ عندنا، انتبهوا من رقاد الغفلة، تيقظوا من نوم العطلة، عَرِّجوا عن طريق البطالة، أبعدوا عن ديار الوحشة، الفترة حيض الطباع، ووقوع العزيمة رؤية النقاء، فحينئذ يتوجه الخطاب بالتوجه إلى محراب الجِدّ.

«المدهش» (ص٢٤١)

قد ركض الموت فأسرع في الركض

تالله لقد ركض الموت فأسرع في الركض، بث الجنود وطبق الأرض، ما حمل على كتيبة إلا وفَضّ، ولا صاح بجيش إلا جاش وارفض، ولا لوّح إلى طائر في البرج إلا انقض، إذا تكلمت قوسه بالنبض أسكنت النبض[١]، بينا الحياة تُعْرَبُ بالرفع جعل الشكل الخفض، أين مصون الحصون؟ أُزْعِجَ عنها، أين مقصور القصور؟ أُخرج منها، نقله هادم اللذات نقلاً سريعاً، ومقله[٢] في بحار الآفات مقلاً فظيعاً، وفرق بينه بالبين وبين بنيه، وطرقه بطارق النقض فأنقض ما كان يبنيه، لقد ولى ولاء ذي ود ينفعه، وبان فبان لباني الدنيا مصرعه، هجره والله من هاجر إليه، ونسيه نسيبه وقد كان يحنو عليه، فلا صديقه صَدَقه في مودته، ولا رفيقه أرفقه في شدته، حلوا والله بالبلاء في البِلى، وودعهم من أودعهم ثم قَلَى، وانفردوا في الأُخدود بين وحش الفلا، وسألوا الإقالة فقيل: أمّا هذا فلا، لو نطق الموتى بعد دفنهم لندموا على غيهم وأَفِنِهم[٣]، ولقالوا: رحلنا عن ظلم شرورنا إلى ظلَم قبورنا، وخَلَوْنا عن الأخلاّء بترابنا في آفاتٍ لا تُرى بنا، أفترى محبنا إذا ظعنا بمن اعتاض عنا؟

«المدهش» (ص٢٤٤-٢٤٥)

تيقظ لنفسك وانتبه

تيقظ لنفسك يا هذا وانتبه، وأحضر عقلك ومَيّز ما تشتبه، أما هذا منزلك

---

(١) أي: أسكنت الحركة. وما به نَبَضٌ؛ أي: حركة، ونَبَضَ العِرْقُ: تحرك وضرب. و«النَّبْضُ» الأولى، من أنْبَضَ القوس؛ أي: جَذَبَ وَتَرَها لتُصوّت. وأنبض بالوتَر: إذا جذَبَه ثم أرسله ليَرِنّ.

(٢) أي: غمسه وغطّه.

(٣) الأَفْن والأَفَن: النقص وضعف الرأي.

اليوم وغداً لست به؟

إذا ما انجلى الرأي فاحكم به	ولا تَحْكُمَنّ بما يشتبه
ونبّه فؤادك من رقدة	فإن الموفَّق من ينتبه
وإن كنتُ لم انتبه بالذي	وَعظتُ به فانتبه أنت به

لقد أمكنت الفرصة أيها العاجز، ولقد زال القاطع وارتفع الحاجز، أين الهمم العالية وأين النجايز[1]؟ أما تخاف هادم اللذات والمنى الناجز؟ أما اعوجاج القناة دليل على الغامز؟ أما الطريق طويلة وفيها المفاوز؟ أما القبور قَنطرة العبور؟ فمن المجاوز؟ أما يكفي في التنَغيص حمل الجنايز؟ أما العدو محارب؟ فهل من مبارز؟ أما الأمن بعيد والهلك ناشز؟ والقنا مشرع والطعن واخز، تالله تطلب الشجاعة من بين العجايز، وتروم إصلاح فاركٍ وتقويم ناشز، إن لم يكن سَبْقُ الصدّيق فلتكن توبة ماعز، ما هذه الغفلة والبِلى مصيرك؟! وكم هذا التواني فلقد أودى تقصيرك؟! أما صاح بك في سلبِ نذيرُك؟! أفلا تتأهب لقد ساء تدبيرك؟

«المدهش» (ص٢٤٨)

تفكروا في مصارع الذين سبقوا

إخواني، تفكروا في مصارع الذين سبقوا، وتدبروا مصيرهم أين انطلقوا؟ واعلموا أن القوم انقسموا وافترقوا، قوم منهم سعدوا ومنهم قوم شقوا.

أين من كان في سرور وغبطة؟ أين من بسط اليد في بسيط البسطة؟ لقد أوقعهم الموت في أصعب خطة، جسروا على المعاصي فانقلبت على الجيم النقطة[2].

«المدهش» (ص٢٥٢)

---

(١) لعلها العهود والوعود، جمع نجيزة.

(٢) يعني: خسروا.

سرور الدنيا أقتل من السّمّ

ويحك! إن سرورها أقتل من السّمّ، وإن شرورها أكثر من النمل، إنها في قلبك أعز من النفس، وستصير عند الموت أهون من الأرض، حرصك بعد الشيب أحر من الجمر، أبقي عمر؟ يا أبرد من الثلج، يا من هو عن نجاته أنوم من فهد، ضيعت عمراً أنفس من الدّرّ، أنت في الشر أجرى من جواد، وفي الخير أبطأ من أعرج.

«المدهش» (ص٢٦٠)

لو عاينت قِصر أجلك!

يا هذا، لو عاينت قِصر أجلك لزهدت في طول أملك، وليقتلنك ندمك إن زلت بك قدمك.

(للمتنبي):

إلى كم ذا التواني في التواني[1] ... وكم هذا التمادي في التمادي

وما ماضي الشباب بمستردٍّ ... ولا يومٌ يمر بمستعادِ

متى لحظتْ بياضَ الشيب عيني ... فقد وجدته منها في السوادِ

متى ما ازددت من بعد التناهي ... فقد وقع انتقاصي في ازديادِ

كم غرت الدنيا فرخها فعرت؟ ثم ذبحته بمدية ما مَرّت، إنها لتقتل صيادها، وتقتل أولادها.

---

(١) في «ديوانه»: إلى كم ذا التخلف والتواني.

والله لو كنت من رياشها أكسى من الكعبة، لم تخرج منها إلا أعرى من الحجر الأسود.

«المدهش» (ص٢٦٢-٢٦٣)

يا من أبعدته الخطايا

يا من أبعدته الخطايا عنهم، ادرج مرحلة الهوى وقد وصلت، أنت تتعلل للكسل بالقدر، فتقول: لو وفقني، ولكسب الشهوات بالندب إلى الحركة: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، أنت في طلب الدنيا قدري، وفي طلب الدين جبري، أي مذهب وافق غرضك تمذهبت به، أوَ ليس في الإجماع ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦]؟! جسدك عندنا وأنت في البيت، نحن في واد وأنت في واد.

«المدهش» (ص٢٦٣-٢٦٤)

يا غافلاً والموت يسعى في طلبه

يا غافلاً والموت يسعى في طلبه، يا مشغولاً بلهوه مفتوناً بلعبه، يا مشترياً راحة تفنى بطول تعبه، أما عللت مريضاً ورأيت كرب كربه؟! أما شيعت ملكاً فرجعت إلى سلبه؟! أما تخلى عن ماله وتخلى بمكتسبه، أنفعه غلو عزه أو علو نسبه؟! لقد ناجاك قبره وناداك أمره، فانتبه، ولقد ضره هواه فلا تلهج أنت به، لا تغرنك السلامة فمع الخواطي سهم صائب.

نظر شابٌ إلى شيخ ضعيف الحركة فقال: يا شيخ، من قَيّدك؟ فقال: الذي خَلَّفْتُه يَفْتِل قَيْدَك.

من أخطأته سهامُ الموت قَيَّده طولُ السنين فلا لهو ولا غـزل
وضاق من نفسه ما كان مُتَّسِعاً حتى الرجاءُ وحتى العزمُ والأمل

«المدهش» (ص٢٧١)

مَنْ حَدَّق بصره إلى طرف الدنيا طرفت عينه

من حدَّق بصره إلى طِرْف الدنيا طُرِفَت عينه، من أصغى إلى حديث الهوى أورثه الصمم عن النصائح، خَسَّتْ همة فرعون فاستعظم الحقير؛ ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١]، يا دني النفس حمارك ينهق من كف شعير يراه، الدنيا كلها كجناح بعوضة، فما نسبة مصر إليها؟ صبي الفهم يشغله لون الصَّدَفة والمتيقظ يرى الدّرّة، يا هذا، إذا لاحت لك شهوة فقف متدبراً عواقبها وقد بردت حرارة الهوى، فبين النجاة والهلاك فَوَاق، وا عجبا! أنفقت المال المسروق وبقي القطع.

«المدهش» (ص٢٧٢-٢٧٣)

يا أطفال التوبة

يا أطفال التوبة، ما أُنكر حنينكم إلى الرضاع، ولكن ذوقوا مطاعم الرجال وقد نسيتم شرب اللبن، إذا تحصن الهوى بقلعة الطبع فانصبوا مجانيق العزائم وقد انهدم السور، أنتم تخرجون لقتل سبع ما آذاكم ليقال عن أحدكم ما أجلده، فكيف تتركون سبع الهوى وقد أغار على سرح القلوب؟ إنما تتحف الملوك بالباكورة[1]، فافهموا يا صبيان التوبة إذا أَهديتم فالرطب لا الحشف،

---

(١) الباكورة: أول ثمرة، والمُعَجَّل من كل شيء، والمقصود: أن يبدأ بالتغلب على هواه لا أن يغلب =

يا أطيار الشباب، إما التعبد واستفراخ العلم وإلا فالذبح، تريدون نيل الشهوات وحصول المراتب! والجمع بين الأضداد لا يمكن.

«المدهش» (ص٢٨٠)

علاج مسمار الهوى

ما زلت أعالج مسمار الهوى في قلب العاصي، أميل به تارة إلى جانب التخويف، وتارة إلى ناحية التشويق، فلما ضعف الماسك بإزعاجي له اتَّسَعَ عليه المجال فَجَذَبْتُهُ، أَنِفْتُ لصبي اللعب من بيع جوهر العمر النفيس بصَدَفِ الهوى، فشددت عليه في الحِجْرِ ليعلم بعد البلوغ ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢].

«المدهش» (ص٢٨٠)

إنما خُلقت الدنيا لتجوزها

يا هذا، إنما خُلِقَتِ الدنيا لتجوزها لا لتحوزها، ولتعبرها لا لتعمرها، فاقتل هواك المايل إليها، واقبل نصحي لا تُعَوِّل عليها.

(لورقة بن نوفل):

لا شيء فيما ترى تبقى بشاشتُه ... يبقى الإلهُ ويُودِي[1] المالُ والولدُ

لم تغن عن هُرْمُزَ يوماً خزائنُه ... والخلد قد حاولتْ عادٌ فما خَلَدوا

ولا سليمان إذ تجري الرياح لهُ ... والإنس والجن فيما بينها تَرِدُ

العدو البعيد وعدوه القريب رابض بين جنبيه.

(١) يُودِي: يهلك.

أين الملوك التي كانت نوافلها[1] من كـل أوبٍ إليهـا وافِـدٌ يَفِـدُ
حوضٌ هنالك مورودٌ بلا كذبٍ لا بد من وِرْده يوماً كمـا وَرَدُوا

«المدهش» (ص٢٧٤)

الدنيا مزرعة النوائب

الدنيا مزرعة النوائب، ومَشْرعة[2] المصائب، ومُفَرِّقة المجامع، ومُجْرِية المدامع، كم سلبت أقواماً أقوى ما كانوا؟! وبانت[3] أحلى ما كانت أحلاماً[4] فبانوا[5]، ففكر في أهل القصور والممالك، كيف مُزِّقوا بكف المهالك، ثم عُدْ بالنظر في حالك، لعله يتجلى القلب الحالك[6]، إن لذات الدنيا لَفَوَارِكٌ[7]، وإن موج بلائها لَمُتَدَارِكٌ[8]، كم حَجّ كعبتها قاصد فقتلته قبل المناسك! كم علا ذروتها مغرورٌ فإذا به تحت السنابك[9]! كم غَرّت غِرّاً فما استقرَّ حتى صيد باشك[10]! خَلِّها واطلب خُلَّةً ذات سُرور وسُرُرٍ وأرائك، تالله ما طِيب العيش إلا هنالك.

«المدهش» (ص٢٧٤)

---

(١) النوافل: الغنائم والهبات، مفردها: النافلة.
(٢) أي: طريق.
(٣) أي: فصلت وقطعت، أو فارقت وهجرت.
(٤) أي: عقولاً، مفردها: حِلْم.
(٥) أي: بَعُدُوا وانفصلوا.
(٦) أي: الشديد السواد.
(٧) أي: توارك، شبهها بالنساء الفوارك، ومفردها: فارك وفَرُوك، وهي المبغضة لزوجها التاركة له الطامحة إلى غيره.
(٨) أي: متتابع يلحق بعضُه بعضاً.
(٩) أي: تحت الحوافر. السُنْبُك: طرف الحافر.
(١٠) الباشك: من البَشْك، وهو سرعةُ وخِفّة نقل القوائم، والباشك: سَيِّء العمل، والكاذب، فالله أعلم.

ما قعودنا وقد سار الركب؟!

إخواني، ما قعودنا وقد سار الركب؟! ما أرى النيةَ إلا نِيّة، يا مسافرين، مَنْ عَزَمَ تَزَوَّد، يا راحلين بلا رواحل، وطِّنوا على الانقطاع، ليت المحترز نجا! فكيف المهمل؟! يا أقدام الصبر، تحملي فقد بقي القليل، تذكري حلاوة الدَّعة[1] يَهُنْ عليك مُرُّ السُّرى[2]، قد علمتَ أين المنزل فاحدُ لها تَسِرْ.

«المدهش» (ص٢٧٤)

جدوا فقد سبقتم

إخواني، جِدُّوا فقد سبقتم، واستعدوا فقد لحقتم، وانظروا بماذا من الهوى عَلِقتم؟ ولا تغفلوا عما له خُلقتم، ذهبت الأيام وما أطعتم، وكتبت الآثام وما أصغيتم، وكأنكم بالصادقين قد وصلوا وانقطعتم، أهذا التوبيخ لغيركم أوَ ما قد سمعتم؟

آهٍ على زمان فات، وعلى قلب حي مات! كيف الطمع فيما مضى؟ هيهات!

يا من كان له قلب فانقلب، قيام السحر يستوحش لك، صيام النهار يسأل عنك، ليالي الوصال تعاتبك.

«المدهش» (ص٢٨١-٢٨٢)

* * *

---

(١) الخَفض والسَّعة في العيش.

(٢) السُّرَى: سير عامة الليل.

بادروا آجالكم

إخواني، بادروا آجالكم، وحاذروا آمالكم، أما لكم عبرة فيمن مضى؟ أما لكم؟ ما هذا الغرور الذي قد أمالكم؟ ستَتركون على رغم آمالكم ما لكم.

إخواني، صدقتم الأمل فكذبكم، وأطعتم الهوى فعذبكم، أما أنذركم السقم بعد الصحة، والترحة بعد الفرحة، في كل يوم يموت من أشباحكم ما يكفي في نعي أرواحكم، ويحل بعقوقكم وفنائكم ما يخبركم عن شتاتكم وفنائكم، فخذوا حذركم قبل النوائب، فقد أُتيتم من كل جانب، وتذكروا سهر أهل النار في النار، واحذروا فوت دار الأبرار، وتخوفوا يوم الفصل بين الفريقين أن يصيبكم من البين البينُ.

«المدهش» (ص٢٨٥-٢٨٦)

يا من تحصى عليه اللفظة والنظرة

يا من تحصى عليه اللفظة والنظرة، مَزِّق بيد الجِدِّ أثواب الفترة، وتأهب فما تدري السير عشاء أو بكرة، واعتبر بالقرباء فالعِبرة تبعث العَبرة، وتزود لسفرة ما مثلها سفرة، واقنع باليسير فالحساب عسير؛ على الذرة، وإياك والحرام وانظر من أين الكسرة؟ قبل أن تلقى ساعة حسرة، وتُلْقى بعدها في ظلمة حفرة.

«المدهش» (ص٢٨٩)

يا أطيار القلوب إلى كم في مزبلة الحبس؟

يا أطيار القلوب إلى كم في مزبلة الحبس؟ اكسري بالعزم قفص الحَصر،

واخرجي إلى فضاء صحراء القدس، روحي خماصاً من الهوى تعودي بطاناً من الهدى، بين أبي الحركة وأُمٍّ القصد ينتج ولد الظفر، لا يُنال الجسيم بالهوينا، حمل النفس على حمل المشاق مدرجة إلى الشرف، وا عجبا من توقف الكالي والدّرّ يُنثر، أشهود كغياب؟ أكانون في آب؟ الحرب خصام قائم وأنت غلام نائم، ادخل بسلامتك لابساً لامتك، ليس في سلاح المحارب أحدّ من نبلة عزم، أجرأ الليوث أجرها للصيود.

ليس عزماً ما مرض العزم فيـه ليس هماً مـا عاق عنه الظلام

طر بجناح الجد من وكر الكسل، تابع آثار الأحباب تصل.

«المدهش» (ص٢٩٠)

اعتبروا بالذين قطنوا وخزنوا

إخواني، اعتبروا بالذين قطنوا وخزنوا؛ كيف ظعنوا وحزنوا! وانظروا إلى آثارهم تعلموا أنهم قد غُبِنُوا، لاحت لهم لذات الدنيا فاغتروا وفُتِنُوا، فما انقشعت سحاب المُنى حتى ماتوا ودُفِنُوا.

جمعوا فما أكلوا الذي جمعوا وبنَـوا مساكنَهـم فمـا سكنـوا

فكأنهـم كانــوا بهــا ظُعُنــاً لما استراحـوا ساعةً ظَعَنوا

«المدهش» (ص٢٩٢)

* * *

يا من قد امتطى بجهله مطا المطامع

يا من قد امتطى بجهله مَطَا[1] المطامع، لقد ملأ الوعظ في الصباح والمساء المسامع، أين الذين بلغوا آمالهم؟ فما لهم في المنى منازع، ما زال الموت يدور على بدور الدور حتى طوى الطوالع، صار الجندل فراشهم بعد أن كان الحرير فيما مضى المضاجع، لقوا والله البَلا في تلك البلاقع.

«المدهش» (ص٢٩٢)

يا شباب الجهل

يا شباب الجهل، يا كهول التفريط، يا شيوخ الغفلة، اجلسوا معنا ساعة في مأتم الأسف، يا سحائب الأجفان، أمطري على رباع الذنوب، يا ضيف الندم على الإسراف، اسكن شغف القلوب، يا أيام الشيب، إنما أنت بين داع ووداع، فهل لماضٍ من الزمان ارتجاع؟!

«المدهش» (ص٢٩٣)

سكران الهوى بعيد الإفاقة

إخواني، سكران الهوى بعيد الإفاقة، فلو تذكر إقامة الحد طار السكر، من تَحَسّى مرق الهوى احترقت شفتاه، من أكل من الظلم تمرة أداها قوصرة[2]. ويحك! اغسل العثرة بعَبرة، وادفع الحوبة بتوبة، ما دام في الوقت مهلة، وفي زمن السلامة فسحة، قبل أن تموت وتفوت، وتعلو بعد الخيل

---

(١) المطا: الظهر.

(٢) القوصرة: وعاء من قصب يرفع فيه التمر من البواري. «لسان».

على تابوت، قبل أن ترى السمع والبصر قد كَلاّ، وتقول: ﴿رب ارجعون﴾ فيقال: ﴿كلا﴾، قبل أن [يسيل] دمع الأسى من جَفن من أَسَى، ويقال: هَلاّ كان هذا قبل هذا؟ هَلاّ؟

«المدهش» (ص٢٩٣)

يا مهتماً بحساب الطالع

ما تخفى علامات الإدبار عليك، تفتش دارُك فلا يرى سواك للطهارة، بلى ملاعق الأكل، ليس في البيت مصحف بل تقويم، أينفع وجود التقويم؟ يا مهتماً بالنظر في الطالِع، طالع ما قد خبىء لك، كأنك بالموت قد طلع، وما طالع فكرك عاقبة، اسمع حسابي حقاً وما أرجم، ودَعْ لكلماتي هذي قول الهاذي المنجم: إن ضُمَّ الندمُ على التفريط إلى العزيمة على الإنابة فساعةُ سَعْد، وإن اجتمع في القلب حب الدنيا على إيثار الكسل فقِران نَحْس.

«المدهش» (ص٢٩٤)

ما هذا الحب للدنيا والصبابة؟

ما هذا الحب للدنيا والصبابة؟ وإنما يكفي منها صُبابة، فقل للنفس الحريصة: لقد بعت الأخرى رخيصة.

يا نفس ما الدهر إلا ما علمتِ فكمْ ... ألستِ حدثتني أني أتوب فلمْ

إياك إياك من سوف فكم خدعت ... وأهلكت أمماً من قبلها وأُمَمْ

توبي يكن لك عند الله جاهُ تقى ... وقَدِّمي من فِعَال الصالحين قَدَمْ

يا راقداً للبلى حث المشيب به ... ألا فكن خائفاً لا تقعدَنّ وقمْ

يا من قد أخذ الهوى بأَزِمَّته، وأمسك الردى بلُمَّته، يا رهين ديون تعلقت في ذِمَّته، هذا أوان جِدِّك إن كنت مجداً، هذا زمان استعدادك إن كنت مستعداً.

«المدهش» (ص٢٩٥)

يا طفلاً في حجر العادة

يا طفلاً في حِجْر العادة، محصوراً بقِماط الهوى، ما لك ومزاحمة الرجال؟ تمسكت بالدنيا تمسك المرضَع بالظئر، والقوم ما أعاروها الطرف، ما لك والمحبة، وأنت أسير حبة؟ كم بينك وبينهم؟ وهل تدري أين هم؟

سار القوم ورجعت، ووصلوا وانقطعت، وذهبوا وبقِيت، فإن لم تلحقهم شقِيت.

«المدهش» (ص٣٠٢)

من اجتهد وجَدَّ وَجَد

يا هذا، من اجتهد وَجَدَّ وَجَد، وليس مَن سهر كمن رقد، والفضائل تحتاج إلى وثبة أسد.

(للمهيار):

خاطــرْ فـإما عيشــةٌ حـرةٌ ... يُـرغـدهـا العـزُّ وإمـا الحِمـام

زاحمْ على باب العلا واجتهد ... لا بد أن تدخُـلَ بينَ الزحـام

من طلـب الغايـة خطواً على ... ظهر الهوينا رام صعب المرام

لقد رضيت الغَبْنَ والغَبَنَ[1]، وبعت عمرك بأقل ثمن، وأنفقت فيما يرديك الزمن، وفترت في الصحة ولا فتور الزَّمِن، يا مغروراً بخضراء الدِّمَن، يا جامعاً مانعاً قل لي: لمن؟ كيف يَنال الفضائل مُستريحُ البدن، سِلَع المعالي غاليات الثمن، وإن ساومتها فبزهد أويس وفقه الحسن.

«المدهش» (ص٣٠٤)

أوقد مصباح الفكر في بيت العلم

يا هذا، أوقد مصباح الفكر في بيت العلم، تَلُح لك الأعلام، من سَدَّ ثغور الهوى بجند الجد ملأ عين راحته من نوم الطمأنينة، من دق صراط ورعه عن الشبهات عَرُض الصراط له يوم الجواز، لله درّ أقوام تأملوا الوجود ففهموا المقصود، فالناس في رقادهم، وهم في جمع زادهم، والخلائق في غرورهم، وعيونهم إلى قبورهم.

«المدهش» (ص٣٠٤-٣٠٥)

تيقظ لنفسك واذكر زوالك

تيقظ لنفسك واذكر زوالك، ودع الأمل ولو طوى الدنيا وزوى لك، فكأنك بالموت قد حيرك وأبدى كَلالك، ونسيك الحبيب لأنه أرادك له لا لك، وخلوت تبكي خِلالك في زمانٍ خَلا لك، وشاهدت أمراً أفظعك وهالك، تود أن تفتديه بالدنيا لو أنها لك، فتنبه من رقاد الهوى لما هو أولى لك، واحذر إن أعمالك أعمى لك، وأفعالك كالأفعى لك.

«المدهش» (ص٣٠٨)

---

(١) (الغَبْن) بالتسكين: في البيع، و(الغَبَن) بالتحريك: في الرأي.

لو كان لك باعث من نفسك

لو كان لك باعث من نفسك، ما احتجت إلى محرك من خارج، هذا الديك يصيح في أوقاتٍ معلومة من الليل لا تختلف، يؤدي وظائفها بباعث الطبع وإن لم يكن في القرية ديك غيره، وأنت تؤخر وظائف صلواتك، وتنقص من واجبات عباداتك، فإن بكيت في المجلس فلبكاء الجماعة، فإذا خلوت خلوت من محرك، هيهات! من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ، إذا لم يكن للدجاجة همة الحضن لم تنفع تغطيتها بمنخل الحاضن، تصابر الشقاء لما تأمل من العواقب، والرعناء تكسر البيض قصداً.

«المدهش» (ص٣٠٨)

يا صبيان التوبة

يا صبيان التوبة، ارْفُقُوا بمطايا أبدانكم فقد ألفت الترف، ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

يا صبيان التوبة، للنفس حظ وعليها حق، ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ [النساء: ١٢٩]، خذوا ما لها، واستوفوا ما عليها، ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥]، فإنْ رأيتم من النفوس فتوراً فاضربوهن بسوط الهجر، ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤]، على أني أوصي صبيان التوبة بالرفق، وبعيدٌ أن يقرّ[1] خائف أو يَسمع العَذْلَ مُحِبٌّ.

«المدهش» (ص ٣١٠)

---

(١) أي: يجد قراراً ومستقراً، يعني: أن الخائف دائم القلق.

يا موغلاً في مفازة تيهه

يا موغلاً في مفازة تيهه، يا باحثاً عن مُدْية حتفه، يا حافراً زُبْيَة[1] هَلْكِه، يا معمقاً مهواة مصرعه، بئس ما اخترت لأحب الأنفس إليك، ويحك! تطلب الجادة ولست على الطريق، كم فغر الزمان بوعظه فماً فما سمعت! ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يسٓ: ٧٠]، كيف تطيب الدنيا لمن لا يأمن الموت ساعة ولا يتم له سرور يوم؟ إذا كان عمرك في إدبار، والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى، لقد نُصِبت لك أشراك الهلاك، والأنفاس أدق الحبائل، يا ماشياً في ظلمة ليل الهوى، لو استضأت بمصباح الفكر، فما تأمن من بئر بوار، الشهوات مبثوثة في طريق المتقين، وما يسلم من شرها شَرِه، الأولياء في حرم التقوى، ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، الدنيا مثل منام، والعيش فيها كالأحلام.

«المدهش» (ص٣١٣)

احسب صبر يومك ساعة نومك

يا هذا، احسبْ صَبْرَ يومك ساعة نومك، تحظ في غدك برَغَدِك، البدار إلى الشهوات والندامة فرسا رهان، والتواني عن التوبة والخيبة رضيعا لبان، وا عجبا غرتك حبةُ فَخٍّ فحصلت وما حَوْصَلْتَ، اليوم وا طَرَبا للكاس، وغداً وا حَرَبا للإفلاس، آهٍ من حلاوةِ لُقَمٍ أورثت مَرَارةَ نِقَم، تَأَمُّلُ العاقبةِ لا يحصل إلا لناقدٍ بصير.

«المدهش» (ص٣١٤)

(١) الزُّبْيَة: حفرة في موضعٍ عالٍ تغطَّى فُوَّهتها، فإذا وطئها الأسد وقع فيها.

يا مجتنباً من الهدى طريقاً واضحاً

يا مجتنباً من الهدى طريقاً واضحاً، افتح عين الفكر تر العَلَم لائحاً، احذر بئر الغفلة فكم غَالَ سائحاً، وتَوَقّ بحر الجهل فكم أَغرق سابحاً.

يا غادياً في غفلةٍ ورائحا ... إلى متى تستحسن القبائحا

وكم إلى كم لا تخاف موقفا ... يستنطق الله به الجوارحا

يا عجباً منك وأنت مبصرٌ ... كيف تجنبت الطريق الواضحا

كيف تكون حين تقرأ في غدٍ ... صحيفةً قد حوت الفضائحا

وكيف ترضى أن تكون خاسرا ... يوم يفوز من يكون رابحا

يا معدوماً في الأمس، فانياً في الغد، عاجزاً في الحال، من أنت حتى تغتر بسلامتك وتنسى حتفك؟ وأملك بين يديك وأجلك خلفك، وكتابك قد حوى تفريطك، كم نُهيت عن أمر! فما كفك النهي أن تبسط كفك، يا من قد طال زلله وتعثيره، تفكر في عمر قد مضى كثيره، يا قلباً مشتتاً قَلّ نظيره، كم هذا الهوى؟ ولكم هوى أسيره! أيها القاعد عن أعالي المعالي، سبق الأبطال والبَطّال ما يبالي.

«المدهش» (ص٣١٥)

إنما يكون الجهاد بين الأمثال

ويحك! إنما يكون الجهاد بين الأمثال، ولذلك مُنِع من قتل النساء والصبيان، فأي قدر للدنيا حتى يحتاج قلبك إلى محاربة لها؟ أما علمت [أن] شهواتها جِيَفٌ ملقاة، أفيحسن بباشَق[1] الملك أن يطير عن كفه إلى ميتة؟

---

(١) الباشَق: اسم طائر.

مهلاً، ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ، لو علمت أن لذة قهر الهوى أطيب من نيله لما غلبك، أما ترى الهرة تتلاعب بالفأرة ولا تقتلها ليبين أثَرُ اقتدارها، وربما تغافلت عنها، فتمعن الفأرة في الهرب، فتثب فتدركها ولا تقتلها إيثاراً للذة القهر على لذة الأكل، من ذبح حنجرة الطمع بخنجر اليأس أعتق القلب من أسر الرِّق، من ردم خندق الحرص بسِكْر[1] القناعة ظفر بكيمياء السعادة، من تدرع بدرع الصدق على بدن الصبر هزم عسكر الباطل، من حصد عشب الذنوب بمنجل الورع طابت له روضة الاستقامة، من قطع فضول الكلام بشفرة الصمت وجد عذوبة الراحة في القلب، من ركب مركب الحذر مرت به رخاء الهدى إلى رجاء النجاة، من أرسى على ساحل الخوف لاحت له بلاد الأمن.

«المدهش» (ص٣١٦)

إلى متى تستعبدكم الدنيا؟

الدنيا تعطي تفاريق وتسترجع جُمَلا، وترضع أفاويق وتقطع عَجَلا، يواتي خيرها وإن واتى لُمَعا، ثم يأتي شرها حين يأتي دُفَعَا، فترى العبرات عند فقدها تُراق ولا تَرْقا[2]، والزفرات عند سلبها تَهِدّ ولا تهدا، ويحكم! إن المفروح به من الدنيا هو المحزون عليه.

إخواني، ذودوا هممكم عن مرعى المنى فإنه يزيدها عَجَفاً، ولا تولوا الهوى على ميدان الأبدان، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، الهوى وَثَنٌ يُنْصب في جاهلية الشباب، فإن صح إسلام العزم جَعَلَ أصنامَ الشهواتِ جُذَاذاً.

---

(١) السِّكر: ما يُسَدّ به النهر ونحوه.

(٢) أي: ترقأ، بمعنى: تسكن وتجف وتنقطع بعد جريانها، أعني: الدموع.

يا معاشر الشباب، زيدوا في سلاسل الهوى فإن شيطان الهوى مارد، زِنُوا حلوى المشتهى بمُرّ العِقاب يَبِنْ لكم التفاوتُ، إلى متى يقودكم الهوى؟ إلى متى تستعبدكم الدنيا؟

«المدهش» (ص٣٢٢)

عجباً لراحلٍ غافل!

عجباً لراحل عن قليل، غافل عن زاد الرحيل! لا يعتبر بأخذ الجيل، وإنما هو تأخير وتعجيل. أين النزيل؟ أُزيل . أين القويم؟ أُميل. أين المطمئن؟ اغتيل.

إن الليالـي لا تبقى على حال	والنـاس مـا بيـن آمـال وآجـال
كيـف السـرور بـإقبـال وآخـره	إذا تـأملتـه مقلـوبُ إقبـال[1]

تيقظوا فالأيام دائبة، وتحفظوا فالسهام صائبة، واحذروا دنياكم فما هي مواتية، واذكروا أُخراكم فها هي آتية، أما رأيتم الدنيا فقد أبانت خدعها ومكرها، إذ أبانت مَنْ جمعها مُكْرهاً، أين الارتياد للسلامة غداً؟ أين الاستعداد قبل الندامة أبداً؟ كأنكم بالمسير عن الربع قد أزف، وبالكثير من الدمع قد نزف، وبالمقيم قد أُبين مما أَلِف، وبالكريم قد أُهين لَمّا تَلِف.

«المدهش» (ص٣٢٦)

أين أرباب المناصب؟

أين أرباب المناصب؟ أبادهم الموت المناصب. أين المتجبر الغاصب؟

---

(١) «مقلوب إقبال»؛ يعني: «لا بقاء».

أذله عذاب واصب. لُفَّتْ والله الأكفان كالعصائب على تلك العصائب، وحلت بهم آفات المصائب إذ حَلّ بلُبّاتهم سهمٌ صائب، فيا من يأمن هذه النوائب، أحاضر أنت أم غائب؟ كم عاصٍ بات في ذنوبه، يتقلب على فراش عيوبه، مِزمار ومِزْهر ومُسْكر ومُنْكر، فجاءه الموت فُجاءة فأنساه وَلَدَه ونساءَه، وجلب مساؤه ما ساءه، فنُقِل إلى اللحد ذميماً، ولقي من غِبِّ المعاصي أمراً عظيماً.

بينا تراه غادياً رائحاً	في نعمٍ غادية رائحة
إذا بيوم طالح مُخْرِجٍ	من خبئه آمالَه الصالحة
كم سالمٍ صحته موته	وقائل عهدي به البارحة
أمسى وأمست عنده قَيْنَة	فأصبحت تندبه نائحة
فكن من الدنيا على صيحة	وأينا ليست به صائحة
من كانت الدنيا به بَرّة	فإنها يوماً له ذابحة

«المدهش» (ص٣٣٤)

يا طويل الأمل

يا طويل الأمل في قصير الأجل، يا كثير الزلل في يسير العمل، خلا لك الزمان وما سددت الخلل، أفما عندك وجل من هجوم الأجل؟

تجهز إلى الأجداث ويحك والرَمْس	جهازاً من التقوى لأطول ما حبسِ
فإنك ما تدري إذا كنت مصبحاً	بأحسن ما ترجو لعلك لا تمسي
سأُتعب نفسي أو أُصادف راحة	فإن هوانَ النَفْس أَكْرَمُ للنفسِ

وأزهـد في الدنيـا فإن مُقِيمها　　　كظاعنها ما أَشْبَهَ اليومَ بالأمسِ

يا معاشر الأصحاء، اغتنموا نعمتي السلامة والإمهال، واحذروا خديعتي المنى والآمال، قد جربتم على النفس تبذيرها في بضاعة العمر، فانتبهوا لانتهاب الباقي.

«المدهش» (ص٣٤٢)

يا ثقيل النوم

ألا يا ثقيل النوم، يا بطيء اليقظة، يا عديم الفهم، أما ينبهك الأذان؟ أما تزعجك الحُداة؟ أترى نخاطب عُجْماً، أو نكلم صُمّاً؟ كم نريك عيب الدنيا! ولكن عين الهوى عوراء، كم نكشف للبصر قصر العمر؟ ولكن حَدَقَة الأمل حولاء.

«المدهش» (ص٣٤٣)

يا من شاب وما تاب

يا من شاب وما تاب ولا أصلح، يا معرضاً إلى ما يؤذي عن الأصلح، ليت شعري بعد الشباب بماذا تفرح؟ ما أشنع الخطايا في الصبا وهي في الشيب أقبح، إذا نزل الشيبُ ولم يَزَلِ العيبُ فبعيد أن يَبْرَح.

(للبحتري):

وإذا تكامـل للفتى من عمـره　　　خمسون وهو إلى التقى لا يَجْنَحْ

عكفتْ عليه المُخْزياتُ فمـا له　　　مُتَأَخَّــرٌ عنهـا ولا مُتَزَحْــزَحْ

وإذا رأى الشيطان غُرَّة وجهه   حَيَّى وقال فَدَيْتُ مَنْ لا يَفْلَحْ

«المدهش» (ص٣٤٣-٣٤٤)

متى تفيق من خمار الهوى؟

يا هذا! عقلك يحثك على التوبة وهواك يمنع والحرب بينهما، فلو جهزت جيش عزم فر العدو، تنوي قيام الليل فتنام، وتحضر المجلس فلا تبكي، ثم تقول ما السبب؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، عصيت النهارَ فنمت بالليل، أكلت الحرام فأظلم قلبك، فلما فُتِحَ باب الوصول للمقبولين طُرِدْت، ويحك! فِكْرُ القلب في المباحات يُحدث له ظُلمة، فكيف في تدبير الحرام؟ إذا غير المسك الماء منع الوضوء، فكيف بالنجاسة؟! متى تفيق من خُمَار الهوى؟ متى تنتبه من رقاد الغفلة؟

«المدهش» (ص٣٥٤)

ابك على نفسك

ابك على نفسك قبل أن يُبكى عليك، وتفكر في سهم قد صُوّب إليك، وإذا رأيت جنازة فاحسبها أنت، وإذا عاينت قبراً فتوهمه قبرك، وعُدّ باقي الحياة ربحاً.

«المدهش» (ص٣٥٦)

أيها التائبون بألسنتهم

أيها التائبون بألسنتهم ولا يدرون ما تحت نطقهم؟ لا يحكم بإقراركم

﴿ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]، متى صَدَقَتْ توبةُ التائب بَنى بيت التعبد بصخور العزائم ولم ينته في أساسه دون الماء، ما ضُرِبَ بسيف العزيمة قَطُّ إلا قَطَّ، التوبة الصادقة تَقلع آثارَ الذنوب، إذا قرىء على التائب عهد ﴿ أَلَسۡتُ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ذَكَرَ الإقرارَ وعَرَفَ الشُّهود، فخجل من الخيانة فجَرَتِ العينُ وأطرق الرأس.

«المدهش» (ص٣٥٨)

يا مطلقاً طرفه لقد عقلك

أكثر فساد القلب من تخليط العين، ما دام باب العين موثقاً بالغض فالقلب سليم من آفة، فإذا فُتِح البابُ طار طائرٌ وربما لم يَعُدْ، يا متصرفين في إطلاق الأبصار جاء توقيع العزل: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَـٰرِهِمۡ ﴾ [النور: ٣٠]، إطلاق البصر يَنْقُشُ في القلب صورة المنظور، والقلب كعبة؛ «ويسعني»[١]، وما يرضى المعبود بمزاحمة الأصنام.

عيناي أعانتا على سفك دمي	يا لذة لحظة أطالت ألمي
كم أندم حين ليس يغني ندمي	وَيْلي ثَبَتَ الهوى وزَلَّتْ قدمي

يا مطلِقاً طرفه لقد عقلك، يا مرسلاً سبع فمه لقد أكلك، يا مشغولاً بالهوى، مهلاً! قتلك، بادر رَمَقَك[٢] فقد رَمَقَك بالرحمة مَنْ عذلك[٣].

«المدهش» (ص٣٦٣-٣٦٤)

---

(١) يشير إلى الأثر القائل: «لم تسعني سمواتي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن». وهو باطل، بل قيل: إنه من وضع الملاحدة.

(٢) أي: أنفاسَك وبقية حياتك.

(٣) أي: فقد نظر إليك بالرحمة من لامك على جهلك وزللك.

أين الزاد يا مسافر؟

أين الزاد يا مسافر؟ أين درع التقوى يا سافر؟ لقد أنشب الموت فيك الأظافر ولا تشكن أنه ظافر، هذه النَّبْل فأين المغافر، كيف تصنع إن غضب الغافر؟ يا مبارزاً بالقبيح أمؤمن أنت أم كافر؟ إن قمت سدلت من ثياب كِبرك وإن أقمت سَدَرْت من شراب خَمرك، اصطفقت أبواب المواعظ وما استفقت، تقف في الصلاة بغير خضوع وتقرأ التخويف وما ثَمَّ خشوع، يا نائماً عن صلاحه، كم هذا الهجوع! يا دائم الحضور عندنا، هل عمرك إلا أسبوع؟ إن لنجم الحياة لأُفول، ولشمس الممات لطُلوع، أين أبوك أين جدكَ؟ السيف قطوع، كيف تبقى مع كَسْرِ الأصول ضعافُ الفروع؟ تُعَلِّق الدنيا بقلبك وتعتذر بلفظ مصنوع، إصرارك كالصحيحين وإقلاعك حديث موضوع، مَزِّق أملك فالعمر قصير، حَقِّق عملك فالناقد بصير، زِدْ زادَ سفرك فالطريق بعيد، رَدِّدْ نظر فِكرك فالحساب شديد، صِحْ بالقلب لعله يرعوي، سَلِّمه إلى الرائض عساه يستوي.

«المدهش» (ص٣٧٥-٣٧٦)

عاتب نفسك على تفريطها

يا هذا، عاتب نفسك على تفريطها، ثم حاسبها على تخليطها، حدثها بما بين يديها وأخبرها، أَشِر عليها بمصلحتها ودبِّرْها.

استعدي للموت يا نفس واسْعَي	لنجـاةٍ فالحـــازم المستعـدُّ
قـد تبينـتِ أنـه ليـس للحي	خلـود ولا مـن المـوت بُـدُّ
أي ملك في الأرض أو أي حظ	لامرىء حظه من الأرض لَحْدُ
كيـف يهـوى امـرؤ لـذاذة أيـام	عليـه الأنفـاس فيهـا تُعَـدّ

آهٍ لنفوس بغرور هذه الدنيا يُخْدَعْنَ، فإذا فاتهن شيء من فانٍ تَوَجَّعْنَ، شربن من مياه الغفلة وتجرعن، فلما بانت حبة الفخ أسرعن، فما انجلت ساعة التفريط حتى وقعن، أما علمن أنهن يحصدن ما يزرعن؟! أما تيقنَّ أنهن في هلاكهن يشرعن؟! يا قلة ما تنعمن، ويا احتقار ما تمتعن، أما هن عن قليل في اللحد يَضْجَعْنَ؟! أين تلك الأقدام المشيّعة لَهُنَّ؟ تَصَدَّعْنَ، طال ما كن يوترون الذنوب ويشفعن، فلو رأيتهن بعد الموت يتضرعن: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾، لا والله لا يَرْجِعْنَ، يا عجبا! هذه الآفات لهن ويهجعن، وهذا الحبس الشديد ويرتعن، يا لها من مواعظ فهل أَثّرْنَ أو نَجَعْنَ؟!

«المدهش» (ص٣٧٩)

العزلة تجمع الهم

يا هذا، العزلة تجمع الهم[١]، والمخالطة نَهّابة، الهوى مرضع كثير التخليط، فهذا طفل قلبك كثير المرض، عَجِّل فطامه وقد صَحّ، العزلة والقناعة والصبر والعفة والتواضع عقاقير كيمياء النجاة، يبلغن بمستعملهن مرتبة الغنى، والحرص والشره والغضب والعجب والكبر كلهم مجانين في مارستان العقل وهو القيم عليهم، فليحذر الغفلة عنهم فإنه إن أفلت مجنون حَلّ الباقين.

يا هذا، حِصن السلامة العزلة، أقل ما في الخروج منه من الأذى مصادمة الهواء المختلف المهابّ في بادية الشهوات، وقد عَقَبَتْهُ جَنُوب المجانبة للصواب فصار وباءً، وإياك أن تتعرض للهواء الوبيء مغتراً بصحة مزاجك،

---

(١) العزلة الصحيحة: هي العزلة عن الحرام والمكروه والفضول، وأين تكون هذه في هذا الزمان؟ في بيتك؟ أخرج منه الحرام أولاً، وإلا فاعتزله!

فإنك إن سلمت من فضول الفتن من التلف لم تأمن زُكْمَة، ومتى تمكنت زُكْمَة الهمة لم تشم الفضائل.
«المدهش» (ص٣٨٠)

الذباب أعلى همة منك

وا عجبا لك! تعد التسبيح بسُبحة، فهلاّ جعلت لعَدِّ المعاصي أخرى، يا من يختار الظلام على الضوء، الذباب أعلى همة منك، متى أظلم البيت خرج الذباب إلى الضوء، أما ترى الطفل في القِماط يُناغي المصباح؟ ويحك! خذ بتلابيب نفسك قبل أن يجذبها ملك الموت، وقل: أيتها النفس الحمقاء، إن كان محمد صادقاً فالمسجد وإلا فالدَّير[١]!

«المدهش» (ص٣٨٥)

يا من أعماله رياء وسمعة

يا من أعماله رياء وسمعة، يا من أعمى الهوى بصره وأَصَمّ سمعه، يا من إذا قام إلى الصلاة لم يخلص ركعة، يا نائماً في انتباهه إلى متى هذه الهجعة؟ يا غافلاً عن الموت كم قلع الموت قلعة؟ كم دخل دارك فأخذ غيرك! وإن له لرجعة، كم شَرَى شخصاً بنَقْدِ مريض؟ وله الباقون بالشُّفْعة، كم طرق جباراً فأشَتّ شمله وأخرب ربْعه، أفلا يتعظ البيذق[٢] بسلب شاه الرقعة[٣].

«المدهش» (ص٣٩٧)

---

(١) هذا للتقرير أن محمداً ﷺ صادق، فلا بد إذاً من المسجد لا الدير.

(٢) من أحجار رقعة الشطرنج، وهو الجندي.

(٣) أي: ملكها.

يا عامر الدنيا

يا عامر الدنيا، إنما الدنيا دار قلعة، كم مزقت قلباً بحبها! فرجع ألف قطعة، إن خصت بطيب المذاق أغصت وسط الجرعة، يوم تَرَحها سنة وسنة فَرَحها جمعة، إنها لمظلمة ولو أوقدت ألف شمعة، وهي مع هذا خائنة ولو حلفت بربعة[1]، كم دُرِسَتْ عليكم مجلدات! تقول: ما هذه الأنفس مُخَلَّدات، أين الأقارب؟ أين اللذات؟ أفلا روائد ذهن للأخبار متنسمات؟ آهٍ للقاعدين عن طلب المكرمات! آهٍ للمستريحين لقد رضوا بمولمات!

ذهـــب العمـــر وفـــات	يـــا أسيـــر الشهـــوات
ومضـــى وقتـــك فـــي لهـــو	وســـهـــو وسُـــبـــات
بينمـــا أنـــت علـــى غِيِّـــك	حتـــى قيـــل مـــات

«المدهش» (ص٣٩٧-٣٩٨)

يا تائهاً في بوادي الهوى

يا تائهاً في بَوادي الهوى، انزل ساعة بِوادي الفكر يخبرك بأن اللذة قصيرة والعقاب طويل، وا عجبا لمن يشتري شهوة ساعة بغم الأبد! كانت المعصية ساعة لا كانت، فكم ذَلَّت بعدها النَّفْس، وكم تصاعد لأجلها النَّفَس، وكم جرى لتذكارها دَمْع.

«المدهش» (ص٤٠٥)

* * *

---

(١) الرَّبْعَة: صندوق أجزاء المصحف. «قاموس».

إذا رزقت يقظة فصنها في بيت عزلة

يا هذا، إذا رزقت يقظة فصنها في بيت عزلة[1]، فإن أيدي المعاشرة نَهّابة، احذر معاشرة الجهال فإن الطبع لص، لا تصادقن فاسقاً، فإن من خان أول منعم عليه لا يفي لك، يا أفراخ التوبة، لازموا أوكار الخلوة، فإن هر الهوى صيود، إياك والتقرب من طرف الوكر والخروج من بيت العزلة حتى يتكامل نبات الخوافي[2] وإلا كنت رزقَ الصائد، الأنس بالإنس رِبْق، المخالطة توجب التخليط، وأيسر تأثيرها تشتيت الهم.

أقل ما في سقـوط الذئب في غنم   إن لم يصب بعضها أن ينفر الغنم

«المدهش» (ص٤٢٦)

أيها المقصر عن طلب الزاد

أيها المقصر عن طلب الزاد، كيف تدرك المعالي بغير اجتهاد؟! أين أهل السهر من أهل الرقاد؟ أين الراغبون في الهوى من الزهاد؟ رحل المتيقظون مستظهرين بكثرة الزاد، كل جواد لهم يعرف الجواد، فساروا فزاروا والكسلان عاد.

«المدهش» (ص٤٣٠)

رياح المواعظ

إذا هبت رياح المواعظ أثارت من قلوب المتيقظين غيم الغم على ما سلف، وساقته إلى بلد الطبع المنحرف برعد الوعيد وبرق الخشية، فترقى

---

(١) انظر الحاشية (صفحة ٢٩١).

(٢) الخوافي: ريشات إذا ضَمّ الطائر جناحيه خفيت، واحدتها: خافية. راجع «اللسان».

دموع الأحزان من بحر قعر القلب إلى أَوْج الرأس[1]، فتسيل في ميازيب الشؤون[2] على سطوح الوجنات، فإذا أعشب السر اهتزّ فرحاً بالإنابة.

«المدهش» (ص٤٣٤)

يا من أنفاسه عليه معدودة

يا من أنفاسه عليه معدودة، وأبواب التقى في وجهه مسدودة، وأعماله بالرياء والنفاق مردودة، غير أن محبة التفريط معه مولودة.

حياتـك أنفــاس تُعَــدّ فكلمــا	مضى نَفَس منها انْتَقَصْتَ بها جزءا
فتصبح في نقصٍ وتمسي بمثله	أما لــك معقــول تحسّ به رِزْءا
يميتك ما يحييك في كل ساعة	ويحدوك حادٍ ما يريد بك الهُزْءا

كم أسرعتَ فيما يؤذي دينك ودَأَبت؟ كم خرقت ثوب إيمانك وما رأبت؟ كم فرقت شعب قلبك وما شعَّبْت[3]؟ كم فاتك من خيرٍ وما اكتأبت؟ يا كاسب الخطايا بئس ما كَسَبْتَ.

«المدهش» (ص٤٥٣)

يا تائهاً في فلاة الغفلات

يا تائهاً في فلاة الغفلات، اعل بأقدام الذهن نَشْزَ الفكر تلُح لك البلد، ويحك! تركب البحار في طلب الدنيا فإذا أُمرت بخير قلت: إن وفقني!

---

(١) أَوْج الرأس: أعلاه.

(٢) الشؤون: عروق الدموع من الرأس إلى العين.

(٣) أي: لممت الصَّدْع وأصلحته.

أَصَمّ اللهُ سمعَ الهوى فما يسمع إلا ما يريد.

يـــا ملـــولاً كلّمـــا ثَقِــفَ بــالعــذل التَــوى
عَنَتـــاً تطلـــب فـــي فَـــالُـــوذَجِ الهـــوى نَـــوى

ما أحسن قولك! وما أقبح فعلك! كم يشكو حزيران نطقك من كانون عزمك[1]! ويحك! بادر دُرّ الأرباح ما دام يُنْثر.

«المدهش» (ص٤٥٤)

يا معاشر المذنبين اسمعوا وصيتي

يا معاشر المذنبين، اسمعوا وصيتي، إذا قمتم من المجلس فادخلوا دار الخلوة وشاوروا نصيح الفكر وحاسبوا شريك الخيانة وتلمحوا تفريط التواني في بضاعة العمر، ويكفي ما قد مضى فليحذر الأعور الحَجَر، إذا نَقِيَ خاطر المُذَكِّرِ من ذل هوى، وصفى معين معنى كلامه من كدر طمع، انكشف الغشاء عن عينه فرأى بالفطنة موضع قُطْنَةِ مَرْهَمِ العافية، فربّى حشائش الحِكَم وركّب فيها معاجين الشفاء، ففتحت سُدَدَ الكسل واستفرغت أخلاط الشواغل، فأما مُجْتَلِبُ الدنيا بنطقه فإنه كلما حفر قَلِيبَ قلبه فأمعن لاستنباط معنى طَمّ الطمعُ، إذا صدر العلم من عامل به كان كالعربية ينطق بها البدوي، وأحلى أبيات الشِّعْر ما خرج عن أبيات الشَّعَر، جمعت بين الكتاب والسنة ففتحا لي هذه المعاني، فهي تنادي السامعين: «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ لاَ مِنْ سِفَاحٍ»، ومن جمع بين الجهل والبدعة هَذَى الهَذَيَانَ، فكلامه في مرتبة ابن زانية، إذا فَتَحَتِ الوردة عينَها رأت الشوك حولها، فلتصبر على مجاورته قليلاً

---

(١) يعني: أن حاله أقوال بلا أفعال، النطق حار كحزيران والعزم بارد ككانون.

فوحدها تُجْتَنى وتُقَبَّل، وا عجبا لألفاظي وعملها! بطل السحر عندها، كل المذكرين رَجَّالة وأنا فارس، أخرج إلى المعاني في كمينٍ فأصيدها لا بأُحبولة، إذا حضرتُ مَلَكْتُ العيون، وإذا غِبْتُ اسْتَرْهَنْتُ القلوب.

«المدهش» (ص٤٦٠)

أعجب العجائب

إخواني، أعجب العجائب أن النقاد يخافون دخول البَهْرَج في أموالهم والمُبَهْرِج آمن، هذا الصِّدِّيق يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وهذا عمر يقول: يا حذيفة هل أنا منهم[1]؟ والمُخَلِّط على بساط الأمن.

النـــاسكـــون يُحَـــاذِرُو	ن ومـــا بسَيِّئَـــة أَلَمُّـــوا
كـــانـــوا إذا رامـــوا كـــلا	مـــاً مُطْلَقـــاً خَطَمُـــوا وزَمُّـــوا
إن قِـيلَـــــتِ الفحشـــاءُ أو	ظهـرتْ عَمُـوا عنهـا وصَمُّـوا
فَمَضَـوْا وجـــاء معـــاشـــرٌ	بـــالمنكـرات طُمُـــوا وطَمُّـــوا
ففَـــــمٌ لِطُعْـــمٍ فـــاغِـــرٌ	ويَـــدٌ علـــى مـــالٍ تُضَـــمُّ
عَـدَلُـوا عـن الحَسَـن الجميـ	ـــل وللخَنَا عَمَـــدُوا وأَمُّـــوا
وإذا هـــــم أَعْـيَـتْهُـــــمُ	شنعـــاؤهـم كـذبـوا وأَمُّـــوا
فـــالصـــدر يغلـــي بـــالهـــوا	جس مثـل مـا يغلـي المُحَـمُّ

«المدهش» (ص٤٦١)

---

(١) يعني: من المنافقين.

دنا رحيلكم

إخواني، دنا رحيلكم، وقد بان سبيلكم، وسيهجركم خليلكم، وقد نصحكم دليلكم.

يـا مقيميـن ارحلـوا للـذهـاب	بشفيـر القبـور حَـطُّ الـركـاب
نَـعِّـمـوا الأوجـهَ الحســان	فما صونكموها إلا لعَفْر التراب
والبَسـوا ناعـم الثيـاب ففـي	الحفرة تعرون عن جميع الثياب
قد نعتك الأيام نعياً صحيحاً	بفِراق الإخـوان والأصحـاب

«المدهش» (ص٤٦٤)

تذكر يا من جنى ركوب الجنازة

تذكر يا من جنى ركوب الجنازة، وتَصَوَّرْ ما من مأوى في طول المفازة، ودَع الدنيا مُوَدِّعاً للحلاوة والمزازة، ارقم من قلبك ذكر الجزاء على جُزَازَة[1]، كم ظالمٍ تعدى وجار، فما رعى الأهل ولا الجار؟ حَلَّ به الموتُ فَحلَّ الأزرار، وأدبر عن الأوامر فأحاط به الإدبار، ودار عليه بالدوائر فأخرجه من الدار، وخلا بعمله ﴿**ثاني اثنين**﴾ ولكن لا ﴿**في الغار**﴾، فانتبهوا فإنما هي جنة أو نار.

تعلقـــــتَ بــــآمـــــالٍ	طـــــــوالٍ أيِّ آمـــــال
واقبلــتَ علــى الــدنيــا	مُلِحـــــاً أيَّ إقبـــــال
فيـــا هـــذا تجهـــز لــ	ـفـراق الأهـــل والمـــال

(١) الجزازة: القطعة.

فـــلا بـــد مـــن المـــوت   علـــى حـــالٍ مـــن الحـــال

«المدهش» (ص٤٦٤)

الدنيا فلاة

الدنيا فلاة فلا تأمن الفلا، بل تيقن أنها مارستان[1] بَلا، ولا تسكن إليها وإن أظهرت لك الوَلا، على أنها تخفض من عَلا، فلينظر الإنسان يَمنة فهل يرى إلا مِحنة؟! ثم ليعطف يَسرة فهل يرى إلا حَسرة؟! أمّا الرَّبْع العامر فقد دَرَسَ، وأمّا أَسَدُ الممات ففَرَسَ، وأمّا الراكب فكَبَتْ به الفَرَسُ، وأما الفَصيح فاستُبْدِل الخَرَس، وأما الحكيم فما نفعه إن احترس، ساروا في ظلام ظلمهم ما عندهم قَبَسٌ، ووقفت سفينة نجاتهم لأن البحر يَبَسٌ.

«المدهش» (ص٤٧٣)

يا مغرورين بحبة الفخ

يا مغرورين بحبة الفخ ناسِين خَنَق الشَّرَك، تذكروا فوات الملتقط مع حصول الذبح، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣، وفاطر: ٥]، الحذر الحذر من صياد يسبق الطير إلى مهابطه بفخاخ مختلفة الحِيَل، قَدِّروا أنكم لا ترون خيطَ فَخِّه، أما تشاهدون ذبائحه في خَيْطٍ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]؟

(للشريف الرضي):

يا قَلْبُ كيف عَلِقْتَ في أشراكهم   ولقد عهدتـك تُفلت الأشراكـا

---

(١) المارستان: دار المرضى (المستشفى).

لا تَشْكُونَّ إلـيَّ وجـداً بعدهـا | هذا الذي جَرَّتْ عليك يَدَاكا

ألا يصبر طائرُ الهوى عن حبةٍ مجهولةِ العاقبة؟! وإنما هي ساعة ويصل إلى بُرْج أمنه، وفيه حَبَّات.

«المدهش» (ص٤٧٤)

طريق الوصول صعبة

طريق الوصول صعبة، وفي رجلك ضعف، ويحك! دُمْ على السلوك تصل، أول النخلة السَّحوق[1] فسيلة، بداية الآدمي الشريف مضغة، ثمن المعالي جدُّ الطلب، والفتور داء مزمن، بلد الرياضة سحيق، ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ﴾ [النحل:٧]، سحابة الصيف أثبت من قولك، والخَطُّ على الماء أبقى من عهدك.

«المدهش» (ص٤٧٦)

أيام العافية غنيمة باردة

إخواني، أيام العافية غنيمة باردة، وأوقات السلامة لا تشبهها فائدة، فتناوَلْ ما دامت لديك المائدة، فليست الساعات الذاهبات بعائدة.

مضى أمسك الماضي شهيداً معدلا | وأتبعـه يـوم عليـك شهيـد
فإن تكُ بالأمس اقترفت إساءةً | فبـادر بـإحسـان وأنـت حميـد
ولا تُبْقِ فعل الصالحات إلى غدٍ | لعل غداً يأتي وأنـت فقيـد

(١) أي: الطويلة.

إذا ما المنايا أخطأتك وصادفتْ حميمك فاعلم أنها ستعود

«المدهش» (ص٤٨١)

كأنكم بالقيامة قد قامت

كأنكم بالقيامة قد قامت، وبالنفس الأمارة بالسوء قد لامت، وانفتحت عيونٌ طال ما نامت، وتحيّرت قلوبُ العصاة وهامت.

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساؤوا فبئس ما صنعوا

«المدهش» (ص٤٨١)

إنك لم تزل في حبس

يا هذا، إنك لم تزل في حبس، فأول الحبوس صُلْب الأب، والثاني بطن الأم، والثالث القِماط، والرابع المَكْتب، والخامس الكَدّ على العيال، والسادس الموت، والسابع القبر، فإن وقعت في الثامن[1] نسيت مرارة كل حبس.

«المدهش» (ص٤٨١)

حبس التقوى

يا هذا، ادخل حبس التقوى باختيارك أياماً، ليحصل لك الإطلاق في الأغراض على الدوام، ولا تؤثرن إطلاق نفسك فيما تحب، فإنه يؤثر حبس

---

(١) يعني بالحبس الثامن: جهنم، أعاذنا الله منها.

الأبد في النار، إلى متى تسجن عقلك في مطمورة هواك؟ أَوَ يُحْبَس طاووس في ناووس[1]؟ ويحك! تفكر فيما بين يديك، وقد هان الصبر عليك، لما خفيت العواقب على المتقين، فزعوا إلى القلق، وأكثروا من البكاء.

«المدهش» (ص٤٨١-٤٨٢)

ألا ذو سمع وبصر؟

إخواني، ألا ذو سمع وبصر يعلم أن الأعمار فيها قِصَر؟ ألا مُتَلَمِّحٌ ما في الغِيَر من العِبَر؟ ألا ذاكرٌ بيت التراب والمَدَر؟

تنبه فإن الدهر ذو فجعات ... وشَمْلَ جميعٍ صائرٌ لشتاتِ
نُخَلِّفُ مأمولاتنا وكأننا ... نسير إليها لا إلى الغَمَرَاتِ
هل المرء في الدنيا الدّنيّة ناظر ... سوى فقد حِبٍّ أو لقاء مماتِ
وما حركات الدهر في كل طرفةٍ ... بلاهيةٍ عن هذه الحركاتِ
سَيُسْقى بنو الدنيا كؤوسَ حتوفهم ... إلى أن يناموا لا منام سباتِ
وما فرحت نفسٌ ببلوى وقد رأت ... عظاتٍ من الأيام بعد عظاتِ
إذا بَغَتَتْ أشياءُ قد كان مثلها ... قديماً فلا تَعْتَدُّها بَغَتاتِ
وأعقب من النوم التيقظ راشداً ... فلا بد للنوّام من يقظاتِ

يا من يجول في المعاصي قلبه وهمه، يا معتقداً صحته فيما هو سقمه، يا من كلما طال عمره زاد إثمه، أين لذة الهوى؟ رحل المطعوم وطعمه.

---

(١) الناووس: صندوق من خشب أو نحوه يضع النصارى فيه جثة الميت، والناووس: مقبرة النصارى.

يا من سيجمعه اللَّحد عن قليل ويضمه، كيف يوعظ من لا يعظه عقله ولا فهمه؟ كيف يوقظ مَنْ قد نام قلبه لا عينه ولا جسمه؟ ويحك! تَدَارَكْ أمرَك قبل الفوت.

«المدهش» (ص٤٨٩)

لمن أُحَدّث والقلب غائب؟

لمن أُحَدث والقلب غائب؟ لمن أعاتب والفكر ذاهل؟ وا أسفا من ضرب الخَراج على بلدٍ خراب، ويحك! أجمادٌ أنت أم حيوان؟ هذا الفهد على خساسة خلقه يصاد بالصوت الحسن، ومتى وثب على الصيد ثلاث مرات ولم يدركه غضب على نفسه، كم قد وثَبْتَ على هواك مرة فلم تقدر عليه، فأين غضبك على التقصير؟ هيهات! ليس عند الطاووس إلا حسن الصورة، تفيق في المجلس لحظة ثم تذكر الشهوات فيغمى عليك، إن الغراب إذا سكر بشراب الحرص تَنَفّل بالجِيَف، فإذا صحا من خُماره ندب على الطَّلَل، لما عزت نفس الببغاء زاحمت الآدميين في النُّطق، وهي تتناول بكَفِّها من جِنْس مطاعمهم.

وا عجبا لبهيم يتشبه بالناس، ولإنسان يتشبه بالبهيم! كل هذا سببه الهِمّة.

«المدهش» (ص٤٩٠)

يا ديار الأحباب

يا ديار الأحباب، أقوى[١] جديدُها، أين أسودها؟ أم أين غِيدها[٢]؟

---

(١) أقفر.

(٢) الغِيد: الظباء، يقال: ظبي أغْيَد. والغيد أيضاً جمع غَيْداء، وهي المرأة الناعمة.

أين ظباء الهوى؟ مَرَّتْ، ومَنْ يصيدها؟ تساوى في القبور مواليها وعبيدها، قف يا حبيبي بالرسوم، وانظر نَسْخَ النسيم بالسموم، وتبديلَ الأفراح بالغموم، هيهات! إن الدنيا لا تدوم، إنها على قتلك تحوم، إيثار مثل هذه لُوم.

«المدهش» (ص٤٩٨)

أيها الباكي على أقاربه الأموات

أيها الباكي على أقاربه الأموات، ابك على نفسك فالماضي قد فات، وتأهب لنزول البلايا وحلول الآفات، وتذكر قول من إذا ذَكَرَكَ قال: مات، كأنك بما أتى الماضين قد أتاك، ولقد صاح بك نذيرهم: أنت غداً كذاك، ولَيُخْرِسَنَّ الموت بسطوته فاك إذا وافاك، إنما اليوم لهذا وغداً لذاك.

«المدهش» (ص٤٩٨)

يا من يَحَدَّث وكأنه ما يسمع

يا من يُحَدَّث وكأنه ما يسمع، متى لم ينصت سمعُ القلب ضاع الحديث، أترى ينطبع في شمع سمعك من هذا حَرْف؟! تحضرون المجلس فرجة، وتجعلون رجاء النفع حُجّة، ولا تسلكون إلى العمل محجة، ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ [يوسف:٥٣]، وا عجبا! تجتمع العزائم في المجلس اجتماع الثُّرَيّا، فإذا خرجنا صارت كبَنَاتِ نَعْشٍ، لو تأملتم عيب الدنيا لهان طلاقها.

سرور الدهر مقرون بحُزْنٍ ... فكن منه على حذر شديد
ففي يمناه تاجٌ من نُضَارٍ[1] ... وفي يُسراه قيد من حديد

---

(١) النُّضار: الذهب.

آهٍ للدنيا! ملكت القلب حين ملكت وأبقَتِ الغم ثم أبقَتْ[1].

«المدهش» (ص٤٩٩)

قفل الهوى

لله دَرّ أقوام علموا قرب الرحيل فهَيّؤوا آلة السفر، وهُوّنوا بالدنيا فقنعوا منها بما حضر، واستوثقوا بقفل التقوى من أذى النطق والنظر، ما لك خُبْر بحالهم ولا عندك منهم خَبَر، قاموا في الجد وقعدت، وسهروا في الدجى ورقدت.

«المدهش» (ص٥١٠)

يا من قد ملكته نفسه

يا من قد ملكته نفسه، وغلبه حسه، وقد دنا حبسه، وسَتكُفّ خَمْسُه، ولقد أنذره جنسه، عاتب نفسك لعلها ترعوي، وسلمها إلى رائض العلم عساها تستوي، [أحْضِرْها] دستور المحاسبة وحاسبها، واندُبها إلى الخير فإن أبت فاندُبها[2].

يا ويح نفس رضيت بالسقم	وفرطت في عمر منصرمِ
تستر باللهو وتنسى حتفها	وتؤثر البعد على التقدمِ
وكلما أصبحت أبكي فعلها	أضحت عناداً لي في تبسمِ
تفرح بالفاني فما تطلب ما	يبقى لها فمن يكون حكمي

(١) أي: ذهبت وهربت، ومنه: أَبَقَ العبدُ: هرب من سيده.
(٢) الأولى بمعنى: ادعُها وحُثَّها، والثانية بمعنى: ابك عليها، كما يُندب الميت؛ أي: يُبكى عليه.

أقول يا نفس اتقي من لم يزل ... معروفه يفوق وكف الدِّيَمِ
كم من ذنوب لك قد سترها ... وعاد بالفضل وبالتكرمِ
وكم له من نعمة جاد بها ... وكم وكم أولاك طيب أنعمِ
كم واعظٍ في كل يوم زاجرٍ ... وكم نذير زائر مُسَلِّمِ
وكم يناديك لسانُ عِبرة ... وأنت عن قول الهدى في صَمَمِ
أين الذين شَيّدوا واحترسوا ... وأين من كان كثير النّعَمِ
مضى الجميع هل ترى من أثر ... لهم وصاروا في بيوت الظُّلَمِ
تبدلوا بالترب ترباً كلهم ... في قعر لحد ضَيِّقٍ منهدمِ
تفصلت عظامهم وحصلت ... أعمالهم وأصبحوا كالعدمِ
وباشروا التراب بعد تَرَفٍ ... وشَرَفٍ وحُجُبٍ وخَدَمِ
وسررٍ ودُرًى وطُرَفٍ ... وتُحَفٍ وصَولةٍ وكَرَمِ
ولذة في شهوة لذيذة ... وعزة في عزمة وهممِ
لو قيل قولوا ما مناكمُ طلبوا ... حياة يوم ليتوبوا فاعلمِ
ويحك يا نفس ألا تيقظٍ ... ينفع قبل أن تزل قدمي
مضى الزمان في توان وهوى ... فاستدركي ما قد بقي واغتنمي
انتظري الموت سيأتي بغتة ... وأنت بين أسف وندمِ
وحرق وفرق وحسرة ... وفيضِ دمع العين في تَسَجُّمِ
وترحلين عن ديار ألفة ... فانتبهي من رقدات النومِ
من لي إذا نزلتُ لحداً مظلماً ... هذا وكم من نازل لم يَسْلَمِ

من لـي إذا قـرأتُ مـا أمليتُـه — أقبـح مسطـورٍ جـرى بـالقَلَـمِ
من لـي إذا أزعج قلبي حسرة — وهل ترى يُشفى بفوزي ألمي
كيف الخلاص والكتاب قد حوى — كـلَّ فعالـي وجميـع كَلِمـي
يا نفس فـاز الصالحـون بالتقى — فأبصروا الرشد وقلبي قد عَمِي
يا حسنهم والليـل قد جنّهـم — ونـورهـم يفـوق نـور الأنجـمِ
تـرنمـوا بـالـذكـر فـي ليلهـم — فعيشهـم قـد طـاب بـالتـرنـمِ
قلـوبهـم للـذكـر قـد تفـرغـت — دمـوعهـم كلـؤلـؤ منتظـمِ
أسحارهم بهم لهم قد أشرقت — وخُلَـع الغفـران خيـر القَسَـمِ
ساروا وعدت عن طريق واضح — دل على الرشـد دليـل العَلَمِ
دعنـي أبكـي مـا حييـت أبـداً — فحـق لـي أبكـي فـلا لا تَلُـمِ

«المدهش» (ص ٥١٣-٥١٤)

أما لك من عقلك ناهٍ ولا زاجر؟

يا عجبا لك! تتسمى باسم تاجر، وتخاصم على الدرهم وتشاجر، وتصابر لربح القيراط الهواجر، وتغضب لأجل الحبة وتهاجر، وترضى في أفعالك باسم فاجر، أما لك من عقلك ناهٍ ولا زاجر؟ يا من نومه كثير وانتباهه نادر، إن دُعِيت إلى التوبة سَوَّفْتَها، وإن قمت إلى الصلاة سَفَفْتَها، وإن لاح وجه الدنيا ترشفتها، أما هي دار بلغة لضيفها تَضَيَّفْتَها؟ أوَ ليس قد شِبْتَ وما عرفتها؟ كم بادية في أرباح غير بادية تَعَسَّفْتَها؟ لقد استشعرت محبتها إي والله والتَحَفْتَها، تالله لو علمت جناياتها لعِفْتَها، أنسيت تلك الذنوب التي أسلفتها؟

آهٍ لبضائعِ عُمرٍ بَذَّرْت فيها وأَتْلَفْتَها، كم تَعِدُ بالإنابة؟ وكل الوعود أَخْلَفْتَهَا.

«المدهش» (ص٥١٤)

عجباً للطرف كيف اغتمض!

عجباً للطرف كيف اغتمض! ولِمُكَلَّفٍ ما أدى المفترض، يا من كلما بنى على أن يلوذ بنا نقض، يا من إذا أدى حقاً فعلى مضض، يا من إذا لاح له صَيْدُ الفاني جَدَّ وركض، يا من إذا قدِر على جيفة الهوى جَثَمَ وربَض، يا مشغولاً عن الجوهر بفاني العَرَض، إيثار ما يفنى على ما يبقى أشد المرض.

ألا يا غافلاً تُحصى عليه ... من العمل الصغيرة والكبيرهْ

يُصاح به ويُنذر كل يوم ... وقد أنسته غفلته مصيرهْ

تأهب للرحيل فقد تدانى ... وأنذرك الرحيل أخٌ وجِيرَهْ

وكم ذنب أتيت على بصيرهْ ... وعينك بالذي تأتي قريرهْ

تُحاذر أن تراك هناك عين ... وإنّ عليك لَلْعَيْنُ البَصيرهْ

وكم من مدخل لو مت فيه ... فكنت به نكالاً في العشيرهْ

وُقِيتَ السوء والمكروه منه ... ورحت بنعمة فيه ستيرهْ

هذا حادي الممات قد أسرع، هذه سيوف المُلِمَّات تلمع، هذه قصور الأقران بَلْقع، إنْ وصلت الدنيا فعلى نية أن تقطع، وإن بذلت فعلى عزمٍ أنْ تمنع، أفيها حيلة أم في وصلها مطمع؟ يا مُعْرَقاً في البِلى قل لي لمن تجمع؟ إذا خلوت وتخليت فكيف تصنع؟

«المدهش» (ص٥١٥)

* * *

يا من يخطي على نفسه ويقترف

يا من يخطي على نفسه ويقترف، متى تندم وتعترف؟ يا من بحب العاجل قد كَلِف، ستعلم غداً جفن من يَكِف، يا محبوساً في سجن الهوى لو ارعوى أَنِف، يا متردداً في التوبة سارع ولا تقف، أعمالك كلها قباح، إلى كم فساد؟ متى يكون الصلاح؟ ستفارق هذه الأجسادُ الأرواح، إما في غُدُوٍّ وإما في رَوَاح، سيفنى هذا المساء والصباح، وسيخلو البِلى بالوجوه الصِّباح، أفي هذا شك؟ والأمر صِرَاح.

«المدهش» (ص٥١٧)

يا معدوداً مع الشيب في الصبيان

يا معدوداً مع الشيب في الصبيان، يا محبوساً مع البصراء في العميان، يا واقفاً في الماء وهو ظمآن، يا عارفاً بالطريق وهو حَيْران، أما وُعِظْتَ بآي القرآن؟ أما زُجِرْتَ بنأي الأقران؟ أما تعتبر بصروف الزمان؟ أتعمر المنزل وعلى الرحيل السكان؟ أما يكفي وعظ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]؟ تسافر ببضائع الأمانة وما تنزل إلا في خانِ مَنْ خان، أفعالك كلها مكتوبة فيا ليت ما كان ما كان، تدفن الميت ولا وعظ كالعِيان، ثم تعود غافلاً يا قرب ذا النسيان، ويحك! أما تدري أن الهوى هوان؟ ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يسٓ: ٦٠]؟

نُـراعُ إذا الجنـائـز قـابلتْنـا ... ونَسْكُـنُ حيـن تخفـى ذاهبـات

كـروعـة ثَلَّـةٍ[1] لظهـور ذئـبٍ ... فلمـا غـاب عـادت راتعـات

«المدهش» (ص٥١٨)

---

(١) الثَّـلَّـةُ: جماعة الغنم.

يا مستأنساً بظل متقلص

يا مستأنساً بظلٍّ مُتَقَلِّص، يا حريصاً على الهوى والموت عليه يحرص، يا مَنْ إذا كال فمُطَفِّف، وإن وزن فمتلصص، ما تتخلص من معامل وهو عند الله متخلص، تفكر فيمن أصبح مسروراً فأمسى وهو متنغص، ومتى ازددتَ لذة فاذكر قبلها المُنَغِّص، حاسب نفسك وخذ على يديها لا تُرَخِّص، حائط الباطن خَرَاب فلماذا تُجَصِّص؟

«المدهش» (ص٥١٨)

يا من أنفاسه محفوظة

يا من أنفاسه محفوظة، وأعماله ملحوظة، أَيُنْفَقُ العمر النفيس في نيل الهوى الخسيس؟

جَـدَّ الـزمـانُ وأنـت تلعـب ... والعمرُ لا فـي شـيء يـذهـب

كـم كـم تقـول غـداً أتـوب ... غـداً غـداً والمـوت أقـرب

أما عمرك كلَّ يوم يُنْتَهب؟ أما المُعْظَم منه قد ذهب؟ في أي شيء؛ في جمع الذهب؟ تبخل بالمال والعمر تَهَب، يا من إذا خلا تفكر وحَسَب، فأما نزول الموت فما حَسَب، لك نوبة لا تشبه النُّوَب، بين يديك كُرْبة لا كالكُرَب، تطلب النجاة ولكن لا مِن باب الطلب، تقف في الصلاة إنَّ صلاتك عَجَب، الجسم حاضر والقلب في شُعَب، الجسد بالعِراق والقلب في حلب، الفهم أعجمي واللفظ لفظ العرب.

«المدهش» (ص٥٢٩)

يا صاحب الخطايا

يا صاحب الخطايا لست معنا، يا مقبلاً على الهوى ما أنت عندنا، ضاعت حيلي في تحصيل قلبك، اشتدت حيرتي في تلافي أمرك، وا عجبا! أُخَوِّفُك عواقب الأمور وما تتوب، وأشرح لك أحوال الصالحين وما تؤوب، ومتى سقطت شهوة العليل دنا الموت، قد أَوْقَدْتُ نارَ المواعظ إلى جانب كسَلِك ونَفَسُ عزيمتِك شديدُ البرودة، وقد اتفق الأطباء على أن النَّفَس البارد في المرض الحاد دليل الهلاك.

الموت في كل حين يَنْشُر الكفنا	ونحن في غفلة عما يـراد بنـا
كـأن ما قـد رأينـا فـي أحبتنـا	من الرحيل ونأْيِ الدار ليس لنا

«المدهش» (ص٥٤١)

ما فاز سوى الزاهدين

والله ما فاز سوى الزاهدين، ولا نال الربح غيرُ العابدين، ونهاية الكمال للمحبين، كان هَمُّ القوم طلبَ النجاة، وكانت لذتهم في المناجاة، فارتفع لهم القَدْر وعلا الجاه، لو رأيتهم في الأسحار وقد حَارَ الخائف، بين اعتذار واستغفار ولطائف، يتخلل ذلك دمع غزير ذارف، يرمز إلى شوق شديد متكاثف.

«المدهش» (ص٥٤١)

* * *

تنبهوا يا نيام

تنبهوا يا نيام، كم ضيعتم من عام؟! الدنيا كلها منام، وأحلى ما فيها أحلام، غير أن عقل الشيخ بالهوى غلام، عَلاَمَ قَتْلُ النفوس عَلاَم؟ هل هو إلا ثوب وطعام؟ ثم يتساوى خَزّ وخام، ولذات طيبات ووَخَام[1]، إنما يعرف الفطناء لا الطغام، آهٍ لغافل إلى كم يلام؟ أما توقظك الليالي والأيام؟ أين سكان القصور والخيام؟ دارت على الكل كأس الحِمام، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، إلى متى مزاحمة الأنعام؟ رُدُّوا هذه الأَنْفُس بزمام، ازجروا هذه القلوب عن الآثام، اقرؤوا صحائف العِبر بألسنة الأفهام، موت الجيران شَكْل وأخذ الأقران إعجام، يا مَنْ أَجَلُهُ خلفَه وأملُهُ قُدّام، رُبَّ يومٍ له مِفتاح ما له خِتام، يا مقتحماً على الحرام أَيَّ اقتحام، ستعلم مَنْ يبكي في العقبى؛ عقبى الإجرام؟ ويشارك النَّدامى على الندامى[2] والمُدام، يا طويل المرض متى يبرى السَّقام؟ يا مَنْ إنْ قعد فللدنيا وكذا إن قام، أول الدنيا هَمّ وآخرها موت زُؤَام.

«المدهش» (ص٥٤٢)

انتهى الكتاب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكتب

محمد شومان

١٤٢٠هـ

---

(١) الوَخَام: الرداءة، ووَخُمَ الطعام: ثَقُل فلم يُسْتَمْرأ.

(٢) الأولى: جمع نَدْمان؛ من الندم، والثانية: جمع نَدْمان؛ وهو المصاحبُ على الشرابِ المسامرُ. و(المدام): الخمر.

الفهرس